فتح الله كولن

الرؤية والتأثير

تجربة فاعلة في المجتمع المدني



فتح الله كولن

الرؤية والتأثير

تجربة فاعلة في المجتمع المدني

رقم الإيداع ISBN

978-977-6183-20-9

رقم النشر

1005

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 جـــ- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402-5

Mobile: 0020 1000780841

e-mail: info@daralnile.com

www.daralnile.com

القاهرة 2015م

فتح اللّٰه كولن

الرؤية والتأثير

تجربة فاعلة في المجتمع المدني

تأليف

مايمول أحسن خان

ترجمة

أحمد سعيد عبد الوارث

محمود علي جمعة


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع



مقدمة

ما زال فتح الله كُولَن منذ عقود علَمًا من الأعلام التركيّة المرموقة، اختير سنة ٢٠٠٨م «المفكِّرَ الأكثرَ تأثيرًا في العالم» في استطلاع رأيٍ عالميٍّ للمجلة الأمريكية الحائزة على جوائز عدّة «فورين بوليسي (*Foreign Policy*)» المتخصصة في السياسة الدولية، بالتعاون مع مجلة «بروسبيكت (*Prospect*)» البريطانية؛ جمع كولن بين العلوم الشرعية التي أخذها عن نخبة من علماء أجلاء في شرق تركيَا وبين دراسة مبادئ ونظريات العلوم الاجتماعية والطبيعية الحديثة.

ولما فاز في مسابقة الدعاة بامتياز سنة ١٩٥٩م، اعتمدت الجهات المعنيّة في أنقرة تعيينه في مجال الدعوة؛ وقد تمكن من أن يصوغ لنفسه قالبًا دعويًّا وفكريًّا صارمًا.

نعم، كان كولن ينأى بنفسه عن سياسة الوطن وصراعاتها، إلا أنَّه لم يألُ في حضّ أبناء الجيل على أن يفعلوا ما عليهم فعله في سبيل الإصلاح ورفاهية الناس والعالم أجمع، ولتحسين أداء تركيا على المسرح العالمي؛ وبرهنت أفكاره المبتكرة عن إصلاح التعليم والمجتمع على مدى ما تتسم به من قيمة بالنسبة للمجتمع عامَّةً، وللجاليات المسلمة خاصَّةً.

لـم يقتصـر كولن -خلافًـا لكثير من الدعـاة والكتَّاب- على مِسـاحة ضيقة من الفكر التقليدي أو القوميّ، فلم يتّهم حكومات معينة في المآسي التي يعاني منها الناس، بل حمَل على عاتقه هموم المظلومين والمهمَّشين وراح يبحـث لهـم عـن نمـاذج جديدة مـن الخطـاب الدعوي؛ فلـم يُعْنَ بدراسة وجهات نظر اجتماعية واقتصادية وسياسية معينة، بل عمَّت دعوته للإصلاح قِطاعات المجتمع كافّة.

وكان كولـن ينأى بنفسـه عن أيِّ إسـتراتيجية فيهـا مواجهة أو تحزّب سياسـي، ويدعـو دائمًـا إلـى توحيد الصف على أسـاس مبادئ الإسـلام السـمحة، وهـذا نظريًّـا ليس بجديد علـى التصوّف، فكثير مـن الحركات الصوفية كانت -حقيقةً- قريبة من المثل العليا التي ينادي بها كولن، علمًا بأنَّه لم يكن متصوفًا تقليديًّا ألبتة.

ويُعَدّ فكر كولَن وأتباعه نبتًا جديدًا في حقلِ الفكرِ الإسـلامي ورعايةِ مصالح الناس بحسٍّ مرهف، وأخصّ بالذكر نشاطهم الفعّال وغذاء الروح اللذيـن تفتقر إليهما عدة حركات إسـلامية معاصرة، أمَّا ما مُنِيت به بعض الحركات السياسيّة الإسلاميّة من فشل فلم ينعكس شيء منه على أسلوب كولَن في الكتابة أو الكلمة، ولم يحُل ظهور الجماعات الدينية الأخرى أو تقاليد الأديان الأخرى بينه وبين صياغة مُثُلِه العليا التي تقوم على ضرورةِ نشرِ تعليمٍ أساسُه القيم، وتنميةِ ما يستهدف الناس من غذاءٍ روحيّ ونشاط ثقافيٍّ.

وهـا هـي ذي الإنسـانية في العقـود الأخيرة من القرن العشـرين تُقبل بشـغف علـى المثل الروحيـة العليا، فهي مـلاذ لحماية ونمو البشـر وهو أكرم من على وجه هذه البسـيطة؛ يقول كولن في هذا المقام: لما تعرَّض

كثيـرٌ مـن القيم الإسـلامية الحقيقية للضيـاع أو للتشـويه لاذت جماعات وأحزاب دينية كثيرة إلى المبادئ الدينيّة، فأفرز ذلك قوى سياسيّة متعصبة أو متشددة، والأمر هو هو في العالم الغربي، فمطلع القرن العشرين شهد بداية تاريخ الأصولية المسيحية الحديثة.

ولما ظهرت دول قوميّة تدّعي أنّها إسـلاميّة على خريطة السياسـة في العالـم، ونفثـت أفكارًا متطرفة تنسـبها إلى الدّين، أضـرَّ ذلك بمحاولات إحياء القيم الإسلامية العالمية بصورة حقيقية؛ وتبين خُطب كولن وكتاباته مدى وعيه بما مُنيَت به حركات سياسية سالفة من إخفاق فكري في تعزيز القيم الخُلُقية المسـتنبطة والمنصوص عليها، كثيرةٌ هي البلدان الإسـلامية التي حاولت أن تنهض، وكانت تتخذ من المُثُل القوميّة أساسًـا لها، فكثير مـن الأتـراك في السـنوات الأولـى للجمهوريـة ومثلهم العـرب والفرس عمـدوا إلى بناء دولة حديثة مزدهرة، قوامها المُثُل القوميّة، وكانوا يميلون إلـى اتخـاذ موقف تمييزي تجاه جميـع أشـكال التقاليـد والمظاهر الدينية التي تقوم على معتقدات دينية.

وفي خضم اللعبة السياسـية للاسـتحواذ على الحكم وتعزيزه أُسـيء اسـتخدام أسـماء رموز إسـلامية كثيرة، وطُعن فيها طعنًا شديدًا؛ فإذا بنداء كولن للوسطية والاعتدال يرتفـع في لحظة فارقة تشعبت فيها قوى العالم الإسلامي المتشدّدة حول التشريـع والعقائد، بدأ ينادي بالوسطية والأمانة والإخـلاص لحماية مصالـح الأمّة، دون نظر للانتمـاء الإِثْنِي أو تمذهب الناس على اختلاف أصنافهم.

وبينما سـعى بعـض الدعـاة المعاصرين لكولن في العالم الإسـلامي لقلب أنظمة الحكم، نجده لم يسـعَ قط إلى الإطاحة بالحكومة العلمانية

ليستبدل بها حزبًا سياسيًّا مرجعيته دينية، ولا يرى في ذلك خيارًا محتملًا للقضاء على فساد الدولة والنظام السياسي، بل يرفض ذلك؛ لأنه يعارض مبدأً جوهريًّا يتميز به التشريع ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢/٢٥٦)، بل يرى أنه لن يحدث تغيير حقيقي في أي دولة أو مجتمع بالتحزب السياسيّ؛ فكان يحرص كلّ الحرص في مواعظه وكتبه على الموازنة بين الدعوة إلى تحقيق تعليم نموذجي، ونشر القيم العامّة لبناء مجتمع فاضل.

«رومي العصر الحديث» لقب أطلقه مفكّرون وكتاب كُثُر على كولن في تركيا التي دفن بها الرومي في مدينة قونية، وكان الرومي شاعرًا فيلسوفًا صوفيًّا، عاش في القرن الثالث عشر الميلادي، وله شهرة واسعة بين الأتراك والفرس على السواء، بل تنازعوا كثيرًا في أصله الإثني، لكنّ سلوكه الصوفي تجاوز الحدود القومية والطائفية. نعم، فمنذ ثمانمائة سنة لم يكن للانتماء القومي والإثني دور يُذكر لدى تحديد ما أسهم به المرء في الحضارة الإسلامية، واليوم يأتي كولن ليعيد هذا المعنى العظيم لدى ملايين الأتراك الحداثيين والمتدينين، وليس كولن بشاعر أو متصوف بالمعنى التقليديّ أو النموذجيّ، وربما وُصِف بالصوفيّ لإصداره سلسلة في التصوف.

ونشاطه الدعويّ مكلَّل بالشفقة والرحمة للناس جميعًا، فلا تشمّ في كتاباته رائحة الكراهية لأحد، ولعل هذا من أسباب وصفهم له بالصوفيّ، ومنها أيضًا سمته المشهود في التقشف والتنسك.

وبينما لا يُطلِق المسلمون على كولن «مهاتما غاندي تركيا أو العالَم الإسلامي»، بدأ بعض الغربيين يطلقون عليه لقب «غاندي المسلم»[1]،

(1) A Communitarian Imperative: Fethullah Gülen's Model of Modern Turkey, The Fountain, Issue 61, January–February 2008.

فيروْن مواعظه وكتاباته قريبة جدًّا من الرومي وغاندي، فهو ينشد الحقّ دومًا للناس جميعًا بجمعه لهم على قضايا السِّلم والإنسانية دون نظر لعرق أو دين، صحيح أن كلًّا من غاندي والرومي لم يتخل يومًا عن أيِّ شعيرة من شعائره الدينية، إلا أن سماحتهما البالغة مع أهل الأديان الأخرى حالت دون حبّ أو قبول كثيرٍ من المتشددين من أبناء دينهما لهما؛ فقتل غاندي سنة ١٩٤٨م على يد هندوسي أصولي يعتقد كأمثاله أن غاندي خان قضية الديانة الهندوسية، وأنه متأثر بمفكرين مسلمين في الهند البريطانية وبصوفية رآهم في جنوب إفريقيا.

ويرى كثير من المفكرين المسلمين أنْ لا جدوى من دعوة الغرب إلى الإسلام؛ فالعقليّة الغربية الحديثة تَحُولُ ماديتها المفرطة دون إدراك عظمة الهدي لرسالة الإسلام العالمية الحقيقية؛ ويرفضُ كولن تصوير المادية الغربية الساذج بأنها عائقٌ أمام رسالة السلام التي جاء بها الكتاب والسنة والتي تؤسس لإقامة مجتمع متحابّ متعاطف، فهو لا يرى لدى الغربيين مشكلة جذريّة في تقدير وقبول القيم الروحية النابعة من أصول الإسلام؛ بل مدار الأمر عنده على نجاح المسلمين في تمثيل الإسلام ورسالته العالمية لفتح قلوب الغرب، وبهذا نبني حضارة عالمية أساسها المساواة والسكينة والمعاملة الإنسانية دون نظر إلى نوع أو عرق أو دين.

ويدعو كولن إلى نموذج من الأخوة والتحابب الإسلاميّ يعزز أعماق الشعور الروحي، ويرفض التعبير العدواني عن المعتقدات الدينية والدعوة بالإكراه المعنوي، ولما كان يجدِّد الكشف عن هذا الخيط الرفيع من القيم تحاشَى ببراعةٍ الميلَ إلى الغلوّ في تأكيد سمات معينة قد تنسب إلى الغرب

أو الشرق، ويكتفي بانتقاد سياسات المواجهات القومية أو الإثنية التي تفرز نزعات تمييزية تجاه الآخرين أو تقسّم الناس ما بين «نحن» و«هم».

ولا ينتقص تعريف كولن للأمة أيّ عرق أو جماعة إثنية، فلطالما كانت الأناضول موطنًا لجماعات إثنية متنوعة، وفيها اليوم أمة واحدة موحدة، بل إنه يتحاشى الغلوّ في الانتماء القوميّ، فيعد خريطة الأناضول الثرية «بوتقة انصهرت فيها شعوب تنحدر من وسط آسيا والبلقان وبلاد الرافدين»، فإذا استقرأت الأعراق في ضوء هذه الفكرة فستصل إلى أن البشرية أبوها آدم والأم حواء عليهما السلام، فالشعوب والأديان كلُّها فيها بذرة الخير كما يرى كولن؛ لذا يؤكد على فضيلة عمل الخير، ويتنزه عن الكلام الأجوف الذي يستعمل في الدعاية العَدائية وإرهاب الآخرين.

يرى كولن أن لدى البشر جميعًا حاجة ودافعًا للوصول إلى طريق النجاة، فبه يَقْدُرون الأسماء الحسنى التي تظهر في كل شيء حولهم حقّ قدْرها، وأنَّ العالم والخلق كتاب منظور يُعرِّف بالله سبحانه، وأن الكتاب المسطور مرآةٌ تجلِّي الحقَّ للبشرية قاطبة.

من اطَّلَع على أفكار كولن هذه ربما يرى أنه عالِم صوفيّ لا غير، فكلماته لن تؤثر في فِتية تركيا العلمانية وأمثالهم، والحقّ أن هذا الافتراض لا أساس له من الواقع، فمعظم من يستلهمون أفكاره من الشباب.

ولكولن نشاط كبير في الدين والمجتمع. نعم، هو يعارض بشدة لعب دور سياسي مع أحزاب أو قوًى سياسية، فحياته الخاصَّة بَراء من الأنشطة السياسية كافة، لكنه غدا كِيانًا مدنيًّا له وزنه في كِفَّة ملايين الأتراك

في التخصصات كافّة، بل إنّ الأحزاب العلمانية امتطت أسلوبه في الدعوة والحوار لتكسب الناخبين.

ومن الغربيين مَن يرى أن أسلوب حياته يتسم بالزهد والتنسك كما هو شائع في الشرق، بل ربما يرون فيه «دالاي لاما» أي مسلمًا يجاهد نفسه ليبلغ «النيرفانا» أي مقام الفَناء، فهو في بلاد المهجر بأمريكا لم يكن يطمح قط لجذب الإعلام أو الدعاية أو الشعبية أيًّا كانت، شغله الشاغل في أنشطة الحوار بين أصحاب الأديان، وهب نفسه لأداء واجباته مسلمًا فدائيًّا حقًّا يضحي بالوقت بل بكل شيء في صمت لينفع الآخرين.

وبينما يرى كثير من المعاصرين أهمية كبرى للاختلافات الفقهية أو العقائدية لا يُعنَى كولن في مؤلفاته ومواعظه بها كثيرًا؛ فهي عندهم الطريق السليم لتطهير المجتمع الإسلامي من الشرك والبدع والانحراف عن السنّة، أما هو فالأهم عنده ربط النفس البشرية بآثار أسماء الله الحسنى، ولا أمل برأيه في استعادة مجد حضارتنا الإسلامية الضائع وفي اتساع صدر مجتمعنا وسماحته إلا إذا فدى كثيرون بأنفسِهم القيمَ المعنويَّةَ العليا التي تفرضها مُثُل الإسلام المقدسة، ويعني بها حمل البشر جميعًا على صون الكرامة وحمايتها في سبيل مصلحة الناس كافّةً.

أمَّا الوسائل العسكرية أو السياسية فيرى أنها لا طاقة لها بتحقيق شيء يُذكَر في هذه القضايا النبيلة، فالحوار والتلطّف هما الخيار الأمثل للأطراف المتنازعة جميعها، ورغدُ العيش طريقُه الحكم الرشيد الموجَّه، فهو أفضل بديل عن جشعِ الشركات وعن أنواعٍ من الخداع والتضليل هدفُها استحواذ فئة قليلة على المال.

ولـم يجرِّب الأتراك الاحتلال الأجنبي المباشـر ألبتة، بخلاف معظم الشـعوب الإسلامية، وهذه الخصِّيصَى الفريدة فتحت لهم باب التفكر في عالمية الإسـلام أكثر من غيرهم، وهذا يسّـر لهم التعايشَ السـلميَّ، وعقدَ حوارٍ نوعيٍّ رسـمَتْه وجلَّتْه آلاف من مواعظ كولن، وندواته الحوارية بين الأديان، وأفكاره المنشورة في عشرات الكتب.

وبينما كان كولن يرسِّـخ القيم الإسـلامية أدرَك أيضًا مواجِع القلوب والعقول لدى الأتراك، أدرك أن نفور بعضهم منه محتمل، فأظهر حماسًـا هائـلًا لإصـلاح النظـام التعليمي في تركيـا، ولم يُتِح في نشـاطه هذا لأية طائفة أو حزب أو فئة أن تمتلكه أو تنبذه، فخطته واضحة جدًّا: مَن يعمل الصالحـات بأمانـةِ المسـلم فأنا معه، أمّا أهـل المنكر والفسـاد فأنا عنهم بمعزل.

سَـعَت بعـضُ القـوى المتطرفة عبثًـا للإيقاع بكولن بشـتى الوسـائل لتحقيـق غاياتها السياسـية، فأشـاعت أنه يبتـدع إصلاحات دينيـة مخالفة للهـدي النبوي، وما إن فشـلت حتى بدأ أعداء الإسـلام في تركيا وغيرها يصـورون كولـن على أنَّه خمينـي تركيا في المسـتقبل، ولكن الخميني لم يتمذهـب بمذهب أهل السـنة رغم أنه أقام عامًا فـي مدينة بورصة التركية عاصمة العثمانيين سابقًا وخالط الجاليات السنية في تركيا والعراق، وإقامة كولن بأمريكا لن تجعل منه داعية ثوريًّا أو ماديًّا، فسَمْته الحديث لا يحط من تديّنه ألبتة، فهو ليس أصوليًّا ولا حَدَاثيًّا، فتشبيه حركة الخدمة التربوية والثقافيـة بثـورة الخميني في إيـران مردُّه الجهلُ بأسـاليب كثيرة لإصلاح اجتماعـي لـه مآلات واسـعة في إحيـاء القيم الإسـلامية، أو عـدمُ معرفة الفوارق الكثيرة بين هاتين الدولتين.

ويناضــل كولن في كتاباته ومواعظه آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، ويؤْثــر الترغيب والبنــاء وجهاد النفس الفعّال لتغييــر الناس بإحداث ثورة في العقول تبلـغ به وبهم مراتب الكمال، فدعوته إلى جهاد النفس وحملُه لرســالة المحبــة والمودة ذات الصبغة الصوفيــة لا تمتُّ بصِلة إلى الحرب أو العنف في نشر الرسالة، يقول كولن:

"إن اهتمام الإنســان ببيئته وبمحبته للبشــرية -أي قدرته على احتضان جميــع المخلوقات- يتوقف على معرفته جوهرَه وفهمِه إياه، وقدرتِه على اكتشــاف نفســه، والإحســاس بوجــود صلة بينه وبين خالقه...

فالاتجاه الإنساني مذهب يقوم على المحبة والإنسانية، وكثيرًا مــا يُتحــدّثُ عنه في هذه الأيام، إلا أنه يمكن التلاعب به بســهولة من خلال التأويلات المختلفة. ولا ســيما أن هناك بعض الجهات تحاول أن تفرض فهمًا إنســانيًّا مجردًا وغير متوازن بإثارتها الشُــبَه والبلبلة والشكوك في قلوب العامة من الناس حول مفهوم الجهاد في الإسلام.

فــي حيــن أن «الجهــاد» فــي الإســلام أمر يعتمــد على بعض الشروط الخاصة التي ترمي إلى الدفاع عن النفس أو إزالة العقبات التي تعترض سبيل إعلاء كلمة الله"[٢].

ويتساءل المراقبون الغربيون منذ سنوات طويلة: لماذا لا يقدّم الكتّاب المســلمون وغيرهم ممن لهم شــهرة عالمية أي قدر من التوضيح للقضايا الشائكة الخاصة بالإسلام والجهاد؟ ويُعدّ كولن في هذه الناحية صوتًا في غاية الوضوح والاتســاق في عرضه للقضايا الإســلامية وعلاقتها المتبادلة

(٢) فتح الله كُولَن: سلسلة العصر والجيل-٧، أفق يلوح منه النور، نشر دار النيل التركية، إسطنبول ٢٠١٠م، (لما يترجم عن التركية)، ص ٤٩-٥٠.

بمبدأ محبة الخير للعالم، وبهذا ملأ كولن -إلى حدٍّ ما على الأقل- فجوة فكرية بين العالم الإسلامي والغرب.

وفي المقابل، ما أسهل الطعن والتشكيك في عالمية المفاهيم الغربية لحقوق الإنسان! غير أن الكلام «الفارغ» عن حقوق الإنسان والاتجاه الإنساني لا يحدث أي تغيير إيجابي في سبيل خير أي أمة أو خير البشرية، وخلافًا لمؤسسي أحزاب وحركات سياسية إسلامية منخرطة في الدعوة للقيم الإسلامية حول العالم فإن كولن لا يقدم أي دولة قومية إسلامية معينة على أنها نموذج مناسب لاستقاء نظام شامل للحكم الإسلامي؛ بل شرعت «حركة الخدمة»(٣) في المهمة الضخمة بتقديم بديل شامل وأفضل للمجتمع الغربي القائم على الاستهلاك في مجالات التبادل التربوي والثقافي بين الديانات والأمم.

وإنّ كولن نفسه ربما لا يستطيع أن يتصور ما له من تأثير الآن على وجدان الجمهور التركيّ، ثمّ على صياغة إستراتيجية جديدة سلمية تمامًا لإقامة الجسور بين الشرق والغرب أو بين العالم الإسلامي وبقية العالم، فهذا التأثير حقًّا تقدم فكري هائل صنعه كولن بمفرده تقريبًا، يقوم على دعواته المقنعة إلى السلام والكرامة من أجل البشرية جمعاء، ويتبدى بوضوح في جميع كتبه تأكيده على ضرورة إقامة نظام تعليمي مبني على القيم دون تلقين لمذاهب وتحزبات معينة؛ وهذا التأكيد أدى إلى تأسيس مئات المدارس في جميع أنحاء العالم يرعاها تربويون ورجال أعمال أتراك، يحاول فيها المعلمون تطبيق المثل الرفيعة في إطار منظومة تربوية مبنية على أساس قِيَميّ.

(٣) الخدمة: اسم يُطلق على النهج الذي يتبناه فتح الله كولن ومحبوه في خدمة الإسلام والإنسانية.

وما زال هناك المزيد مما يمكن أن يقال عن الخصائص التركية السُّنيّة التي تتسم بها حركة الخدمة، نظرًا لأن من يتقدم صفوفها هم مسلمون من أهل السنّة ذوي الأصول التركية، وربما يتساءل المرء: كيف تستطيع دولة متطرفة في العلمانية مثل تركيا أن تنتج مصلحًا اجتماعيًّا وثقافيًّا وتربويًّا مثل كولن، ولكن يبدو أن تكريس العمر في سبيل القضايا العالمية للإسلام والإنسانية قد يؤدي في النهاية إلى نتيجة كهذه؛ وإن من يستلهمون أفكار كولن لا ينخرطون ألبتة في الأجندات القومية أو الطائفية أو الغلو في القوميّة أثناء نشر القيم الإسلامية أو نظام تعليمي وثقافي معين داخل المجتمعات الإسلامية وخارجها، وهذا هو سر النجاح الكبير الذي تتمتع به حركة الخدمة اليوم، وهو ما جعله أسطورة حية، وغدا المفكر الأكثر تأثيرًا في العالم لسنة ٢٠٠٨م.

الخطوط العامة للكتاب:

اعتلى كولن قمة مفكري العالم في استطلاع رأي أجرته مجلتا «فورين بوليسي» و«بروسبيكت» سنة ٢٠٠٨م؛ كان ذلك إبّان تأليف هذا الكتاب؛ وهدفه بيان مدى إسهام كولن في الفكر الروحي والديني للإسلام والقضايا الحضارية.

كثير من المفكرين الإسلاميين والدعاة المعاصرين ألفوا كتبًا كثيرة في شرح المبادئ الأساسية للإسلام، وكيفية تطبيقها، ومكانتها في سياق الحداثة وفي مجتمعات ودول صناعية تحركها التكنولوجيا؛ فموضوع كولن لا يبدو جديدًا، إلا أنه على مدار حياته مؤلفًا وداعية منذ بداية الستينات من القرن العشرين صاغ أفكاره بطريقة لا مناص للعاقل

الحصيف من التفكير فيها بجدية قبل القبول أو الرفض لشيء من شرحه للقيم الإسلامية والإنسانية وآليات الحوار بين الأديان.

ويلحظ كولن بصفته نصيرًا للمثل والقيم الإسلامية اختلافات المذاهب والمشارب، فلا يأخذ بمذهب على نحو ينتقص من قدر المذاهب الأخرى، فهو يسعى لإيجاد سبل جديدة للتأمل والمقاربة بين التصوّف والشعائر الدينية والآفاق الروحية، وقد نجح في وضع رؤية شاملة يمكن بسهولة أن تتضمن كثيرًا من القضايا المعقدة والخلافية في الإسلام سياسيًّا أو تربويًّا، وهي رؤية لا تعادي أي نظامٍ حاكمٍ.

وقد ساعد موقف كولن الودود الرؤوف تجاه البشر جميعًا -أيًّا كان معتقدهم الديني أو السياسي- على تسنُّمه لقمة الحياة الروحية الإسلامية التي أُضعفت وأُسيء تفسيرها في كتابات كثير من معاصريه في البلدان الإسلامية وفي العالم كافَّة.

وظهرت القيود السياسية التي واجهها كولن في وطنه عبئًا ثقيلًا أمام رقيّه الروحي والفكري، ومِن قبله بديع الزمان سعيد النُّورْسِي (١٨٧٧-١٩٦٠م) مؤلف «رسائل النور»، أحد أشهر وأعمق من مثلوا مواطن القوة الفكرية والخلقية والروحية للإسلام، كان يواجه مثل تلك العقبات أثناء الرحلة الشاقة والمؤلمة لتنوير شعبه، كان يقول: "أعوذ بالله من الشيطان ومن السياسة"؛ ويستطيع المرء بسهولة أن يلاحظ في كتابات كولن أنه لم يحاول ألبتة توجيه رسائل مفرِطة في السياسة أو في التنظير، بل لطالما كان يجلّ إستراتيجية النُّورْسِي في إصلاح المجتمع وفقًا لمستوى نضج الشعب سياسيًّا وروحيًّا.

وهـذه محاولـة متواضعة لتحليل فكر كولن وفقًـا لكتبه تُبيّنُ أنَّ كولن قـد تبحر في فكر النُّورْسِـي من نـواحٍ كثيرة، وأضاف أبعـادًا أوضحَ وبنَى قِممًـا أعلـى في تلك الحركة الدينية الثقافية القائمة على النشـاط الروحي والمشتملة على آفاق للنمو والتطور الفكري ما زالت تتسع باطّراد.

وتـكاد الأوسـاط الدينيـة والقومية تتفـق بأن كولن هـو روميّ العصر الحديـث، فـلا يمكن عـدّه رجل ديـن مغاليًا، فدولـة مثل تركيـا بها نخبة علمانية صغيرة لكنها قوية ومسـلحة، فما أشقّ الجهر فيها بالتأييد للأفكار الدينية الغالية عند الدعوة إلى القيم الإسلامية! ورغم اعتدال كولن يحاول بعـض العلمانييـن العدوانييـن تصويـره على أنـه داعية أصولـي؛ ليوهنوا مصداقية داعية لقيم إسـلامية قادرة على إصلاح أي مجتمـع وتوجيهه في اتجاه أفضل.

كان الرومي صوفيًّا شـاعرًا، ثم اتبـع منهج التيسـير في نشـر الإسـلام والدعوة إليه، ولـم يسـمح له عصره أن ينشـط في الدعوة ليغدو داعية في المقام الأول، بينما تيسر الأمر لكولن بفضل التراث الروحي لبديـع الزمان سعيد النُّورْسِي.

"كان بديـع الزمان ينظر إلى القرن العشرين وما به من أحداث وعلو شأن المادية والشيوعية على أنه آخر الزمان، وكان مصرًّا قبل كل شيء آخر على أن المقدّم في النضال ضد هاتين الفلسفتين هو إنقاذ الإيمان وتعزيزه؛ وهذا هو السياق نفسه الذي به يقيِّم إصرار بديـع الزمان على طلاب رسـائل النور أن يمضـوا نحو «التحرك الإيجابي» و«الجهاد السـلمي» أو «الجهاد المعنوي»، ويمر الزمن ويفهـم النـاس توجيهات بديع الزمان وتنبؤاته للمسـتقبل، وتتبين

صحة أحكامه عن المسـار الذي ينبغـي اتباعه، ويتضح لهم مدى عظمته وأهميته، فيوم أن بدا العالم الإسلامي أنه صار لقمة سائغة لأوروبا، تنبأ هذا الرجل بنهضته، وأيقن بغلبة القرآن في المستقبل على عصر العقل والعلم"[٤].

ويسـير كولن على خط الرومي والنُّورْسِـي لتشجيع المزيد من الناس في العالم كله على اللحاق بالمسـيرة السـلمية لجماهير تركية طالتها قيود صارمة وضغوط قاسـية لميلها الفطري إلى القيم والثقافة الإسلامية؛ وفي الفصـل الأول مـن هـذا الكتاب تركيـز على هـذه القضيـة الحيوية قضية الصراع بين الأيديولوجيات الإسـلامية ذات الجذور السياسـية والإسـلام ذي الطبيعة الثقافية والروحية، وفيه نحاول أن نبين حرصَ كولن الدؤوب علـى الموازنة بين ممارسـة القيم الإسـلامية والنشـاط الاجتماعي لحمل المسـلمين خاصّـة والنـاس عامّـة علـى التضحية في سـبيل خيـر طبقات المجتمـع كلها.

والفصل الثاني يكمّل الأول، ويتناول «التصوف بين النظرية والتطبيق» عند كولن من خلال مجموعته «التلال الزمردية: نحو حياة القلب والروح»؛ فالتصـوف عنده ليـس فكرًا دينيًّـا أيديولوجيًّا أجوفَ، ولا أسـلوب تفكير أو حيـاة غارقـة فـي الغمـوض أو خوارق العـادات، بل هو بحث شـامل وسـعي متواصل لنيل السعادة الأبدية بالامتثال لمشيئة الله، فالإسلام نظام شـامل يسـتهدف جلب المنفعة ودرء المفسدة في جوانب الحياة كلها من المهد إلى اللحد.

(4) Şükran Vahide, «Bediüzzaman Said Nursi›s Official Biography,» http://www.witness-pioneer.org/vil/Books/SV-Nursi/Conclusion.htm.

قد يقول المسلم: إنّه لا جديد في هذه الفرضية أو الأطروحة، ولكن أمام الهجمة الشرسة التي تشنها اليوم الفلسفات العدوانية من علمانية وقومية ومادية واشتراكية ضدّ القيم الدينية كان لا بد من إعادة صياغة تلك الأطروحة الإسلامية لتصبح قابلة للتطبيق في النظام التربوي والاجتماعي في المجتمع؛ فمحور الفصل الثاني هو الإعراب عن التقدير لقنوات كثيرة منها كتب كولن، التي تبْلُغُ بك إلى روحانيات الإسلام من خلال العبادات والنشاط الاجتماعي؛ وقد حاولت أن أبين كيف يزيل كولن الغموض عن كثير من المفاهيم والممارسات المعقدة في الحياة الصوفية، ويكيّفها مع الإطار الأوسع للشريعة الإسلامية، فهو يقدم لنا سبلًا متاحة للإبداع ضمن ثوابت الشرع والأخلاق الإسلاميّة.

والفصل الثالث عنوانه «منهجية كولن في التدريس: التنوير التربوي في الداخل والخارج»، وفيه نتناول إنجازات النظام التعليمي القائم على أفكار كولن، فهو يدعو إلى تعليم مبني على القيم، وينبه طلابه إلى تجنب الانزلاق نحو أساليب التدريس المُسيّسة أو المغالية في التلقين المذهبي، ومحور رؤيته هو أن يكون رجل التربية تجسيدًا حيًّا للقيم الإسلامية العالمية مع ضرب القدوة والمثل في الالتزام بتلك القيم دون فرضها على أي شخص أو جماعة؛ فبعد انهيار الاتحاد السوفييتي ونظم الحكم الشيوعية في بلدان شرق أوروبا، تساءلت شعوب كثيرة عن كيفية إقامة نظام تعليمي مبني على القيم ليحل محل النظام التعليمي الاستبداديّ السابق الذي كان يتبنى الفكر الاشتراكي ومعاداة الدين.

وعند تقييم ما تمّ حتى الآن باسم التعليم الشرعي، نجد غالبًا علاقة مشوهة بين العبادات والفرائض المنصوص عليها وبين المقاصد المستهدفة

منها، فالالتزام الظاهري بالدين في العبادات اليومية والأسبوعية والشهرية والسنوية قد يكون قناعًا زائفًا يخفي وراءه صورةً أخرى للمجتمع؛ ولم يحدث أن عانت تركيا القومية والعلمانية من تلك المشكلة، ولكن الشريحة المتدينة من المجتمع ينقصها الوعي بأن استخدام العبادات للتمويه أو لإبراز الهوية سلوك خطير يؤدي إلى النفاق الصريح، فينبغي تجنبه دائمًا.

وهب كولن نفسه لإنتاج أفضل تعليم إنساني للجميع دون سعي وراء شهرة ودعاية لأعماله الدعويّة، وظل يمارس قيمه الدينية مع تضحية كاملة بالذات، فلم يطلب أجرًا ماديًّا أو معنويًّا من أية جهة استفادت من رسالته؛ ويدعو كولن الناس لئلا يبخلوا أبدًا على إقامة مدارس نموذجيّة يحتذَى بها، يدعو كلَّ متأهب لوقف حياته كلها لإيجاد تعليم أفضل للأطفال من كلّ عرق ودين، ولمن ليست لهم معتقدات أو شعائر دينية أيضًا.

ومن أهم ما يشغل كولن في التدريس الوسطيةُ والرقي في السلوكيات والآداب العامة مع التميز في المستويات والإنجازات المهنية، وهو ما سنناقشه في الفصل نفسه.

والفصل الرابع بعنوان «القرآن والمجتمع المثالي عند كولن»، وفيه بيان لِما للتوجيهات القرآنية من أهميّة وفائدة في بناء أساس متين لنظام اجتماعيٍّ مثاليّ يصون الكرامة الإنسانية للجميع أيًّا كانت العقيدة أو الثقافة؛ فالقرآن عند العلماء والجماعات الإسلامية كافّة هو مركز الثقل في الفكر السياسيّ والشرعي والاقتصادي والثقافي الإسلامي بأكمله، إلا أن الفهم الخاطئ للرسالة القرآنية غشِي الشعوب والجماعات الإسلامية

كلها؛ لذا كان كولن حذِرًا في شـرحه لآيات القرآن وتنزيلها على الواقـع، فالقـرآن هو المصـدر الإلهي الإلزامـي الوحيد للرقيّ الفكـري والروحي للبشر جميعًا، والرسالة القرآنية عند كولن هي الرسالة الخاتمة والغاية من النبـوة ومنتهـى حكمتها، جاءت لإنجاز المهمة الكبرى، المتمثلة في إقامة العـدل للنـاس جميعًا؛ فلا خير ينتظر من وراء الظلم، فالظلم مفسـدة لأي مجتمـع.

وقـد خرج كولن بهذه الرسـالة القرآنية مجددًا إلـى النور بطرق كثيرة متنوعـة فـي كتاباتـه التـي تأتـي في سـياق عصـر التكنولوجيـا، وهذا هو الموضوع الرئيس للفصل الرابع.

هنـاك اعتقـاد خاطـئ خطير بأن رسـالة القرآن لا تصلـح لإقامة نظام فعال مزدهر في أي أمة أو دولة من الدول، والمؤسـف أنَّ الوضـع السـيئ لمعظم الدول القومية الإسـلامية يُسـهِم بشدَّة في ترسـيخ هذه المغالطة، لا سيما أنّ معظم تلك الدول لـم يبلـغ مستوى مُرضيًا في جوانب الإبداع والإنتـاج وتعزيـز القيم الإنسـانية للجميع، وهي الناحية التـي تؤدي فيها حركـة الخدمـة أعمـالًا جليلة في جميـع أنحـاء العالم انطلاقًـا من العالم الإسلاميّ.

ويجلّـي الفصـل الخامـس اهتمـام كولن بالبشـر جميعًـا وبالحضارة العالميـة، وعنوانـه «مفهـوم الخدمـة والصالـح العـام لـدى كولـن: مـن الإسـتراتيجية إلى خطة العمـل»، وفيه يمكن للمـرء أن يرى بوضوح أن كولن ليس منظِّرًا أو فيلسوفًا عاديًّا يكره مواجهة معضلات الواقـع، فهو يطرح أفكاره على الناس ليكون لديهم وعي ومسـؤولية تجعلهم يصنعون

جيلًا ذهبيًّا يهب نفسه لبناء مجتمع عادل للجميع؛ ويمكن عدّ هذا الفصل وسابقه روح الموضوع الرئيس للكتاب، وهو كيفية بناء مجتمع إنساني أفضل يُجلُّه وينعم به كل إنسان.

والفصل التالي «أفكار كولن حول الديمقراطية الحديثة»، نبين فيه أن كتابات كولن تتفق اتفاقًا كبيرًا مع الفكر الديمقراطي، فهو يرى أن القيم المنبثقة عن الإسلام تساعد على قيام نظام ديمقراطي حقيقي وحكم سليم؛ فمعظم المجتمعات اليوم تتجاهل في الغالب مسألة الصالح العام أو تخلط بينها وبين العائد الماديّ؛ أمّا كولن فيؤمن إيمانًا عميقًا بأنه لا ازدهار ولا تحرر للفرد أو المجتمع بدون اليقظة الروحية، فقضية كولن الرئيسة هي أن الإسلام لا يفرض طريقة أو شكلًا معينًا من أشكال الحكم على أي دولة أو مجتمع ألبتة، ويدلُّ كلامه على أن لديه قدرًا كبيرًا من الوضوح في رؤيته للعلاقة بين نظام الحكم ومبادئ الإسلام:

"الإسلام دين يركز تركيزًا أساسيًّا على ثوابت الحياة والوجود، أما النظام السياسي فيهتم بالجوانب الاجتماعية من الحياة فقط؛ فمبادئ الإسلام الأساسية من إيمان وعبادة وأخلاق وسلوك لا تتغير بتغير الأزمنة، ولا يقدم الإسلام شكلًا معينًا ثابتًا للحكم أو يسعى لتشكيله وصياغته، فهو لم يعمل مطلقًا على طرح أو إقامة نظام ثيوقراطي باسمه، بل أرسى أصولًا ومبادئ توجه الشخصية العامّة لنظام الحكم؛ فالسياسة لا يمكن أن تكون طرفًا في تمثيل الإسلام أو في توجيه سلوكيات المسلمين ومواقفهم باسم الإسلام"(٥).

(5) *http://www.foreignpolicy.com/story/cms.php?story-id=4408.*

وإذا أدرك المـرء هـذه الأطروحة المحورية التـي بينها كولن في كثير مـن كتاباته وخطبه وحواراته، صار من السـهل عليه أن يدرك كيف يمكن للمسـلمين التعايش في سـلام مع أتباع الديانات الأخرى، فالإسلام يقدّر أي محاولـة سـلمية مـن أي مؤمن بالله تعالى حقًّا، تسـهم فـي جمـع أبناء الديانـات والأيديولوجيـات المختلفـة علـى تحقيـق أهداف مشـتركة من سلام وهدوء في الحياة الشخصية والعامة؛ وقد ظلت حركة الخدمة -كما يسـمِّيها كثير من المراقبين- تنحو هذا المنحى أكثر من أربعة عقود داخل تركيا وخارجها.

والفصـل الأخيـر «الجهـاد والتسـامح والإرهـاب عنـد كولـن»، هو خاتمـة الكتـاب؛ يبيـن مدى حرص حركـة الخدمة علـى أن تحقق -على الأقل- بعض الأهداف الأساسـية المشتركة للإنسانية قاطبة؛ وبهذا تتوافق تفسـيرات كولـن لرسـالة القرآن أو رسـالة الإسـلام العالميـة مع حقوق الإنسان العالمية الحديثة، ولا تقبل هذه الحركة أي ازدواجية في المعايير فيما يتعلق بهذا تحت أي ظرف من الظروف.

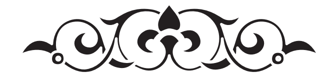
وبهذا يمكن أن نرى مدى عظمة رجل يدعى «محمد فتح الله كولن»، داعية وكاتبًا ومفكرًا وفيلسـوفًا وشـاعرًا قدم من الأناضول، فنال شهرة هو جدير بها في جميـع أنحاء العالم، كلّ ذلك بفضل تفانيه ونشاطه الدؤوب مـن أجـل إحـداث نهضـة حقيقية للقيـم الإسـلامية على أسـاس التفاهم والتراث المشترك للبشرية.



الفصل الأول:

كُولَن: امتداد للرومي مع الفارق





كولن يعيد تاريخ الرومي مع الفارق

"نِعْم الأمراء على أبواب العلماء
وبئس العلماء على أبواب الأمراء،
والحاكم الحكيم على باب الفقير واقف
والبائس الفقير على باب الحاكم واقف".

(الرومي)

"إظهار المودة والمحبة للمخلوقات جميعًا شرط لعدِّ الفرد إنسانًا، وكلما ظهرت عليه هذه المحبّة سما وارتفع، فإن نزع إلى الفساد والظلم وغلظة القلب انحطَّ وانحدر وصار عارًا على الإنسانية".

(فتح الله كولن)

عندما ننظر إلى مؤلفات جلال الدين الرومي (١٢٠٧-١٢٧٣م) نجد أن المسافة بين الخوف والرجاء ضئيلة للغاية، ويرى الروميّ أنَّ ذروة السعادة في تحمُّل العذاب من أجل الأحبّة؛ ومثلُ هذا الحبِّ لم يَعُدْ له مكان يُذْكَر في حياتنا المعاصرة، فالتضحية والألم في الحبِّ لا وجود لهما في العقلية المتمدنة المسيطرة على معظم المجتمعات الصناعيَّة الكبرى، ويرى كثيرون أنه مما ينتقص من الكرامة أن يلعب المرء دور المحب

من كل قلبه دون أن يُقابَل بمزيد من الحب؛ فحاوَل كولن أن يوسِّــع من المســاحة التي يهبها المجتمع الحديث لقيم الحبِّ والتضحية بدون أنانية مـع التأكيد على الكرامة الإنســانية المشــتركة من أجل أبناء الوطن خاصّة والإنسانية عامَّة، ومعنى هذا أن المسؤوليات الدينية والاجتماعية والثقافية تتضافر وترتبط ارتباطًا وثيقًا في فكر كولن.

ومِن الجدير بالذكر أنَّ الروميّ لم يستثمر المبادئ أو العقائد الإسلامية في مراوغات سياســية، فحياة المؤمن كلُّها عنده مليئة بالأســرار، والروح المســتقيمة المتفانيــة هي وحدها التي تحلّ شــيئًا من لغز الأســرار الخفية لهذه الحياة لنستفيد منها في السمو والرقيّ بالآخرين؛ ومحور فكر الرومي أن الحياة المادية لا قيمة لها في الرحلة الثقافية والروحية التي على المرء أن يجتازهــا فــي هــذا العالم، فالأبعــاد الروحية والثقافية للحياة الإنســانية لهــا أثر عميق على أي محيط اجتماعي، تعززه وتحميه المبادئ السياســية والنظريات الاقتصادية التي تغذيها آليات الدولة.

هذا التقدير والتعزيز عند الروميّ للجوهر الروحيّ للكرامة الإنســانية لم تســتوعبه بشــكلٍ وافٍ كثيرٌ من المجتمعات الشــرقية والغربية، فصوت الحــقّ إمــا أكثر تعقيدًا من أن يســمــع أو أقلّ مــن أن يحظى بالاهتمام، فلا غــرو أنَّ كثيــرًا من المســلمين أخذوا ما يقرب من ٨٠٠ ســنة ليدركوا حقًّا قيمة دعوة الروميّ وتوقه إلى نشر الروحانيات بين الناس جميعًا دون النظر للعرق أو الدين أو النوع.

وتتســم تفســيرات كولــن للأبعــاد الدينيــة والروحية للحياة الإنســانية والمجتمع بالوضوح والشــمولية، يقــول: «لا بدّ من إنقاذ الناس اليوم من أنــواع الإحباط الاجتماعي والسياســي والثقافــي والاقتصادي وغيرها مما

يثقـل كاهلهم ويقصـم ظهورهـم... فاتجاهاتنا وتصرفاتنـا ترتبط طبيعتها الأخلاقيـة ارتباطًا مباشـرًا بمدى الوعي بالمسـؤولية، وهـذا قائم بصورته المثاليـة فـي أرواحنـا»[٦]؛ فالأفعـال أو الاتجاهات غير الأخلاقية ليسـت مُحصِّلـة عرَضيـة للحيـاة الاجتماعيـة أو الثقافية في أي دولـة أو جماعة؛ لنـا أن نتحـدث عـن الثـورة الثقافية إلى مـا لا نهاية، ولكن إحـداث تغيير ثقافيّ مسـتمر وجعله متوافقًا مـع القيـم الأصيلة الخاصة بمجتمـع متدين أو غيـر متدين ليس بالمهمة اليسـيرة، فكم ناضل المصلحون السياسـيون والاجتماعيـون بأنواعهم كلّهـا نضالًا مريرًا لإحداث ثورات ثقافية ناجحة وتغيير القيم الاقتصادية لمجتمـع ما أو لفئة من الفئات.

وقـد رأينـا كيـف قوبـل الإسـلام في بدايتـه بثـورة قبلية واسـعة ضد التغييرات الثقافية والاقتصادية التي جاء بها، فجوهر رسـالة الإسـلام بعد الدعـوة لوحدانيـة الله ينصب معظمه علـى المجال المجتمعـي والثقافي، وهي دعوة جادّة شاملة لتغيير رؤية العالم بأكملها لدى شعوب قبلية كانت صلـة الـدم بينها هي العامل الحاسـم في بناء العلاقـات والاتصالات مـع الآخرين أو خرقها أو هدمها من الأساس.

ويرى المسيحيون أنّ النبيّ ﷺ حاول أن يبني أمَّةً عربيَّة أساسُها الوحدةُ القَبَليّة في مكة والمدينة وما حولهما، ويدللون على هذا الرأي بأدلّة مقنعة -بالنسبة لهم- تتمثل في إصلاحات اضطلع بها النبي والصحابة ونجحوا في تحقيقها، ولكن إذا حللنا جوهر رسالة الإسلام والخطط التي انتهجتها الخلافة الإسلامية فلن نجد أي محاولات تشير إلى صدق تلك الدعوى.

(٦) فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص ٨٥.

ولدى مقارنة الأهداف السياسية للإسلام بأهدافه الثقافية والاقتصادية، نلحظ على مرّ التاريخ والحضارة الإسلامية أنه قد خُذِل سياسيًّا واقتصاديًّا أكثر من مرة، ولكنه حافظ على مكانته ثقافيًّا، وما زال تأثيره في عقول الناس وقلوبهم مثيرًا للدهشة والاستغراب، بل تزداد قوة جذبه الروحية يومًا بعد يوم في أنحاء العالم كافّة.

ومثل هذا التأثير في تشكيل حياة الناس على طول تاريخ الإسلام في أربعة عشر قرنًا، لا يمكن أن يكون نتاج عمل شخص واحد أو أمة واحدة، فكان يظهر بين حين وآخر من يحمل الراية، وخاصة حين كانت الأمة الإسلامية تتعرض لأزمة سياسية أو اقتصادية؛ لقد جاء إبداع الرومي في فترة أزمة شديدة في التاريخ السياسي الإسلاميّ، وحرص أن يكون المسلمون أكثر فطانة وإخباتًا عند أداء واجباتهم الدينية والأخلاقية، فكان يركز الروميّ كثيرًا على نجاة الفرد روحيًّا، أمّا كولن فيهتمّ كثيرًا بكيفية رفع مستوى الوعي الجمعيّ لتحقيق هدف بناء المجتمع في بلاد الأناضول وغيرها.

والصوفية في جوهرها حركة سلميّة تسعى لتطهير قلب الفرد وعقله وحمل الإنسان على التفاني في سبيل قضية نشر «نعمة الإسلام» للناس جميعًا أيًّا كان العرق أو الدين أو العقيدة، ومع هذا حظرت تركيا العلمانيةُ الطرقَ الصوفية سنة ١٩٢٦م.

ولم يستطع أي حاكم مسلم بارز في القرن العشرين أن يستوعب أن الصوفية مستمرون في جهودهم المحبة للسلام تحت أي ظروف، إلا أن النخبة الحاكمة في تركيا أدركت هذه الحقيقة في ثمانينات القرن العشرين، فغيرت سلوكها تجاه الطرق الصوفية والجماعات الدينية في

تركيا، وفي عهد «تُورْغُوت أُوزال»[٧] تغير موقف الحكومة منها وتوقفت الحكومة عن اضطهاد من يقومون بالأنشطة الخيرية الدينية، لم يشهد الرومي قط مثل هذا القدر الهائل من التغيير في المواقف الحكومية تجاه النشاطات الصوفية والفكر الصوفي.

أمّا تزكية روح الإنسان فمنظور الروميّ وكولن متشابهٌ في حديثهما عنها، وتتميز رؤية كولن للعالم بأنه لا يمكن وصفها بالعلمانية البحتة أو الدينية الصِّرفة.

> ''لا بد من تحقيق تجددنا الذاتي في ظل الفكر العلمي الذي نشحن شبابنا به، وبتمازجهم تمازجًا كاملًا بالعلم والفكر، كما فعلنا ذلك قبل الغرب بقرون مديدة''.
>
> ''...إن الكائنات كتاب أشهره الله تعالى أمام العيون ليراجَع باستمرار، والإنسان منشور بلوري مؤهّل لرصد الأعماق في الوجود وفهرست شفاف للعوالم جميعًا.. والحياة ترشُّحُ هذا الكتاب وهذا الفهرست، وتمثُّلُ المعاني في انعكاس صدى البيان الإلهي''[٨].

يستطيع المرء بسهولة أن يلاحظ هنا أن كولن يتحدث كأنّه رومي العصر، صحيح أنّ الرومي لم يكن لديه ترف العلم والتكنولوجيا الحديثة، لكنه استطاع أن يستكشف الطرق التي تستخدمها العلوم الطبيعية بفكره وعقله وسلوكه، ولدى الروميّ كما يقول كولن «الحماس والدافع»

(٧) تورغوت أوزال (١٩٢٧-١٩٩٣م): من أهم الزعماء السياسيين في تركيا في القرن العشرين، أسس حزب «الوطن الأم (*Anavatan*)»، وانتخب زعيمًا له في ٢٠ مايو/أيار ١٩٨٣م، وفاز حزبه في الانتخابات فقام بتشكيل الحكومة، وظلَّ رئيسًا للوزراء ما بين ديسمبر/كانون الأول ١٩٨٣م إلى نوفمبر/كانون الثاني ١٩٨٩م، ثم صار رئيسًا للجمهورية، وتوفِّي سنة ١٩٩٣م.

(٨) فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص ٣٨-٣٩.

للسعي في طلب الحق أيًّا كان شكله أو مظهره، ماديًّا كان أم معنويًّا؛ وقد غدا كولن صوتًا آخر للرومي جعل من روحانياته مصلحًا وناشطًا اجتماعيًّا، ومثل هذا لا يجعل كولن كاتبًا وداعية فريدًا في تركيا فحسب، بل في المسرح الدولي أيضًا، ولم تكن البيئة العلمانية في تركيا مستعصية على حوار كولن معها؛ فأفكاره الناضجة جعلت وسائله الفكرية أكثر اتساعًا وغير معادية للدوائر العلمانية.

كيف أمكن لكولن أن يحافظ على ذلك الخيط الرفيع وهو يقدم الإسلام باعتباره رسالة سماويّة للإصلاح الاجتماعي الشامل؟ إن دعوة كولن للمسلمين جميعًا لكي يصبحوا أناسًا أفضل تعد جذابة جدًّا، فالدعوة الإسلامية عنده رؤية عالمية تصلح للإنسانية كلّها، ولا يثير كولن قلق الملحدين أو المسلمين العلمانيين في الاتجاهات الإسلامية لإصلاح المجتمع؛ بل يبدي حساسية كبيرة تجاه نظم الحكم العلمانية في تركيا والجماعات الدينية التي لها يد في إضفاء "الصبغة الإسلامية" على الأمة التركية.

وقد كان كل من كولن والرومي على وعي تام بخطورة تسييس التوجهات الإسلامية المتعلقة بنظام الحكم والإصلاحات السياسية الاجتماعية، وأضاف كولن: بدون الفكر الإسلامي لن يكون بمقدور أي شعب أو مجتمع إسلامي الاضطلاع بأي مشروع جادّ لإعادة تشكيل مجتمعهم وسط بيئة العلم والتكنولوجيا الموجودة الآن، وبدون إظهار الاحترام المناسب للجماهير المسلمة لن ينجح حكامهم في تنفيذ أي إصلاحات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية.

وإذا كان الغرب يفصل بين الكنيسة والدولة غالبًا فالواقع هنا يقول: معظم أبناء العالم الإسلامي ينظرون إلى الإسلام على أنه وثيق الصلة بحياتهم المادية أيضًا؛ فعلى كل مهتم بإصلاح أي دولة أو مجتمع إسلامي أن يلاحظ هذه الميزة الخاصة بالشعوب الإسلامية.

وقد كان هناك تصور خاطئ بأن عملية التصنيع والتمدين ستجعل الشعوب الإسلامية تتحول إلى اللاأدرية (الأغنوستية) أو الإلحاد كما في أمريكا الشمالية وأوروبا؛ فتركيا من أكبر البلدان الصناعية في العالم الإسلامي، ومع ذلك سار التحول «الإسلامي» فيها خلال العقود الأخيرة بإيقاع أسرع من كثير من البلدان الإسلامية الأخرى، وهذا لا يعني أن تركيا تخلّت عن مبادئها الدستورية العلمانية والقومية التي تتعارض بوضوح مع «الإسلام السياسي».

وتعتبر العلمانية -من وجهٍ ودون تلقين للمبادئ الإلحادية- موافقة لقيم إسلامية تشجع حوار الأديان وإظهارَ أقصى درجات الاحترام لأتباع الديانات الأخرى ولغير المؤمنين، وقد ظل كولن يحاول توضيح القيم والمبادئ الإسلامية دون استثارة أي طرف علماني قد يرى فيه تهديدًا للنظام السائد، ويتلخص منهجه بخصوص هذا النظام في أنه إذا أراد أن يكون مواليًا للشعب، فعليه أن يستمع إلى صوت الإسلام والشعب في الوقت نفسه، فهما متضافران عبر كثير من القنوات الثقافية والمجتمعية؛ وقد انصبّ تركيز الرومي على شَقّ مزيد من قنوات التواصل بين الناس مع تعميق الشعور بالمودة والرحمة تجاه الآخرين، أما كولن فأكثر ما يشغله هو استخدام تلك القنوات من أجل إحداث إصلاحات تربوية واجتماعيّة.

وحاول الرومي أن يسدّ الفجوة بين «إسلام العلماء» و«إسلام العامّة»، فصدرت عنه أشياء كثيرة ومعان عدّة على مستويات كثيرة في وقت واحد، فهو يقدم تفسيرات ومفاتيح تستكشف الواقع، وكل ما ذكره من آراء وقصص وتفسيرات ليست شيئًا أكثر من الواقع، وهو ما عبر عنه في الماضي والحاضر كل الأقطاب والأعلام في التراث الصوفي، وما تعلّمه الروميّ نقله عبر سلطنة الأدب من «المدرسة» إلى قلوب الناس حوله وإلى النخبة الدينية والسياسية، فديوانه الشعري «المثنوي» يخاطب المثقفين ومن دونهم(٩).

سدّ الفجوات واحتضان الإنسانية

يقول الرومي: "نحن كالفرجار، قَدَمٌ تقف ثابتة عند الشريعة الإسلامية، وأخرى تتحرك بين اثنتين وسبعين أمة"، ينصح الرومي المسلمين بتثبيت إحدى أقدامهم راسخة عند مركز منظومة المعتقدات الإسلامية، والتنقل بين المذاهب الأخرى والعالم الآخر غير المسلم بالقدم الأخرى، فهو يرى أنه لا شيء يُحظر المساس به بين تلك الفِرَق التي يتبعها الناس في فهم الإسلام والقرآن؛ فأتباع كل تلك الطوائف يمكن صهرهم في منظومة روحية عالمية واحدة تسمى «التصوف».

ويقسو نقّاد الرومي المسلمون بشدة عليه في آرائه المتحررة، ويصفه كثيرون بأنه أفسد المعتقدات الإسلامية الأصيلة، يقول بعضهم: إنّ الرومي أخرج نفسه من دائرة الإسلام عمدًا، يُروَى أن الرومي قال ذات مرة: "أنا لست مسيحيًا أو يهوديًا أو زرادشتيًا أو مسلمًا"، وهذا دليل

(9) Ihsan Yilmaz, «Rumi›s Renewed Social Innovation and Pluralist Activism Today,» International Mevlana Jalaluddin-i Rumi Conference, Dushanbe, September 7, 2007.

كفـره في نظرهم، فلم يعدّوه مسـلمًا؛ هـل كانت زلة من الرومي أن يقول: إنه ليس مسلمًا بالمعنى التقليدي؟ لا أبدًا، فسياق كلامه نقد أتباع الديانات المختلفة وممارساتهم المتطرفة، فأراد أن يقول: إنه لا يمارس أي نوع من التطرف الديني؛ بل كتب الرومي ما يبرهن أنه مسلم حقًّا:

''أنا خادم القرآن ما بقيت بي حياة
أنا تراب على طريق محمد المختار
وإذا ذكر أحد على لساني كلامًا غير هذا
فأنا بريء منه ومما يقول''.

وأصاب الأسـتاذ «إريك جيوفري» في قوله: ''معظم المصادر الغربية درسـت مولانـا الرومـي خارج سـياق جـذوره الإسـلامية''(١٠)، فكلٌّ من الرومـي وكولـن لم يتبـنَّ رؤية ضيقـة لأي معتقدات أو قيم إسـلاميّة، بل اتسـمت رؤيتهما في جوهرها بالإنسـانية والعالمية لتسـع البشرية جمعاء فـي مـدار التصوف، وللخلق كلِّهم تقدير وحـبّ عندهما لكونهم من آثار الخالـق، فينظـران للخلق على أنهم مظهر تتجلى فيه صفات الله. نعم، مـع أنـه ليـس فـي قلبهما شـيء دنيوي إلا أنهمـا يحبان كل شـيء لا لذاته بل لأنـه يذكّـر بالله، ومـع أن قلبهما في هجران للعالم ولكنَّ جسـدهما ليس كذلك، فهما مهمومان بالخلق جميعًا، ويسـعيان لاحتضان الناس من كل لون وعرق دون أن يتشوف إلى أجرٍ على ذلك. تقول إليزابيث أوزدالغا:

''آراء كولـن لا علاقـة لهـا بالسـعي وراء سـلطة سياسـية ولا بالإسـلام التقليـدي، بل تلتقـي أكثر مع أفـكار «ماكس فيبر» فـي الزهد، ويقـوم المنظور الـذي نتعلمه من كولن على النشـاط

(10) *«The West Has Tried to Hide Mevlana›s Relation with Islam» In: http://en.fGülen.com/content/view/2321/22/.*

العام، الذي تحركه التقوى وتضبطه بضوابطها، ونشـاط «التقوى» أو «الزهد» لدى فيبر تعبير عن سمة جديدة في الحياة الدينية بتركيا؛ ووفقًا لتحليل فيبر للزهد فالتأثير العامّ لنظرية كولن المشابهة حول «التقـوى الفاعلة» يسـير في اتجاه تأسـيس العلاقـات الاجتماعية على أسـاس عقلاني، وتقوم نظرية كولن عن «نشاط التقوى» كما هـي عنـد فيبر على فكرة مهمة، هي «نبـذ العالم» لا «الهروب من العالم» التي تتسم بها صوفية الهروب من الواقـع"[١١].

لم يكن ماكس فيبر (*Karl Emil Maximilian "Max" Weber*) (١٨٦٤-١٩٢٠م) صوفيًّـا، بـل كان مفكـرًا غير ماركسـي، ولديه عقليـة تقبل القيم الدينيـة والثقافيـة يوم أن كان الإيمان بالدين في أوروبا مرفوضًا اجتماعيًّا، وكانـت الحركـة العلمانيـة التركيـة متأثـرة تأثـرًا عميقًـا بالفكـر المعادي للإسـلام؛ بـرز فيبر أكبر متخصص في علم الاجتمـاع في الدين والحكم، ونجح في وضـع إطار مفاهيمي للسلوك الديني والأخلاقي في النشاطات الاقتصادية والسياسية.

"يبدو أن رجال التربية الذين يتبنون فكر كولن يؤدون شكلًا من أشكال «التقوى العملية»، وهو يشبه المبدأ الأخلاقي البروتستانتي الذي التزم به «ماكس فيبر»، ويسـير المدرسـون الذين يسـتلهمون أفكار كولن على مبادئه، فيضربون المثل للشكل المدني/ العالمي، إنهـم ينظـرون إلى الانخراط في العمـل المدني على أنه تعبير عن عقيـدة الشـخص وتدينه في صـورة التفاني والاجتهـاد والجد في العمل وتقديم الخدمات"[١٢].

(11) *Elisabeth Özdalga, «Worldly Asceticism in Islamic Casting: Fethullah Gülen›s inspired piety and activism,» Critique, Issue 17, Fall, 2003, pp. 83–104.*

(12) *Joshua D. Hendrick, «The Regulated Potential of Kinetic Islam: Antitheses in Global Islamic Activism,» Muslim Citizens of the Globalized World. Robert A. Hunt, Yuksel A. Aslandogan (eds.), New Jersey: The Light, 2007, pp. 28–29.*

ويـرى المحللـون الغربيون أنهم غالبًا ما يحاولـون إدراك قيمة حركة الخدمـة في التربية والتنوير الروحي وإقامـة دولة مدنية تحكمها الأخلاق العالمية من خلال هذه النظرة إلى النشـاط الإسـلامي، ومن الصعب على الغربييـن طبعًا أن يدركوا حقًّا قيمة كثير من ظلال النشـاط الإسـلامي في الرقي المدني والتزكية الروحية؛ فبعد اكتسـاب القيم المسـيحية الأوروبية مزيـدًا مـن التحـرر والليبراليـة غـدا الإلحاد هـو المصير الطبَعـي لمعظم الأوروبيين، وجاءت أعمال ماركس وإنجلس انعكاسًا لخلاف مستمر بين القوى المسيحية والمذهب الإلحادي للاشتراكية والرأسمالية.

ويشار إلى أن ماكس فيبر حاول تحييد الدعاية الإلحادية المتطرفة التي اجتاحت أوروبا كلّها ولم تقدم أي نشـاط عملي يمكن أن يغير المجتمع على أساس الأخلاق العالمية والكرامة الإنسانية.

تصور كولن للحياة الروحية الإسلامية:

أسـيء فهم أسـلوب الحيـاة الصوفي في كثيـر من الدوائر المتشـددة والدوغماتيـة فـي أنحـاء العالم الإسـلامي، فبعض المسـلمين يأملون في نيـل حيـاة سـهلة سـعيدة فـي الدنيـا والآخـرة دون أن يقوموا بمـا عليهم لتغييـر ظروفهم؛ ولا ينتسـب كولن إلى أيٍّ مـن هاتين الفئتين، فنظرته إلى الروحانيات قائمة على نهج قرآني إسـلامي يشـجع سـلوكًا روحيًّا يتمثّل في الخدمة الفعّالة للإنسـانية والمجتمـع، ولا تعرف عنه أية سـلبية أو فكر هدّام في تاريخ مواعظه على طول مسيرته داعيةً وكاتبًا إسلاميًّا مِعطاءً في خمسـة عقود، كان خلالها ناشـطًا اجتماعيًّا ومفكرًا وداعية مسلمًا مخلصًا على علم متعمق بكل ما في الإسلام من دقائق ورقائق.

بعض الطرق الصوفية المعاصرة تُدرِّس السلبية على أنها أسلوب حياة، وكثير من هؤلاء يظنون أن حسن النية في القلب يكفي لجعل الفرد قادرًا على إدراك أي درجة من السمو الروحي والسعادة الدنيوية؛ أما في نظر كولن فأيّ نهج إسلاميّ إذا لم يقدر أن يداوي الأمراض الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع، فلا قيمة له عند المسلمين بوصفهم مؤمنين عليهم أن يهبوا حياتهم كلها للنهوض بالمجتمع، ولا يقومون بهذا الواجب في المجتمع أو مع إخوانهم في الإنسانية من منطلق الأفضلية أو أنهم أهدى من غيرهم؛ وهذه الرؤية هي أساس نظرة كولن المتحررة في فهم المبادئ القرآنية أو تفسيرات القرآن، لكن كولن يحاذر جدًّا أن يترك شيئًا واحدًا من التكاليف الدينية أو سلوكًا ترسخ منذ أمد وإن كان لا يُدرك مغزاه، فهو عصريّ لا يجمِّل نفسه بالرموز الإسلامية، لكنه لا يرفض أي سلوك تقليدي للمسلمين ألبتة؛ فتأييده للتقوى كما دعا إليها الغزالي والرومي تأييد صريح، ولا شبهة فيه لدى أحد من عامّة المسلمين رجالًا ونساء.

لم ينتهج كولن الأسلوب الانتهازي في حواره مع أبناء الديانات أو الحضارات الأخرى، بل وجد في منهج المحبة والمودة الذي يسلكه مع البشر جميعًا ما يسهل وجود تفاعل وحوار حقيقي بين أهل الديانات المختلفة؛ ويؤمن كولن بالتعايش السلمي مع الآخرين في سبيل هدف مشترك، هو بناء مجتمع إنسانيّ راق؛ ولتحقيق ذلك الهدف ينبغي قبول كل شخص كما هو دون أن يكون مضطرًا للتخلي عن مبادئه الدينية أو الفكرية أو الأخلاقية، وكولن مثل الرومي لديه إيمان قويّ جدًّا بأن أي فعل روحي صادق له قيمة جوهرية عند الفاعل والآخرين من حوله.

ويـرى كولـن أن الكرامة الإنسـانية والروحانيات الصادقـة لا ينفكان عن الروح البشـرية، التي تصبو إلى بلوغ الحقيقة العليا للوجود الإنسـاني في الأرض، فلا حدود لما يمكن للروح الإنسـانية أن تصل إليه من آفاق روحية، ومن ثم لا يمكن لأحد أن يدعي أي فضل له على غيره في التقوى أو الكرامة الإنسانية، وقد تثور في المجتمعات الإسلامية مشكلة كبيرة إذا مـا حـاول الناس أن يحددوا درجة الصدق أو الكذب في تدين أي مسـلم أو مسلمة، تقول «عارف»:

"يتغلغل الرومي في أعماق أخلاقياتٍ تشكِّلُ الإطار الخلقيّ للمجتمـع ببحثه عـن كيفية الانتفاع بها وتطبيقها، فتأمّلاته المتأنية الناتجة عن التحليل والتركيب المستفيضين لا تبصرنا بما ينجم عن أنماط تفكير معينة من مخاطر وسلوكيات خاطئة، وتقدم في نفس الوقـت العلاج والنصـح لتصحيح الخطأ ليتكيـف مع الصواب، فهو بهذا لا يمارس دور الناصح الأمين فحسب بل يربط بين ألغاز الحيـاة ومفارقاتها لتدعيم أرواحنا حتى نقاوم وندفـع كل اعوجاج وخبث غير إنساني"(١٣).

لا يمكـن لأي إصـلاح سياسـي أو اجتماعي أو اقتصـادي حقيقي أن يسـتمر فترة طويلـة دون تغيير جوهر المجتمـع؛ ذلـك أن القيم الجوهرية لأي مجتمـع هي مزيـج لمجموعة كبيرة من الظواهر الراسخة الناتجة عن مصـادر متنوعة: المنظومة الدينية الثقافية، والعرف، والنماذج الاقتصادية، والقيم السياسـية الاجتماعية...، وللرومي إسـهامات متنوعة قيمة جدًّا في جوانب كثيرة من الحركة الإنسانية والإسلام، ويمكننا أن نلقي نظرة جديدة

(13) Seema Arif, «The Memetic Counseling of Masnavi: The Artless Art of Jalaladdin Rumi,» Rumi and His Sufi Path of Love. M. Fatih Citlak and Huseyin Bingul (eds.), New Jersey: The Light, 2007, p. 31.

على الرومي في القرن الحادي والعشرين لندرك ما هو سر إسهاماته في المُثُل العالمية للإسلام والحركة الإنسانية عمومًا؟

جمع الرومي في كتاباته وأنشطته الروحية كنوز الحضارة الإسلامية من القرن السابع الميلادي حتى القرن الثاني عشر، وشَهِد أطول أزمة سياسية يومئذ، ولم يحبطه أو يؤثر في معنوياته صعود الحكام المسلمين وسقوطهم، فما يشغله هو القضايا الأساسية لنشوء وتطور المجتمعات الإنسانية من خلال بوتقة الأخلاقيات والروحانيات، وكان عالَمُ الإبداع والمجال الروحي الذي عاش فيه الرومي عالمًا ذاتيًا؛ لأنه يلحظ قدرة الخالق على الخلق، وعالمًا موضوعيًّا أيضًا، فشخصيته الدنيوية كم وكم أفادت من الأنشطة العقلية للبشر.

لم يكن الرومي يرغب في التقليل من التصورات عن مكانة الله والبشر في الأرض أو في السماء؛ فآفاق النشاط البشري تأخذ خصائص الخلق الغيبية عن البارئ جل وعلا، وكان توق الرومي لاكتشاف مزيد من الألغاز والأسرار في الأرض مهمة إلهية؛ ليتعرف المرء على المضمون الحقيقي للروح البشرية ورحلتها نحو السماء، وهذا البحث الدؤوب عن حقيقة الإنسان يقتضي تفتيشًا محكمًا لروح المرء بغيةَ تحقيق التكامل مع الطبيعة الإنسانية للبشر أجمعين، وأحسن دينورشوييف عندما عبّر عن ذلك بقوله:

> "عمل الرومي على نشر علاقات المحبة مع اليونانيين والعرب والأتراك والأوروبيين، أي مع أتباع الديانات والعقائد المختلفة كلها، فالرومي مقتنع بأن الله ﷻ واحد أحد يتصرف في البشرية جمعاء، والطرق إليه كثيرة متعددة، وأي فكر يعارض ذلك المثل الأعلى العالمي قد يسبب العداوة بين أبناء الديانات المختلفة، وقد يثير البلبلة والتشوش فيؤدي إلى التعصب،

والموضوع المحوري عند الرومي هو تحديد دور البشر ومكانتهم في الأرض بوصفهم عناصر فاعلة في الإصلاح بين الأعراق والمواقف الاقتصادية والاجتماعية التي تؤيدها النظم السياسية المختلفة في أرجاء المعمورة، وتجعل البشر جميعًا متساوين عند الله؛ ولتحقيق هذا الهدف الأسمى للحركة الإنسانية شاءت إرادة الله أن يجتمع البشر على الحوار للحفاظ على البشرية بما فيها من تنوع في الثقافة والحضارة"[١٤].

استطاع الرومي قبل ثمانية قرون أن يرى المشكلة الرئيسة للإنسان الحديث الذي ما زال يشعر بالحيرة في علاقاته مع شركائه في الإنسانية؛ وحجر الزاوية في مذهبه الروحي أننا بُعثنا لتوحيد الناس لا لتفريقهم، فرسولنا ﷺ وحّد كثيرًا من القبائل العربية تحت راية الإسلام، وسرعان ما بزغ العرب لأول مرة في تاريخ البشرية ليكونوا أمة؛ ورغم أن المسلمين الأوائل قاموا في مدة زمنية وجيزة بتحويل دولتهم الصغيرة في المدينة المنورة إلى إمبراطورية يحكمها الخليفة المسلم إلا أنه لم يحدث ألبتة أنهم حاولوا إنشاء دولة للعرب والمسلمين وحدهم، فمفهوم الخلافة هو شكل للدولة العظمى لا تشابه بينها وبين الدولة القومية التي تعد أحد إفرازات الاحتلال، وما انقسم المسلمون حول قضية الخلافة إلا أيام نهوض نظام الدولة القومية.

ونجا الشعب التركيّ تقريبًا من هيمنة آثار الاشتراكية الملحدة أو الشيوعية، ونجت تركيا أيضًا من تجربة المسلمين التقليدية مع الاحتلال الأوروبي؛ فقد تعرضت الشعوب المسلمة الخاضعة لحكم

(14) M. Dinorshoyev, «Foreword,» The Dghemchudghini [Jewels] of Jalaluddin Balkhi: Masnavi, Izbrannoe Raskazi I Pritchi, Dushanbe, 2007, pp. 14–15.

المحتل الأوروبي لضغط هائل؛ لتتنازل عن كثير من تراثها الإسلامي؛ وفي العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر انجرف الأتراك العثمانيون في تيار المدّ القومي الذي تحول إلى علمانية كاسحة، وهذا لا يعني أن المظاهر الإسلامية أو طريقة حياة المسلمين التقليدية كانت مرفوضة في ظل حكم أشكال النظام العلماني التركيّ المختلفة في القرن العشرين، ويرى الرومي أن جميع الحروب إما لا معنى لها وإما حمقاء، فماذا عن الحروب الأيديولوجية؟ لهذا السؤال إجابات كثيرة عنده كلها يحفل بالمحبة والمودة واحترام الآخرين.

وجاء فتح الله كولن «روميُّ تركيا الحديث» بصوت متميز يدعو إلى حوار الأديان والحضارات، ويميز كما الرومي بين فئتين من الناس في المجتمع المسلم: أصحاب «الإسلام الكتابيّ» أي الذين يستندون في أحكامهم وتطبيقهم للإسلام إلى المصادر الرئيسة للإسلام وهو الكتاب والسنة، وأصحاب «الإسلام التقليدي» الذين لا نصيب لهم من الإسلام إلا ما وجدوا عليه آباءهم، وازداد هذا التقسيم قوة وحِدّةً منذ مطلع القرن التاسع عشر، وراحت جماعات إسلامية تحاول التوصل إلى كيفية لأداء رسالة الإسلام الحقيقية، فوقع كثيرون فريسة الحيرة لتركيزهم المفرط على المظهر الخارجي للإسلام، ولم يثمر النزاع بين العلمانيين في البلدان الإسلامية والإسلاميين بأنواعهم في حل هذه المشكلة؛ وبينما كان المسلمون يجتهدون في تصوير نبيهم مصلحًا اجتماعيًّا وصانع سلام، وصف بعض أهل الأديان الأخرى أيضًا النبيَّ محمدًا ﷺ بأوصاف رائعة، فمثلًا يقول المهاتما غاندي:

"صرتُ مقتنعًا أكثر من قبل بأن السيف لم يكن هو ما حقق للإسلام مكانه ومكانته يومئذ على خريطة الحياة، بل إصرارُ النبي على التواضع وإنكارُه التام لذاته وحرصُه على احترام عهوده وإخلاصُه البالغ لأصحابه وبسالتُه وشجاعته وثقته المطلقة بالله وبرسالته، هذا هو ما أزال العقبات وذلَّل له الصعاب لا السيفُ، فأحاديث النبي كنز من الحكمة ليس للمسلمين فحسب بل للبشرية قاطبة"[١٥].

ولطالما نسي كثير من المطبقين لأحكام أهل الذمة أيام الأزمات أن كنز الحكمة أو طريقة الحياة في القرآن والسنة ليست مقصورة على هذه الجماعة من المسلمين أو تلك، بل هذه الموارد متاحة للبشرية جمعاء، ويمكن لأي شخص الاستفادة منها بشيء من الإيمان بالإسلام، ذكَّر الرومي المسلمين بذلك قبل ثمانية قرون، وفي القرن الحادي والعشرين نرى رسالة مشابهة لكولن عن الإصلاح الشخصي والاجتماعي، وهي توضح أن حركة الخدمة حركة شاملة روحية واجتماعية في الوقت نفسه، وهذا ليس من السهل إدراكه في الحركة؛ ومن الصعوبة بمكان في هذا الصدد التمييز بين الرومي وكولن، فما زال الوقت مبكرًا جدًّا لتحديد ما سيخلفه كولن لنا وراءه من تراث؛ وكولن لا يعنيه النشاط السياسي، ولا ينوي أن يؤسس طريقة صوفية خاصة به، فليس من السهل إذًا العثور على فارق بين الرومي وكولن.

يقول دينورشوييف:

(15) Mahatma Gandhi, Quoted in Easwaran, Ekrath, Nonviolent Soldier of Islam: Badshah Khan, A Man to Match His Mountains, Nilgiri Press, 1999.

"أهـم إسـهامات الرومـي في نمـو وتطور الحكمـة الصوفية الإسلامية أنه نجح في المزج بين الجوانب النظرية للتصوف وبين أهميتهـا في تحقيـق الوحدة بيـن مختلف أنواع الطـرق الصوفية، فمـن المهـم عند الإنسـان الحديـث أن تعثـر العلـوم الاجتماعية والإنسـانية المعاصـرة علـى إجابات سـليمة للمشـكلة المتأصلة فـي نظامه الصوفي ليتمكن الإنسـان من حلهـا؛ ولقصائد الرومي انتشـار واسـع بعد ترجمتها على يد ريوكيرتا، واستطاع الفيلسوف الألمانـي الشـهير «هيجل» بعد قراءتها أن يلمح فـي الرومي فورًا الحـس الصوفي الفلسـفي المرهف والموهبة الشـعرية الراقية في مؤلفاته «الزاهد» و«الروح الفلسفية»"[١٦].

بـدأت ترجمة أعمـال كولن تظهر فـي الغرب، وعلينـا الانتظار لنرى كيـف ينقـد الكتـاب الغربيون كولن ويقيمونـه باعتباره الامتـداد المعاصر للرومـي، ولكـن يمكننا القول بثقـة: إن كولن ليس عالمًا إسـلاميًّا تقليديًّا أو صوفيًّا له طريقة خاصة، إنه يجمـع كثيرًا من السـمات الأساسـية للفقيه والداعيـة، أما العلماء التقليديون اليوم فينحصر دورهم في المحافظة على المعرفة المسـتمدة من المصادر الإسـلامية ثم سـردها حينما يطلب منهم ذلك، ويسميهم بعض الكتاب «ناقلين»[١٧].

وفي عصر المعلومات هذا لن يكون لهؤلاء الناقلين دور يذكر في حل أي مشكلة مهمة يعاني منها المسلمون، ففي كل بلد عدد جمّ من الناقلين للإسـلام والثقافـة الإسـلامية العاجزين عن القيام بدور القيـادة في عملية

(16) M. Dinorshoyev, «Foreword,» The Dghemchudghini [Jewels] of Jalaluddin Balkhi: Masnavi, Izbrannoe Raskazi I Pritchi, Dushanbe, 2007, pp. 16–17.

(17) See Ali Bulac, «The Most Recent Reviver in the Ulama Tradition: The Intellectual Alim, Fethullah Gülen,» Muslim Citizens of the Globalized World, Robert A. Hunt, Yuksel A. Aslandogan (eds.), New Jersey: The Light, 2007, p. 118.

الإصـلاح الجاريـة في مجتمعاتهـم، وهذا ما جعل كثيرًا مـن أفراد النخبة المسـلمة يسعدون لرؤية كتاب مثل المودودي وقطب، ويرون أنهم يمكن أن يلبوا حاجة العصر؛ والحق أن هؤلاء المفسرين للأيديولوجيا الإسلامية من منطلق ثقافة دينية سياسـية كانوا يريدون اسـتعادة الإسـلام في بلدانهم بـأي طريقـة، وهنا أيضًـا يُعد كولن اسـتثناءً من الظاهرة العامـة في العالم الإسلامي المعاصر، فهو لم ينس أمر وطنه لكن رؤيته لإحياء الروحانيات الإسـلامية حظيت بتركيز أوسـع بكثير من قضية صعود الإسلام السياسي فـي أي بلـد إسـلامي آخر، يقـول المفكر الإسـلامي التركي البـارز علي بولاج:

> ”مع قدرة كولن على الحكم بصحة أي حديث نبوي بشكل دقيق له تفسيراته بخصوص القضايا المعاصرة، وهذا النوع القيادي الجديد يسـتعين بالمصادر الأمّ من كتاب وسنة، ولديه دراية جيدة بالعلوم الإسلامية والتاريخ الإسلامي والعلوم الحديثة والتطورات الجاريـة، والحقيقـة أن فعاليـة القائـد تضعف بغيـاب أيٍّ من هذه السـمات كما هو الحال مـع العلمـاء الأتراك الآن المنفصلين عن العالـم المعاصـر، والمثقفين الأتـراك الذين لا يعلمون شـيئًا عن الإسلام والتاريخ“(١٨).

يشـكل صعـود الإسـلام السياسـي مأزقًا خطيـرًا لدى معظـم البلدان والجماعات الإسـلامية المعاصرة، وساعد على انتشار التطرف والتعصب في مناطق كثيرة من العالـم، ووجدت القوى المحتلة أنه من الأسـهل تنفيذ سياسـة «فرِّقْ تَسُـدْ»، فلم يتحـزب كولن لأي طرف في العـداء القائم في

(18) *See Ali Bulac, Ibid.*

العالم الإسلامي بين العلمانيين والإسلاميين في معركتهم الأيديولوجية للسيطرة على جهاز الدولة الفاسد الذي خلفه المحتل الأوروبي وراءه.

نعم، كولن امتداد للرومي في الدعوة للسلام والتوافق العالمي من أجل البشر جميعًا على أساس فهم أعمق للمبادئ الإسلامية، لكن نود أن نضيف أن كثيرين منا غير مدركين تمامًا لجسامة المهمة الخاصة بإصلاح مجتمعاتنا وجماعاتنا بما يتفق مع القيم الإنسانية المتأصلة «الفطرة».



الفصل الثاني:

الصوفية بين النظرية والتطبيق في منظور كولن





الصوفية بين النظرية والتطبيق في منظور كولن

يمكن تعريف التصوف أو الصوفية بسهولة بأنها البعد الروحيّ لأسلوب الحياة الإسلامي، أو بتعبير كولن «الحياة الروحية للإسلام»، فالصوفيّة خلافًا للإسلام السياسي تؤكِّد على الجانب الروحيّ في الإسلام، وتهتمّ أصلًا بإثراء العالم الداخليّ للبشر في رحلتهم نحو الحقيقة المطلقة، وينضوي الناس فيها عادة تحت مظلة روحية تجمع أبناء المشرَب الواحد، وليس بالضرورة أن تكون المظلة طريقةً من الطرق الصوفية.

ونشير هنا إلى أن الإنسان يمكن أن يتغير حقًّا، ويسمو روحيًّا بتهذيب وتوجيه المربّين العارفين بالله، لكنَّ مشاركته لهم في مجالس دينية أو إفادته من سَيْرهم وسلوكهم في رحلته الروحيَّة نحو الحقيقة المطلقة ليس معناه أنه لا بد من شيخ يكون مريدًا له أو طريقة صوفية يتبعها، فلبُّ المسألة أن يفيد المرء أعظم إفادة من السلوكيات أو التجمعات في ظل الوجود الروحي للأولياء أو المربّين ممن لهم خبرة في التزكية عرفوها وهم في طريقهم إلى الله، وعبر الرومي عن ذلك ببراعة في قصيدة له:

قلباه اسكن بقرب مَن عنده للقلب طِبّ
وبظل أشجار أُثقلت بنَضر الزَّهر فحسبُ(١٩)

ويقـول كولـن: "أعلـى مراتب الولايـة أن تتحلى بخلّـة مخلصة مع الله"(٢٠)، ويشعر أولياء الله الصالحون بهذه الخلة بحسب قدْرهم وقدرتهم، فهـم وإن كانـوا على صلة عميقـة بالروحانيات وحظـوا بقرب خاص من الله إلا أن مـا يمكنهـم الوصـول إليه من الكمال له حـدّ يتفق مـع قدرتهم؛ وللولي فضائل معينة تميزه ويفوق فيها الآخرين:

"أوليـاء الله وأصفياؤه وإن كان كل واحد منهم إنسـان القلب والـروح؛ فإنهـم يُذكرون بألقـاب متنوعة مثل: الأبـرار والمقربين والأبدال والأوتاد والنجبـاء والنقباء والأغواث والأقطاب؛ بالنظر إلـى طباعهـم وأمزجتهـم ومزياتهـم ومذاقاتهـم ودرجـة رقيهـم وواجباتهـم ومهامهم. وأيًّـا كانت ألقابهم ودرجاتهـم فهم جميعًا يشتركون بحسب استعدادات كلٍّ منهم في الخصال الحميدة مثل: الصدق والأمانة والتقوى والورع والزهد والرضا والمحبة والحلم والمسـالمة والتواضـع والتفاني والتوبة والإنابة والأوبة والخشـية والمخافة. وكلهم تقريبا يتحركون في إطار هذه الأسس الإسلامية عدا أهل الشطحات"(٢١).

وكان كولن حذرًا جدًّا مِن سـلوك مَن يهتم بالعبادات أكثر مما ينبغي على حسـاب مبادئ الإسـلام العالمية الأوسـع والأشـمل، ومن مواقف متصوّفـة لـم يلتزموا بتكاليف الإسـلام فضلّـوا وأضلّـوا، إلا أن كولن لم

(١٩) جلال الدين الرومي: الديوان الكبير، رقم الغزل: ٥٦٣.

(٢٠) فتح الله كُولَن: التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح-٣، «الخُلّة»، نشر دار النيل التركية، إسطنبول ٢٠١٢م، (لما يترجم عن التركية)، ص ٢٦٨-٢٧٥.

(٢١) فتح الله كُولَن: التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح-٣، «الولي وأولياء الله»، نشر دار النيل التركية، إسطنبول ٢٠١٢م، (لما يترجم عن التركية)، ص ٧٢.

ينكر قط دور الطرق الصوفية وأهميتها في العالم الإسلامي، وخاصة في مراحل صعود الحضارات وأفولها:

''ورغم أن في كل عصر من العصور متعصبين من الصوفية ومتشبثين بظاهر الأحكام الشرعية من الفقهاء والمحدّثين والمفسرين إلّا أن أرباب الصراط المستقيم هم الأكثرية دائمًا بالنسبة لهؤلاء الذين أفرطوا وفرَّطوا''(٢٢).

ولم تَعُد الدوائر القيادية في مجتمعات وديانات كثيرة اليوم تَعُدّ الفكر الإسلامي السائد يقدِّم أسلوب حياة أو نظامًا لبناء الأمة والدولة؛ دعِ المآزق السياسية والاقتصادية تجدْ من السهل شرح وتفسير قضايا الإسلام الأساسية، لكن ما أصعب وضع تلك القضايا في سياق قوميّ أو اقتصادي معين وتطبيقها على صور الواقع العملي في الحياة!

واختلف المسلمون في شأن الطرق الصوفية المتعددة في ضوء الفقه وقواعده ومقاصده وأصوله، فالصوفية في كتابات المسلمين قديمًا وحديثًا بين الإيجاب والسلب، واختلف العلماء مع الاتجاهات المتشددة اختلافًا هائلًا في قضايا الطرق الصوفية، بل بعض الفقهاء لا يرونها من الإسلام.

أراد كولن أن يحرر قرّاءه من أي تحيز أو خلط مسبق في أمر الصوفية الممثلة لروح الإسلام وعلاقتها بالمذاهب المختلفة، وله سلسلة في التصوف «التلال الزمردية: نحو حياة القلب والروح» استوعبت ما هو نظري وتطبيقي في الروحانيات على مدى التاريخ الإسلامي ومدارسِ المذاهب العقائدية، وتُعدّ من الأعمال المهمة في دراسة البعد الروحي للفكر والحياة في الإسلام، وتفتح أفقًا جديدًا، وتقدّم هدفًا يتعين بلوغه،

(٢٢) فتح الله كولن: التلال الزمردية: نحو حياة القلب والروح-١، ص ٢٢.

وتبيّـن وسـائل التغلـب على النزعة الحيوانيـة وترك التعلّـق بالمادّة لبلوغ مقامـات في حيـاة القلب والروح؛ وهي وإن بينـت بوضوح أصول الحياة الروحية الإسـلامية وجوانبها المختلفة إلا أنها لا تشـير إلى أن كولن يؤيد طريقة صوفية بعينها، ولا أنه يدعو إلى طريقة جديدة بأي شكل أو وسيلة، وغايـة مـا فيها أنها تقدّم للمعاصرين شـرحًا واضحًـا لمجموعة كبيرة من قضايا التصوف.

قد يقال: لماذا أفاض كولن في تناول مصطلحات الصوفية ومظاهرها المختلفـة فـي التطبيق الجماعـي والتقوى الفردية؟ يجيـب كولن عن هذا إجابة واضحة:

> "إن دين الإسلام يركز طبعًا على العالم الروحيّ، ويَعدّ تزكية النفس من مبادئه الأساسية، فللزهد والتقوى والرحمة والإخلاص أهميـة كبرى فيه؛ والمنهج الذي عُني بتلك الأمور على مرّ تاريخ الإسلام هو التصوف"[٢٣].

ويؤكّـد كولـن فـي كتابه هذا علـى الحياة الروحية للإسـلام في ضوء مجموعـة مصطلحـاتٍ بحيث يمكنك أن ترى في الصوفية الوجه الروحيّ للإسلام أو الحياة الروحية ذاتها، لا أنها علم نظريّ له مصطلحاته[٢٤].

ويقـدِّم كولـن المصطلحـات الصوفية فـي إطار المقاييس الإسـلامية وأبديّةِ الحياة الروحية وعمقها الهائل، يقول علي أونال:

> "يرسـم الكتاب بأجزائه الأربعة حدود الطريق الروحي وينير كلَّ مرحلة ومحطة بكشـافات سـاطعة، فضلًا عن أنه قبل انطلاق

---

(23) http://fgulen.com/en/press/interviews-claims-and-answers/25016-claims-and-answers

(24) Ali Ünal, «Foreword,» Key Concepts in the Practice of Sufism: Emerald Hills of the Heart, Vol. 3, M. Fethullah Gülen, New Jersey: Tughra Books, 2009, p. ix.

تلـك الرحلة الروحية يكسـر الحدود والقيـود المفروضة؛ لتنهض الحيـاة الروحيـة أو الصوفية على أسـاس المبادئ الإسـلامية أيْ خطـوة خطوة مـع حدود الفقه الإسـلامي دون ابتـداع أو انزلاق في بدعة''[٢٥].

وعُني كتاب «التلال الزمردية» بالجانب العملي من التصوف لا بأشكاله المؤسسـية أو التنظيميـة، فهو بهـذا دليلٌ تفصيليٌّ لهذه الفكرة الأساسـية: «الحياة الروحية الإسلامية جوهر الإسلام لا نظريًّا بل كما عاشها الصحابة رضي الله عنهم، فيقدِّم هذه الحياةَ تجربةً عميقةً بيَّنَها وحدّدها الإسلام لكلٍّ من القلب والعقل والجسـد، ويبحث كيفية تشـكلها وتطورها عبر التاريخ، فهو ينقل للأجيـال القادمة تراث الصوفية بأبعادها كلها أو الحياة الروحية للإسـلام بصورتها الكاملة طريقًا صحيحًا آمنًا محصنًا ضد أي انحراف»[٢٦].

بحثًا عن الصوفية الأصلية

رغـم الخلاف النظريّ بيـن الفقهاء والصوفية في قضايا شـرعية لدى تفسير مصادر الفقه الإسلاميّ، إلا أنّه ليس له كبير أثر على الحياة العملية للمسـلم، فالتصوف بوصفه البعد الروحي للحياة الإسلامية لا يمكن عدّه مسـتقلًا عن الفقه، ويوضـح كولن هذا بقوله: ''فـلا اختلاف ولا افتراق، بـل قد تعهّـد كلٌّ من الجانبين بالحفاظ على ناحيـة مهمة من الدين، فكلٌّ مـن تلـك النواحي بمثابة كلية من الجامعة، التي تمثل الكل، والتي يتوقف تكاملها على تكامل تلك الكليات''[٢٧]، «لذا يعدّ انحرافًا ومجانبة للصواب

(25) *Ali Ünal, Ibid., Vol. 3, p. x.*

(26) *Ali Ünal, Ibid., Vol. 3, p. xii.*

(٢٧) فتح الله كولن: التلال الزمردية: نحو حياة القلب والروح-١، ص ٢٠.

إظهـار وجهـات نظـر الصوفية أنها مختلفة في الأسـاس عـن أفكار خدام الشريعة واستنباطاتهم»[٢٨].

ويقول كولن "إن أسـاس التصوف هو الرعاية لآداب الشريعة ظاهرًا، والوقـوف علـى تلـك الآداب باطنًـا"[٢٩]، فيرى أنه لا فصل بين الشـريعة «الأحـكامِ المسـتمدة من الكتاب والسـنة» والتصوفِ «البعـدِ الداخليّ أو الباطنيّ للشريعة»، يقول:

"فالسـالك الذي يُحسـن اسـتعمال هذين الجناحين يرى من الباطـن ما فـي الظاهر مـن الأحكام، ويشـعر ويعيش فـي الظاهر بالأحكام التي في الباطن. وبفضل هذه المشـاهدة والشـعور يسير دومًا بأدب نحو الهدف، ويجول قريبًا منه ويحوم حوله"[٣٠].

وهـذا يـؤدي إلـى العناية الشـديدة بالشـعائر الدينية؛ فالتصـوف بهذا المعنـى يجعل الإسـلام يسـتقر في المسـلم اعتقادًا وتطبيقًـا بالجمـع بين طاعـة أوامـر الله وأداء العبـادات والعمق العميق المتمثـل بقدرة العبادات على تغيير الباطن.

والتحـدي الفكـريّ الحقيقـي هو إثبـات أن الفقه والتصـوف يعملان معًا، ووضـعُ أهداف دينية ودنيوية من نوعية واحدة لنشـر نظام عالمي في العدالة والحكم الضامن للسـعادة، فأي ناشـط أو داعية إسلامي ستواجهه مشـكلة معقدة عند بحثه عن أرضية مشـتركة بين المسـلمين جميعهم بما لهم من خلفيات تاريخية وثقافية واقتصادية مختلفة؛ فالإسلام يمكن فهمه بأنه طريقة تعلم وتفكير، وبأنه منهج حياة أيضًا.

(٢٨) فتح الله كولن: المصدر السابق، ص ٢٢.

(٢٩) فتح الله كولن: المصدر السابق، ص ١٤.

(٣٠) فتح الله كولن: المصدر السابق، ص ١٤.

ويرى كولن أن الخلاف لفظي كما يقولون، فالمسلمون جميعًا يتبعون مبادئ الفقه العامة ويعيشون حياة روحية إسلامية في الوقت نفسه، ولكن ليس كل مسلم أو كل شعب يمكنه الأخذ بالأفكار المتنوعة للطرق الروحية في نشاطاته الدينية والدنيوية؛ فاقترح كولن أسلوبًا معينًا لجعل كلّ مسلم جزءًا من صحوة دينية وروحيّة في أنحاء العالم كافّة، وهذا التوجه يشبه مسلك السلف من أولياء ومجتهدين.

والأولياء في أذهان الناس خلافُ المجتهدين؛ إذ يرون أن بعض الأولياء ليس لهم مذهب مستقل أو تابع قائم على النص التوقيفي، أمّا المجتهدون فالحزم والالتزام بالشريعة في طريقة حياتهم سمتٌ لهم؛ والواقع أن الأولياء أشدّ التزامًا بالنصوص، فإذا أضيف إلى هذا أنهم في معية الله وحفظه تبيّن أنهم يمثلون بُعْدَي الولاية الحقة.

وفي كثرة تعريفات الصوفية لمصطلح «صوفي»، وأنَّه مشتقّ من الصوف أو الصفاء أو الصفوة...، يقول كولن صراحة عن أصل الصوفية: إنّها تمثل البعد الروحيّ لطريقة الحياة الإسلامية، ويرفض القول بأنّها مشتقة من كلمة «*Sophos*» اليونانية التي تعني «الحكمة» قائلًا: "أعتقدُ أن هذه التسمية شيء اختلقه الأجانب، على الرغم من أن أكثر الصوفيين من أرباب الحكمة"(٣١).

من ليست له ميول روحانية يمكن أن يعيش حياته كما يحلو له بلا أهداف روحية محددة، أمَّا المؤمن الحق فلِلنّيّة مكانة محورية في كل ما يقوم به من أنشطة في حياته كلها، فهو لا يرائي ولا يباهي بأعمال الخير؛ فالمبدأ الديني يقول: عملُ الصالحات تكليفٌ ونعمةٌ ربانيّة.

(٣١) فتح الله كولن: المصدر السابق، ص ٢٥.

«مُوتُــوا قَبْـلَ أَنْ تَمُوتُوا» حكمة لبعض الصوفية مغزاها السـيطرةُ على النشـوة النفسـية وتغذيةُ القلب والروح بدرجة أعلى من التذلل والشـعور بالمسـؤولية ليعامِـل المؤمـن غيرَه معاملة أفضل على حسـاب مصلحتهم الخاصّة، قد تقول النظرة المادية: هذا نوع من امتهان الذات مآله الإضرار بالرفاهيـة الماديـة للمجتمـع كافة؛ لكن كولن يأخذ بالرأي الصوفي القائل بـأن هذا علامة على اسـتنارة الروح الإنسـانية مآلها تحريـر المجتمـع كله مـن جوانبـه كلّها، فالحياة الروحيـة للصوفيّة تختلـف جذريًّا عن الجذور المفترضة لأفكار الفلاسفة قبل الإسلام حول التقشف أو اعتزال المجتمع والدولة:

"نعـم، إن فلاسـفة اليونـان والهند قد سـاروا حقًّـا في طريق تصفية النفس قبل ظهور الإسـلام وقاموا بما يشبه عمل الصوفيين مـن المجاهـدة، ولكن الطريقيـن مختلفان اختلافًـا كليًّا من حيث الأصل والأساس، ذلك لأن الصوفيين يحققون التصفية بالتمسك بأسـس الذكـر والعبـادة والطاعـة ومحاسـبة النفـس والتواضـع والمحويـة، ومن ثم يسـعون للمحافظة على هـذا الخط إلى نهاية العمـر، بينمـا تصفيـة الفلاسـفة -إن كان إطـلاق التصفيـة عليهـا صحيحًـا- فهي تصفيـة اعتباطية، لا تنطوي علـى عبادة ولا طاعة ولا مراقبة نفس ولا تواضـع ولا إنكار الذات، بل فيها دومًا الغفلة وتضخيم الأنانية وإطغاؤها"[٣٢].

لـم يكن للمرء قبل ظهور الحضارة الإسـلامية أن يجد السـبل الدينية والروحية والثقافية التي تَقيه الغرور والجهل الناتجين عن الخرافة أو عقدة الأنا، واجتهدت الطرق الدينية المختلفة في وضـع وسائل تطهر المسلمين من الجشـع والأنانية والحسد وسوء الخلق وحبّ الدنيا والمنكرات كلها،

(٣٢) فتح الله كولن: المصدر السابق، ص ٢٧.

فأعماق كل روح إنسانية تتمنى بلوغ هدف أسمى بكثير من الأكل والشرب ثـم المـوت كما هي حياة أحياء لا تعقل، فللسـعادة أهميـة بالغة لدى كلّ إنسـان، فالمعرفةُ والعلـمُ بالخلق والحياةِ والصـواب والخطأ وبالمنظومة التـي تسـود الكـون قضايا مهمة للعثـور على إجابات مقنعة لأسـئلة مثل: كيف نحظى بالسـعادة في الدنيا؟ وكيف نستشـعر أن لعلوّ الأخلاق معنى ومغزى؟ وكيف نرى قضايا الحياة الأسمى من مصالح المرء الأنانية؟ هذا بعض ما يُعنَى به الصوفيّة.

ومصـدر العلم بتلـك الأمور الحيويـة كلها هو القرآن، ويشـير كولن إلـى أن الحكمـة ملازمـة لهـذا المصدر الأساسـي للعلم، والسـنة النبوية -مبـادئ بهـا تُفهـم علوم الوحـي وتطبق فـي الحياة اليومية- هـي أول ما يتبادر إلى الذهن عند الحديث عن الحكمة أي حكمة النبي ﷺ، ويشير إلى الآية القرآنية ﴿**اُدْعُ إِلَى سَـبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَـنَةِ**﴾ (سُورَةُ النَّحْلِ: ١٦/١٢٥)، قائلًا: ''المقصود بالحكمة دقائق القرآن وأسراره''[٣٣]، فالحكمة فـي رأيـه بجانبيها النظري والعملي هي «المـودّة والعطف» في حياة الفرد والجماعـة على امتـداد العالم بأسـره، وبهذا المفهوم يوجـه كولن الناس لينتشـروا في أنحاء العالـم كافّة ليعلموا وينشـروا معنى المودة، ويحذّر هنا من أن يكون لنزعة القومية وتطرفها أي أثر فيما يقدمونه من خدمة إنسانية وعمـل تطوعـي غدا جزءًا من الكرامة الإنسـانية العالمية؛ فالمهمُّ التنافسُ فـي عمـل الصالحـات كأننا في سـباق دون أن نعبأ كثيرًا بـأن تكون نتيجة العمل الشاق وثمرته موجهة للإنسانية كافّة أو لشعب معين منها.

(٣٣) فتح الله كُولَن: التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح-٢، «الحكمة»، نشر دار النيل التركية، إسطنبول ٢٠١٢م، (لما يترجم عن التركية)، ص ٣٤.

وفـي توظيـف المعـارف النافعـة والأعمـال الصالحة معًا فـي الحياة العملية يقول كولن: "إن أحدهما نتيجة إرادية للآخر، والآخر بداية قسـم مـن المواهـب الجديـدة ومقدمة لهـا"، فعلينـا «الحفاظ علـى الاعتدال، أي إعطـاء كل شـيء حقـه، دون الولـوج في الإفـراط والتفريـط، وإدراك مسؤولياتنا ضمن إطار التكاليف الشرعية وإيفاء حقها»(٣٤).

هكـذا يبـدو فهم كولـن العمليّ للتصـوّف والشـريعة، وأرى أنه بهذا يوفر الإطار لنظم اجتماعية اقتصادية قانونية جيدة بدلًا من تقديم الشريعة الإسـلامية بديلًا لنظام قانونيّ ممنهج، فالشـريعة الإسلامية المستمدة من الكتـاب والسـنة يمكن أن تمنحنا نظامًـا قانونيًّا يمثل برنامج عمل للحكم السـليم، أي يمكـن أن تكون أساسًـا لا بديلًا للنظم القضائيـة في القانون المدنـي أو القانـون العـامّ، فـأيّ نظام قانونـي وقضائي فعـال لا بد له من التزام أخلاقي وثيق بين الناس وعقلية امتثال متغلغلة في الأذهان، وبدونها تصبح القواعد والتنظيمات الإلزامية مجرد «حبر على ورق».

وأسـاء كثيـرون في العالـم بل كثير مـن علماء المسـلمين فهم طبيعة الشـريعة الإسـلامية العابـرة للحـدود القومية، فاعتقـدوا أنّ نظـام الدول القوميّـة يتعـارض مـع المثل الإسـلامية العالميّة، ولا شـرعية لوجوده في ظل الشـريعة، ولا يدرك كثير من هؤلاء أن الدول القومية الحديثة صارت واقعًا في السـاحة العالمية وتركة للاحتلال لا نسـتطيـع تجاهلها بسـهولة، فيتعيـن علينـا في هذا الواقـع أن نجعل الـدول القومية أكثـر توجهًا نحو الرفاهية لتستفيد منها الأغلبية.

(٣٤) فتح الله كُولَن: المصدر السابق، «الحكمة»، نشر دار النيل التركية، إسطنبول ٢٠١٢م، (لما يترجم عن التركية)، ص ٣٢-٣٤.

ولا يمكن للمسلمين أن يتجاهلوا هكذا واقعَ الحياة الدولية والنظام الاقتصادي العالمي الذي يملي ويحدِّد كثيرًا من الآليات المحركة للحياة المحلية ضمن نظام الدولة القومية، صحيح أنه من الصعب السير على المثل النبيلة للقيم الإسلامية وأسلوب الحكم الإسلامي في ظل نظام الدولة القومية إلا أن تجاهل واقع هذا النظام سيمثل سلوكًا مناوئًا للدول المجاورة بل قد يعود بالضرر على مُثُل الإسلام، ويفرز مشاعر قومية متطرفة، بل قد يضر بالمصالح الاقتصادية لأي شعب؛ ومع هذا تلعب بعض القوى العظمى بورقة الانتماء القومي في مجال السياسة الدولية، ولا تحترم سيادة الآخرين؛ ولدى بعض علماء المسلمين خلط شديد في مفهومي سلطان الله ﷻ على الكون بأكمله وسلطان الدولة، إذ يرون أن الدولة القومية الإسلامية يمكن أن يكون لديها دستور إسلامي مثالي(٣٥)، لكن مصادر الشريعة الإسلامية تختلف جذريًّا عن أي نظام قانوني آخر:

"قد تقول الدولة أو لا تقول إن قانونها ديني أو يتفق مع شريعة دينية معينة، لكن قانون الدولة له مدى جغرافيّ محدود عادةً، والكثافة السكانية التابعة لشريعة دينية معينة حريّ بها أن تكون عابرة للقوميات إلى حدٍّ كبير، فمن الناحية التحليلية يمثل التمييز بين القانون الوضعي والعرفي إشكالية، لا سيما عندما ننظر إلى الأساس النهائي لقانون الدولة"(٣٦).

وثمة أسباب كثيرة معروفة جعلت العلماء والفقهاء يختلفون مع النظم القانونية للدولة القومية، لكن الواقعية في خطاب كولن ذات مكانة

(35) See A.B.M. Mahbubul Islam, Islamic Constitution: Qur'anic & Sunnatic Perspective, Dhaka: Professors Publication.

(36) Gordon R. Woodman, «Globalization, Social and Religious Diversity, Legal Pluralism: Can State Law Survive?,» Law Journal, issue 15:2, 2007, pp. 159, 161.

مهمة، نظرًا لأن الدول القومية حقيقة سياسـية واقتصادية في عصرنا، وأن المشـكلات الكبـرى في كثيـر من الـدول القومية يمكـن علاجها بصورة أفضـل إذا اتفقنا أن الإنسـان كائن روحي في المقـام الأول، وأن المدخل الروحي في علاج المشـكلات القائمة يجعل حياة كل إنسـان أكثر يسـرًا وسـعادة؛ ولبلوغ هذا الهدف يمكن للمبادئ العالمية للشـريعة الإسـلامية أن تسـاعد المسـلمين في العثـور على منهج أفضل وأكثـر واقعية لتحقيق الحكم السليم وسيادة القانون.

يبدو تاريخيًّا أنَّ بداية تأسـيس الصحابة للدولة كان في جزيرة العرب غيـرَ أنّ هـذه مرحلة انتقاليّة سـبقت تحويل الدولة مـن جزيرة العرب إلى كِيانٍ سياسـيّ دوليّ كان معروفًا في السـابق للعرب ولبقية شعوب العالم، إذ كانت فكرة الإمبراطورية قائمة حقًّا، أما مفهوم عولمة سلطة الدولة فلم يكن قد ولد بعد، وكان على المسلمين العرب وغيرهم أن يكُونوا كالرأس من الجسد في تمثيل مُثُل الأمة التي ستؤسس دولة أعلى من القومية تمثِّل دار الإسلام للمسلمين جميعًا.

من الممكن أن تجد الدول القومية المتجاورة نفسها في حالة حرب، لكنّ الدول الإسـلامية المتجاورة يفترض أن تعيش كالأشقاء على أساس مبـادئ القرآن والسـنة، ولكن لم يكـن الأمر دائمًا كذلـك عمليًّا، فالدول الإسـلامية حـارب بعضهـا بعضًـا للغلبة والسـيطرة القوميـة أو لخلافات إقليمية؛ ولا تعني حدود الدولة عند الصوفيّة شيئًا للفرد المسلم ولا لنجاته الروحية في الدنيا والآخرة، فالمسـلم الحق هو من يؤمن بضرورة التعاون بيـن الـدول الصديقـة منها والمعاديـة؛ فالصوفي لا يعادي أحدًا لأسـباب ماديـة أو شـخصية بحتة، ولا ينبغي للخلاف أو العـداوة أن تؤدي إلى أيِّ

صـراع عنيفٍ مـع الآخرين، فينبغي أن تتوقف أشـكال الحرب كلها فورًا، لكن يصعب جدًّا شرح هذا الموقف الصوفي أو الدعوة إليه في عالم تبني فيـه معظـم القوى الكبرى نظامهـا واقتصادها على أسـاس الحرب؛ يقول كولن: ''ثم كلما تعمق بتوحيد الفكر وتكثيف الهمة، أدرك أن الموجودات كلهـا مـا هـي إلّا تجلٍّ من ضيـاء وجوده سـبحانه، وإذا به يصـل إلى أفق متبايـن لتقييم جميع الكائنات وما فيهـا من الأحداث بملاحظة توحيدية خالصـة، فيدرك كل شـيء بخواصه المسـتورة ويحظـى بتحليله''(٣٧)؛ فما أشـدّ حاجتنـا إلى هـؤلاء الصوفية الأقرب إلى مسـلك الأولياء في خضم الخلافات الإقليمية والنزاعات العرقية، فمثلًا تاريخيًّا بعد سقوط الخلافة العباسـية سـنة ١٢٥٨م اقتتل الجيشـان الفارسـي والتركي للسـيطرة على بغداد، فقُضي على التآلف والانسـجام بين الشعوب الإسلامية، واستثمارًا للدين في مطامع سياسية تحولت فارس عن المذهب السني إلى المذهب الشـيعي، وخـرج المسـلمون هناك عن المسـار العام للحـركات الصوفية الإسـلامية، ومـع هذا ظلت الصوفية حركة حية في رقعة كبيرة من العالم الإسـلامي، وخاصة في شـبه القارة الهندية وجنوب شرق آسيا والمغرب العربـي «شـمال غرب إفريقيا»، وسـادت طرق صوفية حديثـة أو محافظة الحيـاةَ الثقافية الاجتماعية في العالم الإسـلامي قبـل الاحتلال الأوروبي رغم تراجـع الحركة الصوفية في مناطق كثيرة من العالم.

وفـي عهـد العثمانيين لم يواجه الصوفيّة أية مشـكلة في التواصل عبر الحـدود، وتَعَرّف صوفيـة الأتراك على الطرق كلها فـي البلدان الأخرى؛ وفـي ظـل الحكم الإسـلامي قد يبـدو أن المسـلمين عامّة ليسـوا بحاجة

(٣٧) فتح الله كُولَن: التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح-٢، «الفناء في الله»، نشر دار النيل التركية، إسطنبول ٢٠١٢م، (لما يترجم عن التركية)، ص ١٥١.

للحركات الصوفية، لكن كولن يخالف هذا، ويرى حاجة مستمرة للمربين مـن الصوفية للحفاظ على توعية المسـلمين بحقائق أكثر عمقًا في القرآن والسـنة: «ولقد راجع الفقهاء والمحدّثون والمفسـرون القرآن والسنة في ضوء أصول وقواعد تسـتند من حيث الأسـاس إلى عهد الرسـالة الزاهر، وصنّفـوا في ذلك آثـارًا جليلة كلٌّ في ميدانه، كمـا أن الصوفيين بمرجعية القرآن والسنة أيضًا، أظهروا اجتهاداتهم في مسائل استخرجوها من هذين المصدريـن الأساسـين مما يتعلق بالرياضة والمجاهـدة والمراقبة والحال والمقام»(٣٨).

ومنذ الثورة الصناعية أصيبت بلدان إسـلامية كثيرة بعقدة نقص لعدم اسـتخدامها المكتشـفات والابتـكارات العلمية في بنـاء الدولة وغيره من الأهداف، فوقعت مناطق إسـلامية كثيرة في العالم تحت الهيمنة المباشرة المطلقة لقوى الاحتلال الأوروبيّ، وكان المسلمون يومئذ أقل قدرة على الابتـكار في نظم الإنتاج والتوزيـع للتنافس مـع نظرائهم الغربيين، ويؤمن كثير من العلمانيين المتشددين في العالم الإسلامي كنظرائهم الغربيين بأن التصوف وإرشادات القرآن حول الرذيلة والفضيلة عائق رئيس يحول دون التقدُّم والرخاء الاقتصادي والعلميّ للشعوب الإسلامية.

ولطالمـا كرر كولن بأنَّ المعرفـة الجيدة في فروع العلم والتكنولوجيا كافة أداةٌ فعالة جدًّا في فهم القرآن، وهذه ليسـت بدعة محرمة، فهو يؤكِّد أنه لا نجاح في هذه الحياة ولا في الحياة الأخرى بدون نظرة متوازنة إلى الحياة والعلم والواجبات الدينية ومسـؤولياتنا تجاه من حولنا؛ وربما يرى متشـددون في كل جماعة دينية أن الصوفية مرفوضة لانفتاحها وأسـلوبها

(٣٨) فتح الله كولن: التلال الزمردية: نحو حياة القلب والروح-١، ص ١٩-٢٠.

المتسامح مع الناس جميعًا، ويقول آخرون: إن الصوفية يولون اهتمامًا لا داعي له لأسرار في الحياة الروحية لا تفهم بوضوح؛ أما كولن فيرى أن الطريق الروحي له خصائص وسمات دقيقة جدًّا تميزه، وأن على الناس المشاركة الفعالة الدؤوبة في هذا الطريق للسير أو الرقيّ الروحي، فهو لا حدود له، وله مراحل ودرجات بعدد المؤمنين بداية من النبي الكريم سيد الخلق حتى أقل المؤمنين شأنًا.

"والتصوف طريق مفتوح إلى المعرفة الربانية وعمل دائب جاد، لا محل فيه للهزل واللامبالاة واللهو والعبث، وكيف يكون ذلك، فأساسه يستند إلى تشرب شَهْد المعرفة الإلهية وانتقاشها في القلب، كالنحل غاديًا ورائحًا بين الخلية والزهرة.. وتطهير القلب من الأغيار.. وفطام النفس عن ميولها الجبلّية.. وإخماد الصفات البشرية بالانغلاق التام تجاه الرغبات البدنية والجسمانية.. والبقاء دومًا متفتحًا أمام الروحانيات وإمضاء عمره على خطى سيد الأنام ﷺ.. والتخلي عن مراداته لأجل مرادات الحق سبحانه.. واستشعاره بحضوره تعالى لمعرفته أن الانتساب إلى الحق سبحانه أعظم مرتبة"[٣٩].

إن بلوغ أي نوع من الكمال في الدين والتزكية الروحية لا يتحقق في يوم وليلة، بل هو جهاد متواصل مدى الحياة من أجل الإثراء الكامل للشخصية الإنسانية بكل طريقة ممكنة على المستويين الفردي والجماعي، وشأن التضحية في سبيل الله أن تجلب منافع ظاهرة وباطنة للفدائيّ ومن يحيط به.

(٣٩) فتح الله كولن: المصدر السابق، ص ١٤.

الخضوع لله وسمو الروح الإنسانية:

الخضـوع لأوامـر الله لدى كثيرين نوع من العبودية الروحية أو العقلية تسلب الحرية من حياة الفرد ليس أكثر، ولا يدركون أن المرء يتذوق فعلًا متعة النجاة العظيمة بعبوديته لله، فيتحرر بذلك من عبودية شـهوات المتع الدنيوية التي لا تنتهي، وهؤلاء يرون أن السـلطة التنظيمية للقانون تسـلب الحرية الإنسانية، لكنها في الواقع تكفل للناس جميعًا حق التمتع بالحرية بلا ضِرار.

يحـاول الصوفـي أن يستسـلم «لمشـيئة الله» دون نظـر إلـى الكسـب والخسـارة، فإذا بأشـكال شتى من المنافـع تأتيه من مصادر إلهية، فالقناعة الصوفية تقول: لكلِّ البشر والمخلوقات مَدَدٌ من نِعَم إلهية يستحيل بدونها بقاؤهم في الأرض، فمع فضل الله على البشـر أيًّا كان دينهم بهذه النعمة الكونيـة ثَمّـة مبـدأ قرآني عام هـو مبدأ الثـواب والعقاب بما كسـبت يدا الإنسان، فلا وجود في الإسلام للعقاب الجماعي ألبتة، فلا يثاب أحد أو يعاقـب إلا بخير أو شـرّ نجم عن أفعاله هو، والآيـات التالية تصرّح بتلك القاعـدة الكونية قاعدة الثواب والعقاب للبشـر جميعًا: ﴿**وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾ (سُورَةُ الأَنْعَامِ: ٦/١٦٤)[٤٠]، ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى**﴾ (سُورَةُ النَّجْمِ: ٥٣/٣٩).

هنا يمكن للمرء أن يلاحظ اختلافًا لافتًا للنظر بين المفهوم الإسلامي والعقائد والمذاهب القانونية الأخرى في أمر الثواب والعقاب، فالإسـلام لا يحصر الثواب والعقاب بالآخرة وفقًا لأعمال المرء في حياته، بل الأمر

(٤٠) جاء ذكر هذا القانون الأخلاقي الكوني خمس مرات في القرآن الكريم. انظر أيضا الآيات: سورة الحجر: ١٧/١٥، وسورة الكهف: ٣٥/١٨، وسورة الأعراف: ٣٩/٧، وسورة ص: ٥٣/٣٨.

أعمّ من ذلك، يشمل الطمأنينة والاضطراب في الروح الإنسانية والسلامة العقلية والجسـدية لأي فرد، والمشـكلة عند كثيرين أنهم يجزئون الجزاء كمـا لـو أن الله لن يجازي أو يعاقب أحدًا في الدنيا، وأن ثوابه وعقابه بعد الموت فحسب.

هذا تصور خاطئ لمفهوم «الخضوع لله» وآثاره في الإسلام، فالمسلم وغيـره يمكـن أن يحصل علـى المنفعة أو الثواب فـي الدنيا أو الآخرة إذا أطـاع سـنن الله فـي الأرض، ولا يمكـن للمـرء في الآخـرة أن يهرب من خـزي وذلّ يلحقـه بمعصيتـه لأوامـر الله، وهـذا يعنـي أن علـى المرء أن يخلص العمل طول حياته لتطهير سـريرته وأفعاله، وما أكثر النعم الإلهية فـي الأرض التـي أراد الله أن يتمتـع بهـا الخلق أيًّا كان عرقهم أو دينهم أو جنسـهم، لكن سوء اسـتخدام أي نعمة إلهية له عواقب وخيمة كثيرة تبدو كأنها عقوبات إلهية.

وللزمن دور بالـغ الأهمية في هذا، فما نراه أو ندركه أمام أعيننا ليس هـو نهايـة المطاف، وما يتكشـف من حـوادث له أهمية أكثر مـن المعاناة أو المتعـة الحاضـرة التـي يمر بها المـرء، وهذه رياضة روحيـة في منتهى التعقيـد، فحينمـا يقترب العبد من ربِّه جل وعـلا لا يمكنه أن يتعالى على الآخرين لأنهم ليسـوا كذلك؛ وقد يُذهل أهل النعمة ممن سـلكوا مسلك التقى والورع من مكاشـفة الأسـرار والخفايا التي تحيط بنا يوميًّا، ويشرح كولـن هـذا الموقف المركب في ضوء مصطلحات التصوف عن الدَّهشـة والهيمان[٤١]، ويخالف بدقّة عالية مَن يتشـدد ويتزمت ويعتقد أن الإسـلام

(٤١) فتح الله كُولَن: التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح-٢، «الدهشة والهيمان»، نشر دار النيل التركية، إسطنبول ٢٠١٢م، (لما يترجم عن التركية)، ص ٤٧.

ليس به شيء من الدهشة بعطايا ربانية يكاد الإنسان يفقد عندها السيطرة على نفسه برهة من الزمن:

"وقد عُرّفت «الدهشة»، أنها بقاء الإنسان مبهوتًا مأخوذًا أمام أية حادثة كانت، عاجزًا عن استيعابها بعلمه وإدراكه، نافدًا صبره.

والهيمان لدى أرباب التصوف: هو ذهول السالك العاشق عن نفسه وفقده سيطرته على إرادته بالتجلي الفجائي والمواهب الإلهية التي تحيط بقلبه في أثناء الطريق بسبب استغراقه في الإعجاب والاستحسان والأذواق الروحانية، ...وقد حاول بعضهم ربط الهيمان بالآية الكريمة ﴿**وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا**﴾ (سورة الأعراف: ١٤٣/٧) إلّا أنه واضح جدًّا أن مقام الوحي -وهو مقام التلاقي- لا يتناسب مع الذهول والهيمان. وأرى أنه من الأفضل توضيح حادثة الطور من هذه الوجهة أنها ظهور التجلي الجلالي على طول موجة الحقيقة المجردة ماسحًا كل صورة ورسم، مع شعور يخص شخص سيدنا موسى عليه السلام بحيرة ودهشة واعية"[٤٢].

حسن السريرة والنتائج العظيمة

مع تراجع قوة المسلمين العسكرية في أنحاء العالم كافة تحت وطأة الاحتلال وما بعده أصيبت النخب الحاكمة المسلمة بالتخبط والارتباك حتى إنها وجّهت قوتها المسلحة إلى جيرانها بل إلى شعبها نفسه؛ فسقط كثير من علمائنا في عقلنة بحتة للآيات القرآنية مستندين إلى المعاني الحرفية دون معرفة أو فهم الأسرار والخفايا الإلهية التي تحيط بنا في كل لحظة في هذه الحياة، وإنّ هزائم الجيوش الإسلامية أمام العدو خلال

(٤٢) فتح الله كُولَن: المصدر السابق، «الدهشة والهيمان»، نشر دار النيل التركية، إسطنبول ٢٠١٢م، (لما يترجم عن التركية)، ص ٤٧-٤٩.

القرنين الماضيين كانت تستحقها القوى القومية أو الجيوش الرسمية المسلمة، ولا علاقة لهزيمتها بنهضة الحضارة الإسلامية أو تراجعها، والمشكل أنَّ هذه النقطة الجوهريّة لم تتضح في أذهان المسلمين؛ فعوامل المجد الرئيسة في إعلاء راية الحضارة الإسلامية تمثلت في أشخاص نذروا أنفسهم لتحقيق نظام عادل في جوانب الحياة الإنسانية كلها لا سيما النظام القضائي، وهؤلاء عند كولن هم "أطباء الروح والمعنى المنفتحة قلوبهم على ساحات العلم والذكاء والعرفان والواردات والفيوضات كلها، من الفيزياء إلى الميتافيزيقا، ومن الرياضيات إلى الأخلاق، ومن الفنون الجميلة إلى التصوف، ومن الكيمياء إلى الروحانية، ومن الفضائيات إلى الأنفسية، ومن الحقوق إلى الفقه، ومن السياسة إلى السير والسلوك"(٤٣)؛ إذًا مفهوم التصوف عند كولن واسعٌ جدًّا، فالسريرة من هذه الزاوية مفتاح لتحقيق أعظم النتائج في الدارين.

وما يحدث اليوم من توجيهِ جُلِّ الاهتمام إلى منفعة شريحة ضئيلة في بلد أو منطقة سينتهي بإفلاس الدولة أو البلاد بأكملها، وكم من أمم وجماعات إثنية نجحت من قبل بإمكانيات يسيرة في تقديم الكثير لتعزيز دين معين أو حضارة معينة بينما نجد أعمال الدول الحديثة المدمرة تفزع وتروع جميع المحبين للسلام.

> "الناس اليوم أكثر ثراء مقارنة بالقرون السابقة، ويتمتعون بقدر أكبر من وسائل الراحة والرفاهية، إلا أنهم سقطوا في هُوّة الجشع والافتتان والإدمان والاحتياج والوهم أكثر بكثير من أي وقت مضى، وهذه حقيقة لا ريب فيها. وكلما أشبعوا شهواتهم

(٤٣) فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص ٢٧؛ ولمزيد من المعلومات انظروا إلى مقالة «ورثة الأرض» في نفس الكتاب، ص ١٣-١٧.

الحيوانيـة زاد جنونهـم بإشـباعها أكثـر؛ فيظمـؤون كلما شـربوا، ويزدادون شَـرَهًا كلما أكلوا، ويُسـلمون الروحَ للشيطان في مقابل أخس المصالح والنزوات، ويدخلون في تكهنات لا يتخيلها عقل طمعًا في مزيد من الكسب المادي؛ فيبتعدون شيئًا فشيئًا عن القيم الإنسانية الحقيقية"[٤٤].

ولكي يصبح المرء إنسانًا حقيقيًّا عليه أن يتحلَّى بصفاتٍ حميدةٍ إلهيَّة المصدر في سعي دؤوبٍ لإسعاد الآخرين، يمضي فيه حتى منتهاه.

وتعـد قضايا العدالـة ركنًا لكلِّ الأطراف التي تتلاقـى وتتجاور قصدًا أو اتفاقًا، ومفهوم العدالة في الإسلام ليس صلبًا جامدًا ولا مطاطًا يُستغل فـي المفاسـد أو الأغـراض المناقضـة لمصالـح النـاس؛ وتسـعى بعض المؤسسـات الإسـلامية مـن قناعتها بأن الإسـلام ديـن العدالـة والتحرير للبشـر كافّة إلى تطبيق القضاء الإسـلامي وتطهير النفوس بتحقيق العدالة الجنائية في المجتمـع بطوائفه كلها، لكن الله بين لنا أنه لا إكراه في الدين، ومنظومـة العدالة الجنائية جزء يسـير جدًّا قد يصـل إلى ١٪ من المنظومة العامة للمجتمـع والدولة؛ فمفهوم الخضوع لمشـيئة الله واسـع جدًّا، ولا بد من فهمه بأبعاده كلها حسب الواقـع العملي للأفراد والدول المعنية.

"وأي منظومـة فرعية في أي مجتمـع إسـلامي هدفها وضـع إطـار إسـلامي للحياة، فـإذا كانت التنميـة تعني التغييـر في اتجاه مرغـوب فهـدف التنمية في الإسـلام هـو الانتقال مـن الكفر إلى الإسـلام؛ وهدفها في السياسـة والاقتصاد والمجتمـع بلوغ المثل

(٤٤) فتح الله كُولَن: سلسلة العصر والجيل-٦، أفكار في طور الاخضرار، نشر دار النيل التركية، إسطنبول ٢٠١٠م، (لما يترجم عن التركية)، ص ١٥٣.

الإسـلامية العليا، وفي الإدارة الإسـلامية تعظيم القيم الإسـلامية الإنسانية ومن أهمِّها العدل والإحسان"(٤٥).

إن قدرات الفرد واكتشـاف الكون والمجرات دائمة التمدد والاتسـاع محـدودةٌ جـدًّا، لكـن إمكانياتنا نحن البشـر كثيـرًا ما تبدو غيـر محدودة، ومـع ذلـك فنحـن -المجموعـة التي تقوم بعمـل منتج- لا بـد أن نرتب أنشـطتنا حسـب الأولوية، وهذا فيه صلاح لنا ورفاهية لغيرنا وللمجتمع أجمـع؛ لكننـا نحن -المجموعة الفرعية من العاملين أو الهيئات المهنية- لا نسـتطيع أن ندخـل فـي كل مجال من مجالات التخصـص في الوقت نفسه، فهذه ليست مسألة حرية أو كرامة إنسانية بل قضية على البشر جميعًا أن يتعاملـوا معها لتحقيق أفضل فائـدة بما لديهم من وقت وطاقة وموهبة خـلال فتـرة محـدودة متاحة لهم منذ بلوغهم سـن الرشـد وقدرتهم على الإبداع في هذه الحياة.

ومن الخطأ الاعتقاد بأن التسليم بمشيئة الله يجعل الإنسان عبدًا لنخبة دينية أو لحكومة لاهوتية، فتشـريـع الإسـلام في الحلال والحرام منظومة لتوسيـع نطاق الحرية الإنسانية دون الإضرار بالآخرين، فهي منظومة تمنـع الفوضى على المستوى الحكومي والفردي، غير أن كثيرًا من علمائنا اليوم لم يتمكنوا من المقارنة الدقيقة بين السـلوك الإنساني المتسيب والأعمال الفوضوية التي تمارسها نخبة عسكرية حاكمة؛ واستخف كثير منهم بأهمية العقل العلامة المميزة للإنسان، وخدعوا أنفسهم بزعمهم أن الوصول إلى الله بهدي النبوة ممكن دون استعمال الموهبة والحكمة التي منحها الناس،

(45) *Abdun Noor, Social Justice and Human Development. Dhaka: Adorn Publication, 2007, p. 95.*

وهنا يمتاز تصور كولن للتصوف في استكشـاف مختلف السبل والوسائل للوصول إلى الله:

"اليقظـة تعني لغـة: الانتباه والإفاقة، ولـدى أرباب التصوف تعنـي: التيقظ والانتباه والدقة إزاء أوامـر الحق تعالى ونواهيه من حيـث المبـدأ؛ ومن حيث المنتهى -للمحظـيّ بألطاف إلهية- هي الحفاظ على الاسـتقامة الفكرية والروحيـة تجاه واردات مقامات ومراتب مختلفة من دون الوقوع في التباسات، والبقاء على بصيرة دائما"(٤٦).

ومن الهراء في نظر كولن أن يُنظر إلى الصوفية بأنهم جبريون كسـالى هَمّهـم مجالـس الذكـر لا غيـر، فـلا مـكان للجبرية فـي الإسـلام عنده؛ فأصحـاب هـذه الفكرة (الجبرية) يرون أنفسـهم كالجمـاد؛ لكن كولن لا يدافع عن الصوفية جميعهم، بل يخصّ بالمدح من يحاولون ما استطاعوا اتباع هدي الكتاب والسنة، فالقرآن لطالما أخبرنا وأوصانا بطرق شتى أنه لا أمـان ولا نجـاح لأحد في رحلته إلى الله بـدون اليقظة التامة. نعم، نقد الذات ومحاسـبة الإنسـان نفســه قد يورث بعض القلق المؤقت والحزن أيضًا، لكن كولن يرى المحاسبة وكأنها قنديل في عالم المؤمن الداخلي، وناصـح أميـن في وجدانه(٤٧)، وحفظ ذلك النور يقتضي أن يكون المؤمن يقظًا دائمًا في وجه قوى الشـيطان أو الأشـرار ممن لديهم اسـتعداد دائم لفتق الجراح في قلوب الآخرين وعقولهم، وفي مواجهة المصالح الوطنية والدولية التي تقلقنا جميعًا، يقول كولن عن نقد الذات ومحاسبة النفس:

(٤٦) فتح الله كُولَن: التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح-٢، «اليقظة»، نشر دار النيل التركية، إسطنبول ٢٠١٢م، (لما يترجم عن التركية)، ص ٢٣٠.

(٤٧) فتح الله كولن: التلال الزمردية: نحو حياة القلب والروح-١، ص ٣٩.

"يمكن أن نعرّف المحاسبة أيضًا بأنها اكتشاف الإنسان بنفسه، جوانبَه اللدنّية وعمقَه الداخلي وسعة معناه وروحه، ومعرفته لهذه الجوانب، ومن ثم القيام بتحليلها وإظهار مكنونها، فهي بهذا المعنى جهدٌ روحي، ومخاض فكري في سبيل استخراج قيَم الإنسان الحقيقية، وإنماءٌ للمشاعر التي هي أسس هذه القيم والحفاظ عليها، ولا يمكن أن يحافظ الإنسان على استقامة الوجدان إلّا بمثل هذا الجهد والفكر، اللذين يمكّنانه من التمييز بين الخير والشر، والحسن والقبيح، والنافع والضار، مما يتعلق بأمسه ويومه وغده"(٤٨).

ويحاول كثير من العلمانيين الغربيين وغير المؤمنين تحاشي الطرق الفاضلة التي تسير فيها الصوفية أو أي طريقة لحياة إسلامية معقولة كذلك؛ لأنهم لن يتمكنوا من الاستمتاع بهذه الحياة الدنيا كما يشتهون، ولكن النظرة النهائية تَعُدّ طريقة الحياة المنضبطة المتوازنة أفضل من المبتذلة المتسيبة؛ وانطلاقًا من التوحيد الخالص تغدو المعاناة أو المشقة في الحياة مفيدة للمؤمن القوي في سعيه نحو درجة أعلى من الكمال في العقيدة والعمل الصالح، هكذا يرى كولن:

"الحزن حِمىً، يحُول دون تشتت جهاز قلب الإنسان وعالم مشاعره في وديان الغفلة، وسورٌ يحفظ الارتباط الوثيق بالحق تعالى، وبهذا يكون الحزن طريقًا لا مناص منه إلى التركيز، بحيث إن السالك الحزين، بفضل التوجّه الاضطراري هذا، يمكنه أن ينال من المراتب في الحياة القلبية والروحية وفي أقصر وقت، ما يعجز عنه الآخرون في «خلوة الأربعين» مهما تكررت"(٤٩).

(٤٨) فتح الله كولن: المصدر السابق، ص ٣٨-٣٩.

(٤٩) فتح الله كولن: المصدر السابق، ص ٧٠.

إذًا ليس من المهم والمتاح للمسلمين جميعًا في العالم أجمع بلوغ مستوى مشابه من الإيمان الراسخ بالتوحيد أو طرق طاعة الله وتلقي نعمه المنتشرة في عالمي الغيب والشهادة، بل أهم شيء في الحياة عدم التسبب في إضرار الآخرين حتى المخلوقات البعيدة عنّا، فعلينا فعل أقصى ما يمكن من الخيرات لأنفسنا وللآخرين من حولِنا أو الجُنُبِ عنَّا.

الصوفية بين البسط والاطمئنان

من أشهر شبهات الغرب أن المسلمين عندهم خوف شديد من الله، أمّا النصارى فالرب عندهم هو رب المحبة. نعم، الإله لا يختلف باختلاف الشرائع والناس، فالله واحد أحد منزه عن الجنس والعدد، لكن أتباع الشرائع كثيرًا ما يحاولون تصوير إلههم بأنه يختلف عن إله الآخرين ليثبتوا علو إلههم؛ أما المسلمون بوصفهم مؤمنين بالحساب فيدعون الله بقلوب ملؤها الخوف والشوق أيضًا، ويتتبعون الهدي الإلهي، ويتوكلون على الله، فيشعرون بانبساط القلب النابع من الرجاء، ويعلمون أنهم إذا اتبعوا الهدي الإلهي فلا خوف عليهم في الآخرة إن شاء الله تعالى، فيبذلون أقصى ما لديهم ليراقبوا الله في حياتهم كأنهم يرونه «فإن لم نكن نراه فإنه يرانا».

إن الله هو الحق المطلق لا يحتاج إلى ما يثبت علو مكانته، فكم من الأدلة على قدرته المطلقة وإحاطته بكل الأشياء وما يدور من حولنا، وعالم المخلوقات ليس ما نراه فحسب، فقد عرفنا الإسلام بقوى خفية كثيرة في الكون وما حوله وفي المجموعات الشمسية، ويؤكد القرآن كثيرًا أن كل ما في الأرض والسماء خلق من أجلنا، ويخص الصالحين والصالحات بأنهم لا يمسهم من خلقه سوء ولا ضرر.

ولم يستطع بداية كثير من قراء القرآن أن يصدقوا أن للبشر قدرة على تكثير القوى العديدة من حولهم، واستغلالها فيما ينفعهم وفي صنع كثير من وسائل الفناء، فكل شيء يمكن أن يتكاثر بالتعاون بين القوى أو بدونه بأن يتكاثر عن طريق إنتاجه هو، والباعث لكل إنسان في سعيه إلى نشر ذريته أو إلى القضاء على أعدائه في الأرض هو الرغبة في ضمان الحياة أو السعادة الأبدية، لكن القرآن ينبهنا بأن هذا ليس سبيل السعادة والعظمة، فلا مسوغ لاضطهاد أي إنسان في أي مكان جريًا وراء الأوهام: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللّٰهَ يَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللّٰهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ (سُورَةُ الفَتْحِ: ٤٨/١٠)، ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللّٰهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾ (سُورَةُ الفَتْحِ: ٤٨/١٤).

فنعمة الله ورحمته عامّتان، ولكن هذا لا يعني أن الله لن يعاقب من يحيك المكايد، ويرتكب الشر ضد أبرياء أو أشياء هي مظهر للنعم الإلهية في الأرض. نعم، يعجب كثيرون قائلين: كيف يمكن للإله الرحيم أن يقسو بعقاب من اكتسب إثمًا، فهل هذه مفارقة إذ قضى الله بالنقص في البشر وقيد حريتهم في إدراك جوهر الوجود الإنساني وعلاقته بالله وبالكون؟!

إن التفكير البشري الساذج قاصر في كثير من الجوانب؛ وهذا يؤدي إلى كثير من الفهم الخاطئ حتى في القضايا المادية في الحياة، فما بالك بالعوالم الروحية الأكثر تعقيدًا في فهم واتباع التوجيهات الخفية التي ينطوي عليها كلام الله؟ لقد فوض الله كثيرًا من الطاقات والقدرات لمنظومة القوى الطبيعية وللجنس البشري عامّة وللأمم والأفراد خاصّة، وأرشد الناسَ بالأنبياء إلى ضرورة العناية بالمهتدين ونبذ ما في غيرهم من

خصال ذميمة؛ ولتوضيح هذا أكثر للعامة يكرمنا القرآن بقصص السابقين، فمعظم الناس المؤمنين وغيرهم يعرفون أن في القرآن كثيرًا من القصص المذكورة في الكتب المقدسة الأخرى.

ليس سهلًا أن نفهم حكمة سرد القصص في الكتب المقدسة، ومن السهل التلاعب بتفسير آيات معينة في أي كتاب ديني وإساءة توظيفها لأسباب أو مصالح شخصية، دع عنك بعض التناقضات الواضحة، فكثيرًا ما نجد عبارات وأحكامًا معقدة ومركبة في تفاسير الكتب المقدسة، وهذا مردّه قصور في طريقة التفكير أو التفسير، وليست لدينا طريقة تجريبية تستطيع فهم ما يقوله الله في تلك الكتب بدقّة، كما أن الأفكار المسبقة لشخص أو جماعة قد تؤدّي إلى تأويلات مختلفة فيما يستنبط من عبارة النص أو إشارته في الكتب المقدسة؛ وفي الأمثلة التي يقدمها رسول الله ﷺ لتأويل الآيات ما يزيل تلك المعضلات، وإذا بلغ الناس الغاية في المعرفة والإخلاص والدّقة عند البحث عن أسرار المعاني العميقة لرسائل الكتاب والسنة فقد ينعمون بمعرفة خاصة ونمط حياة أعلى وأسمى، ولكن ضغوط الوضع السياسي والاقتصادي غيَّبت حتى عن العلماء الرسائل الأساسية الكليّة للقرآن.

ويرى كولن أن التفكير الإنساني السطحي قد ينتج حيرة وجدلًا في الرسالة القرآنية. نعم، قد يجد قارئ القرآن مفردات لغوية في القرآن ظاهرها التناقض غير أن الدراسة الدقيقة تكشف أنها دلالات على أن العواقب تختلف باختلاف نوعية الأفعال والمواقف، ولا يمكن قصر جوهر الرسالات على تلك التعبيرات، فالمبدأ الجوهري الذي نعتمده نحن المسلمين المخلصين للصمود أمام مكر الأشرار المعروفين هو هو،

أمـا غيـر المعروفيـن فقـد ذكر الله مـرارًا أن من جنود ربك مـن يقينا ممن يمكرون السيئات لمحو الإنسـانية والألفة بين الجماعـات والمجتمعات المدنيـة، ويشـير القـرآن لتلـك النقـاط في حـوادث وقصـص وردت في الكتب المقدسـة الأخرى أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِـنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُـمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَـكُورٍ ۞ وَإِذْ قَـالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُـرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُـمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُـومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْـتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ۞ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ: ١٤/٥-٧).

كثير من علمائنا بحاجة إلى تدريب جيد يفي بالتعامل مع الازدواجيات الأيديولوجيـة التـي تتـراءى لأول وهلة في مواضـع مـن القرآن وفي هذه الحيـاة؛ فبعـض الكُتّاب ذوي الخلفيـات الدينية لا يفهـم المعنى الأعمق لعدالة الله بمآلاتها الكاشـفة عن كثير من النعم والمظاهر القاسية لمنظومة العدالـة الطبيعيـة؛ فاجتهد كولن وأبحـر ليفهم ويُفهِـم محبّيه كيف يمكن السـير فـي أعمالهم على السـبل المباركـة التي شـرعها الله، وكيف يمكن حماية الناس من مخططات القوى الشـيطانية الشـريرة ومكايد المفسـدين المضرة بالناس وببيئتهم.

ولا يمكن لأي متكبر أو جاهل أن يسـير على طريق الحكمة والعمل هذا. نعم، الإسـلام ليس اسـمًا للمثل والمبادئ، بل هو رؤية لحياة أفضل وأطهـر مـن أجل الناس جميعًا أيًّا كان العرق أو الدين أو الجنس، فالعثور على هذا الطريق فرض عين والدعوة إليه فرض كفاية.

"إن الذين حدّدوا موقعهم أمام الله سبحانه، هم في توازن دائمي سواء في حياتهم الدينية أو في علاقاتهم ومعاملاتهم مع الناس أو في مراقباتهم النفسية الخاصة بهم".

"...وقد ربط القرآن الكريم بآياته المختلفة، كون المؤمن مؤمنًا حقًّا، بمدى تنسيقه لكلامه وسلوكه وعالمه الداخلي بل جميع أطواره وفق الصدق، ومدى نسجه لها جميعًا حول الصدق، وكذلك أكدت الآيات الكريمة أن هذا التنسيق والتنظيم بالصدق هو أساس سعادة الدنيا والآخرة[٥٠]".

وكولن على قناعة راسخة بأنه من السهل الدعوة إلى التشريع والقيم الدينية على أساس رسائل القرآن الظاهرة والباطنة، ولكن ما أصعب إدراك قيمتها أو اتباعها في سياق الواقع السياسي والضيق الاقتصادي، ففي الحديث الشريف: "**لَنْ يُدخِل أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ**، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**"[٥١]، وبرهن الإسلام بشتى الطرق على أنه لا ولاية أو قداسة تعد كفارة لذنوب الفرد أو الجماعة أو الأمة، وهذا لا يعني أنه يقلل من شأن القوى والطاقات الروحية للأتقياء الأنقياء، فحياة التقوى تختلف عن نمط حياة الفسق التي تغوي أيّما غواية وتشبع هوى أصحاب الذنوب.

وليس في جهاد محبّي كولن الفكري والروحي أية رغبة في الحكم أو السياسة في تركيا أو غيرها، لكن خُطَب كولن وكتاباته حرب فكرية مبتكرة دقيقة جدًّا ضد ألاعيب حفنة سياسية وعسكرية للاستيلاء على المال العام، وهو يفرق بين مشيئة الله المطلقة ومنظومة العدالة القائمة

(٥٠) فتح الله كولن: المصدر السابق، ص ١٣٨، ١٤٨-١٤٩.

(٥١) صحيح البخاري، المرضى، ١٩؛ صحيح مسلم، صفة القيامة، ١٧.

للقــوى الإلهيــة أو الشــيطانية فــي الأرض وفــي المجموعــات الشمســية المعروفة للعقل وغير المعروفة(٥٢).

والمؤســف أنَّ حكوماتٍ إســلاميَّة كثيرة ما زالت تتصرف بطرق غير مسؤولة ألبتة، وتسيء إدارةَ المال العامّ، فإذا بكثيرين لا يجِدُون كسبًا طيبًا أو تصيبهــم عدوى الفســاد، ولا علاقة لهذا بســوء فهم المســلمين للنظام الديمقراطي أو سيادة القانون كما يظن أكثر الغربيين، فجل الزعماء وحكام المسلمين لا يكترثون بشعوبهم مطلقًا، ومن مؤشرات وجود هذه الظاهرة الاعتقاد السائد بين النخب الحاكمة وأوساط المال والأعمال الحديثة بأن معظم الجماهير عبء اقتصادي لا لزوم له، وتحويل ثروات الشــعب إلى الغرب لحسابهم الخاص، يقول يلدريم:

"خلافًا لما في معظم أنحاء العالم تســود في الشرق الأوسط فكرة الدولة المســتأجرة لوفرة الثــروات والطاقة الطبيعية، وهي لا تعتمــد علــى رعاياها في مواردهــا الماليــة أي الضرائب، فتحصل الدولــة والنخبــة الحاكمة على مواردها من بيــع الثروات الطبيعية في الأسواق العالمية... ويؤدي عدم اعتماد الدولة على المجتمع إلى غياب المساءلة الديمقراطية أمام الشعب"(٥٣).

نعم، نظام الدولة القومية في تركيا استثناء من هذه الظاهرة، فهي تفصل تمامــا بيــن آليات الدولة والمصالح المجتمعية، فرغم كل أشــكال الإيذاء السافر والعنيف لمشاعر الجماهير الدينية استطاع المفكر «فتح الله كولن» أن يدعو شــعبه بنية حســنة وإشــارات فياضة بالمودة إلى محاولة التوحيد

(٥٢) أثبت العلم الحديث وجود مجموعات شمسية مستقلة تبعد عن المجموعة الشمسية التي نعيش فيها بمسافة تتجاوز خمسة عشر ألف سنة ضوئية.

(53) A. Kadir Yildirim, «Islam and Democracy: A Critical Perspective on a Misconstrued Relationship,» The Fountain, Issue 61, January–February, 2008, p. 15.

بيـن المجتمع والدولة بدلًا من إدخـال قضايا يغلب عليها الطابع الديني فـي السياسـة وألاعيبها، وهـذه الحكمة تفتقـر إليها الحركات الإسـلامية المعاصرة في مناطق كثيرة من العالم.

إن صلة الروح الإنسـانية بخالقها مسـألة دقيقة ورقيقة، فلولا الجمع بين الخوف من سخط الله ورجاء محبته ورحمته في القلوب لما صمدت أيـة قضيـة عظيمة في الأرض طويـلًا، ولولا الطمأنينـة العظيمة عند الفرد لما استطاع بلوغ الدرجة الأسمى وهي الرضا، ومعناها الاجتهاد الدؤوب لتحقيق الأفضل في أسوأ الظروف، وبناء حياة ناجحة بلا معصية.

ويُعـدّ كولن مثالًا مضيئًا في هـذا المقام؛ فهو لم يخرج على حكومته أو شـعبه قـط، بـل حقق أهدافًا دينية وروحية لم يسـتطع كثيـر من الدعاة والسياسيين المعاصرين إدراك قيمتها الحقّة.



الفصل الثالث:

منهجية كولن في التدريس والتنوير التربوي في الداخل والخارج





منهجية كولن في التدريس والتنوير التربوي في الداخل والخارج

شاع بأن الإسلام لا يرضى لأي مسلم أو مؤسسة ترك السياسة، وخاصة من كان ناشطًا في خدمة المجتمع من كلّ وجه، لذا صار أكثر من يؤيد النظريات الإسلامية مع الإسلام «السياسي»؛ أما العلمانية في سياسة الدولة فهي أيديولوجية حديثة نسبيًّا تفصل فصلًا واضحًا بين المسائل الدينية والشؤون الدنيوية، فتعزل سياسات الدولة عن المسائل الدينية، ويؤمن العلمانيون بأن هذا هو السبيل الوحيد للتنبؤ بسياسات الدولة ليتم تسيير الحكم بسلاسة؛ وذهب بعض العلماء والفلاسفة الإسلاميين أن العلمانية مرفوضة مطلقًا، ويرونها أيديولوجية معادية للإسلام، ويبذلون ما بوسعهم لتطبيق الشريعة في المشروع السياسي، بل يذهبون إلى أن القرآن والسنة اهتما بالسياسة والحكم أكثر من أية قضية أخرى.

وينتقد كولن من يحصرون الشريعة الإسلامية في نظام دولة قائم على أسس دينية كما ينتقد العلمانيين الذين يحاربون مبادئ الشريعة الإسلامية:

"إن هناك الكثير من الذين يعتقدون أن «الشريعة» منحصرة في وجـود نظام دولـة مبني على الأحكام الدينية، وهم يتخذون موقفًا معاديًا للشـريعة دون النظر إلى معنى الشـريعة ومحتواها، والحال أن كلمة «الشـريعة» هي -بطريقة ما- مرادفة لكلمة «الدين»، فإنها تشـير إلـى حيـاة دينية مؤسسـة على أوامـر الله ﷻ، وأقـوال النبي ﷺ وأفعالـه، وإجماع الأمة الإسـلامية؛ والأحـكامُ المرتبطة بإدارة الدولـة فيها ٥٪ فقط، والـ٩٥٪ الباقيـة تتعلق بالأمور الأخرى مثل أركان الإيمان والإسلام والمبادئ الأخلاقية"(٥٤).

وتؤمن كثير من الجماعات في العالم الإسلامي بالأطروحة المتواترة حول الدولة الإسـلامية والحكم الإسـلامي، وليس في العلماء من شكك فـي صحـة هـذا الموقف السياسـي سـوى عدد محـدود حتى بعـد زوال الخلافة العثمانية القوة التي كانت تمثل وحدة العالم الإسلامي؛ وما تزال الوحـدة الرمزيـة للمسـلمين في ظل الخلافـة العثمانية ومسـاعي الحفاظ على الحكم الإسـلامي الرشـيد شعارًا عزيزًا لجماعات إسلامية كثيرة، بل إن الحكومة والشـعب التركي الغارق في العلمانية حتى أذنيه لم يسـتطيعا تجاهـل تلـك الدعوة الراسـخة لدى ملايين المسـلمين فـي العالم، وقام العلمـاء الأتـراك في هذا الجـو العلماني بتغيير هيئتهم حتى لا يشـبِّهوهم بعلمـاء العرب والفرس، واتخذوا مسـارًا متفـردًا للحفاظ على معتقداتهم وشعائرهم الدينية.

وشـهدت إيـران وتركيـا بعد الحـرب العالميـة الثانية بعـض التحول الليبرالـي في سياسـات العلمنة الصارمة، ولم يعد بمقدورهما الاسـتمرار في سياسـات العداء العلني للإسلام إثر تراجـع حدة السياسات الإلحادية

(٥٤) السلام والتسامح في فكر فتح الله كولن، إشراف أ.د. زكي ساري توبراك، ص ١٢٤، دار النيل – ٢٠١٤م.

للاتحاد السوفييتي في الداخل والخارج، وكان لتأويلات الشيعة للقوانين الإسلامية ولنظام مدارسهم الدينية التقليدية أثر في جعل كبار علمائهم «آيات الله» قوةً معارضة للحكومة كلما أثيرت مسألة تتعلق بالإسلام؛ أما تركيا فالوضع فيها مختلف، فالعلماء فقدوا منذ زمن قدرتهم على معارضة الحكومة العلمانية بأي شكل، لكن التنافس بين القوتين العظميين في ستينات القرن العشرين صعّب على الحكومة التركية مواجهة الإسلام الجماهيري بسلاح العلمانية الغربية أو الأوروبية التقليدية، فبدأ تأثير الاشتراكية الإلحادية السوفييتية ينمو بين الشباب التركي.

ولم يستطع التحوّل الليبرالي للعلمانية أن يحد من مشكلة العداء بين قوى معادية للإسلام وقوى تدعو الحكومة والشعب لتمثُّل المبادئ الدينية الراسخة لدى الجماهير؛ وما زال النظام التعليميّ العلماني يفشل في صناعة طبقة عاملة مثقفة راقية محترمة تسيِّر شؤون الحكم في بلد إسلامي بكفاءة وفعالية؛ فأصبحت النخبة الفاسدة المتعلمة في العالم الإسلامي عدوانية قمعية في تطبيقها لمخططات تناقض مصالح الشعب لترضي حلفاءها الأجانب؛ ووقفت النخبة التركية العلمانية المتعصبة التي تمثل الأقلية ضد ما يقوم به المتدينون من أنشطة بدعوى أنهم متخلفون رجعيون، بينما يتخذ كثيرون في النخبة التركية موقفًا متفردًا ليقولوا للشعب: إن الطبقة الحاكمة لا تعادي أية أفكار وأنشطة يقصد بها المصلحة العامّة.

بدأت هذه الظروف منذ سبعينات القرن العشرين، فظهرت في ظلها كثير من المدارس والمراكز التعليمية والجامعات التي تستلهم أفكار كولن لتلبية الاحتياجات التربوية للناس في الداخل والخارج؛ وقد صنّف «جيل إيرفين» المؤسسات التعليمية التي تتبنى أفكار كولن في ألمانيا على ثلاث

مجموعات: مراكز التعليم، ومراكز الحوار بين الثقافات، والمدارس العليا الخاصة[٥٥]. ومعلوم أن أولياء الأمور يحرصون على توفير تعليم جيد لأبنائهم، ونجد التعليم الحديث يترك التلاميذ غالبًا نهبًا للأنانية والتكبر والجشع، وهي ظاهرة شائعة في بلدان كثيرة.

ويستنكر المسلمون التعليم العلماني الغربي الخالي من القيم، ويلاحظ أن مدارس التعليم الديني في العالم الإسلامي أخفقت بصورة مخزية في خلق موارد بشرية قادرة على تسيير أي عمل حديث على المستويات القومية والإقليمية والدولية.

ونموذج كولن المثالي للنظام التعليمي يربي أجيالًا بأخلاق حميدة ومهارات وإمكانيات حديثة، فهو يركز على الجمع بين الأخلاق الحميدة والعلوم. نعم، الفكرة نفسها ليست بجديدة، والجديد أنَّ كولن حرَّرها من أشكال التحيز الأيديولوجي، إذ يرى أن هدف التعليم التعلُّم وتنمية الشخصية الحميدة الأخلاقية ذات الكفاءة في العلوم الحديثة لتنشئة أناس صالحين بغض النظر عن الانتماء العرقي أو الديني أو الإثني؛ فرؤيته تركز على كيفية تحقيق هذا وفقًا لظروف كل بلد، وكيف يمكن إنجازه بالاعتماد على مجموعة من التربويين المخلصين ممن لا انتماء سياسي لهم قد يضر بالتلاميذ ولا يعود بأي نفع على المؤسسة التعليمية...

الهدف الرئيس للتعليم بَرَاء من أشكال التبعية الأيديولوجية، هذا ما ينبغي، ففي الستينات والسبعينات من القرن العشرين خشي معظم أولياء الأمور الأتراك من تأثير الماركسية والاشتراكية على أبنائهم، فأعجبوا

(55) Jill Irvine, «The Gülen Movement and Turkish Integration in Germany,» Muslim Citizens of the Globalized World. Robert A. Hunt and Yuksel A. Aslandogan (eds.), New Jersey: The Light, 2007, p. 64.

بأفكار كولن؛ وخشي آخرون من تلقين الأفكار الدينية المتعصبة في مؤسسات كولن بجمعها بين الأخلاق الحميدة والمهارات الحديثة، لكنهم وجدوا أن كولن رجل حديث براء من أي أفكار متطرفة، والقيمُ الأخلاقية التي يهتمّ بها قيم عالمية.

"التعليم عند كولن هو الحل الدائم الوحيد لمشكلات المجتمع وحاجاته الإنسانية، والمعلمون ذوو القيم العالمية المحبذة لأولياء الأمور هم أُسّ النشاط المدني"(٥٦)؛ صحيح أن هذه فكرة ليست جديدة على العالم الإسلامي، لكن الجديد هو تحقيقها كاملة في القطاع الخاص، لم تكن تركيا بلدًا شيوعيًّا لكنّ تعليمها كان مُؤَمّمًا تسيطر عليه الحكومة، ولم يكن تعليم المدارس الخاصة في تركيا في البداية يلائم طبيعة العصر ألبتة، وسادت نظرة دونية للتعليم المبني على أساس القيم بوصفه مرادفًا للتعليم الديني، فكان يخضع لضوابط صارمة في تركيا(٥٧).

وثمة تشابه بين الممارسات الدستورية السوفييتية المعادية للإسلام والسياسة التركية حيث تستهدف سحب الاعتراف الدستوري بالإسلام: "طبقت العلمانية عبر سلسلة خطوات صارمة اتخذت لإخراج الإسلام من مجالي القانون والتعليم، وعن كونه الدين الرسمي للدولة"(٥٨)؛ كانت

(56) Yuksel A. Aslandogan and Muhammed Cetin, «Gülen›s Educational Paradigm in Thought and Practice,» Muslim Citizens of the Globalized World. Robert A. Hunt and Yuksel A. Aslandogan (eds.), New Jersey: The Light, 2007, pp. 34–35.

(٥٧) الضوابط الصارمة المفروضة على التعليم الديني في تركيا تشبه إدارة التعليم الديني في الجمهوريات السوفييتية وسط آسيا أيام الحكم الشيوعي، وينص الدستور التركي على أن «إدارة التعليم والتدريس الديني والأخلاقي تحت إشراف الدولة وسيطرتها» (المادة ٢٤/٤).

(58) Ihsan Yilmaz, «State, Law, Civil Society and Islam in Contemporary Turkey,» The Muslim World, Hartford, Vol. 95, Number 3, July 2005.

الدولة العلمانية بمساعدة «مديرية الشؤون الدينية» التابعة للحكومة تسعى لتربية علماء «علمانيين» يطرحون باسمها كل أنواع التفسيرات الدينية للإسلام، وكان يفترض أن يكون كولن عالمًا «علمانيًّا» ليخدم الإسلام الرسمي الذي تتبناه الحكومة التركية.

وتعرض كولن لمضايقات كبيرة إثر خطبة له في بلدة «بورنوفا» عن «شريعة الفطرة»، لماذا هذه المضايقات علمًا بأن الأمر في العقود الأخيرة من العصر السوفييتي لم يكن ينذر بخطر لو تحدثت أن الإسلام دين الفطرة ما لم تطْرق باب السياسة والاقتصاد الإسلامي؟! «دين الفطرة» اسم من أسماء الإسلام، فكولن يعلِّم شريعة الفطرة بصفتها المبادئ المؤثرة في الفطرة أي قوانين الفطرة، فتناول في خطبته الكتابين السماويين: القرآن الكتاب المنزل، وكتاب الكون مظهر تجليات الإرادة والقدرة الإلهية في الكون، وترشدنا قراءة كتاب الكون إلى قوانين الطبيعة من فيزياء وكيمياء وأحياء ورياضيات؛ فالكتابان في رأيه وجهان لحقيقة واحدة، فهو يقول: نجاح المرء في الدارين رهن باتباع هذين الكتابين.

وقصور رجال المخابرات عن إدراك هذا المفهوم جعلهم يظنون أن كولن يدرس الشريعة على أنها مذهب سياسي، فظهرت مقالات صحفية تهاجمه بأوامر مخابراتيّة، ووضع من جديد تحت الرقابة العسكرية سنين بعد أن قضى ستة أشهر في السجن وحُكم ببراءته ولم يكن قد اقترف جريمة قطّ(٥٩)؛ ومنذ انهيار الدولة العثمانية كانت كلمة شريعة ذات حساسيّة خاصة في تركيا، لكن تفسيرات كولن لشريعة الفطرة لم يكن فيها

(٥٩) في ١٢ مارس/آذار ١٩٧١م، ألقي القبض على فتح الله كولن للاشتباه بأن له علاقة ما بأعمال تخريبية ضدّ الحكومة، ثم تبين بعد ستة أشهر أنه بريء، فأطلق سراحه بحكم محكمة، وأعيد لوظيفته الرسمية واعظًا عصريًّا يدعو الناس إلى الإسلام وروحانياته.

نـزاع حقيقـي، فهو يحث المسـلمين الأتراك علـى أن يحاولوا إدراك قيمة المعنـى الأعمق للإسـلام ويتعالوا علـى الخلاف في سياسـة الدولة وفي القضايا الجزئية المتعلقة بالإسلام أو بمشاعر المسلمين.

"خطاب كولن ليس خطابًا بليغًا فحسـب، بل هو يشـجع أتباعه عمليًّا على إدراك ما يؤمن به من مُثُل، ولما حظي كولن بين أتباعه بمكانة المفكر والمرشـد المربـي نظمـوا حياتهم وفـق توجيهاته واجتهاداتـه وإن كان لا يعدّها اجتهادًا"(٦٠).

لم يكن حديث كولن عن شريعة الفطرة قناعًا يخفي وراءه حديثًا عن «الإسلام السياسي»، بل ركّز على العلوم الطبيعية بوصفها جزءًا حيويًّا من المناهج المدرسـية، غير أن الجمـع بين العلوم الطبيعية والقيم الأخلاقية لا يمكنه أن يضمن وحده نظامًا تعليميًّا مزدهرًا، فلا بد من الخطوة الثانية في نظرية كولن التعليمية، "وهي الإيثار أو نزع الأنانية وغرس روح خدمة المجتمع في مجال التعليم"(٦١).

وأرَّقـت كولن سـمعة التعليم الخـاص الربحية السـيئة، فالتعليم عنده غـذاء الـروح والقلب في تنشـئة الجيـل الجديد، فجاءت مـدارس حركة الخدمة لتثبت أنها لا تستهدف الربح ألبتة، واستلهم مئات الآلاف خاصة التربوييـن ورجال الأعمال فكرة إنشـاء المدارس كهـذه ذات قيمة عالمية

(60) Ihsan Yilmaz, «State, Law, Civil Society and Islam in contemporary Turkey,» The Muslim World, Hartford, Vol. 95, Number 3, July 2005, p. 399.

(61) Yuksel A. Aslandogan and Muhammed Cetin, «Gülen›s Educational Paradigm in Thought and Practice,» Muslim Citizens of the Globalized World, Robert A. Hunt and Yuksel A. Aslandogan (eds.), New Jersey: The Light, 2007, p. 35.

وتربيـة تتفانـى في تهذيـب التلاميـذ ليتغلبوا علـى الأنانية والاسـتهلاكية المطلقة سمة الحياة الحديثة.

والمحـور الثالـث لنظريـة كولـن التعليميـة هـو البعـد الاجتماعـي، فالمدارس ليسـت جزيرة منفصلة عن المجتمـع، فلا بد من تطبيق التعليم المدرسي في الشؤون المجتمعية، وعلى المدارس تعبئة التربويين وأولياء الأمـور والممولين لتدريب وتنمية التلاميذ من جميـع النواحي، فهذا عقد ثلاثي تعاوني بين هذه الأطراف الثلاثة.

النقطـة الأخيـرة فـي نظرية كولـن التعليمية هـي المناخ العـام للنظام التعليمي؛ كيف يمكن الوصول إلى أفضل بيئة من أجل الجميـع: العاملين والتلاميذ وأولياء الأمور والممولين؟ فلا ينبغي أن يقـع أي توتر بين القيم والحداثـة أو العلـم والدين في النظام المدرسـي، وهـي مهمة هائلة لا بد من إنجازها، وبخاصة في البلدان الإسلامية؛ إذ سرعان ما تواجه الأطراف المعنية في النظام التعليمي مشكلات جدية فيما ظاهره التناقض بين العلم والدين أو بين القيم والحداثة.

وجذور هذه الحركة التربوية ممتدة في الأناضول، ولها شعبية عالمية تـدل علـى أن نموذج كولن التربوي يتمتـع بقبول عالمي، فمن المآثر التي يثنـي عليهـا أولياء الأمـور كثيرًا هو ما حققه من إنجـازات في الرياضيات والعلوم وتركيزه على شخصية المعلمين الأخلاقية الأسوة وأثر ذلك على سلوكهم[٦٢].

(62) Yuksel A. Aslandogan and Muhammed Cetin, Ibid.

وليســت هنــاك حركة مبنية على القيم الأخلاقيــة والروحية يمكنها أن تحقِّق مثل هذا الهدف بأن تُعِدّ معلمين لهم سلوك أخلاقي يحتذى به على الدوام، خاصة إذا كانوا منخرطين في الحياة السياسـية حيث صراع القوى على سـلطة الدولة؛ وما أصعب أن يتحلى الإنســان بسلوك يحتذى به وأن يصبح قدوة لكثير من التلاميذ، ولا بد أن تسـتمر هذه الرحلة مدى الحياة لكي يصبح الإنسان تربويًّا مخلصًا ومعلمًا مهنيًّا.

إن أفـكار كولن ومنهجيته ليســت جديـدة في المفاهيم والمســلمات النظريـة، فمثـلًا أيام الاحتـلال البريطانـي كان هناك عدد كبيـر من علماء المســلمين في الهنـد[٦٣] ينادون بهـذا النوع من التعليم للمســلمين، وكان الخـلاف حـول تحقيـق هـذا الهـدف: أيكون فـي ظـل النظـام البريطاني أو بمقاطعتـه تمامًـا؛ لـم تكن المسـألة الجوهرية مدى قدرتنـا على البقاء مـع النظام البريطانـي أو بدونه، بل كيف نلج بالقيم الأخلاقية في التعليم الحديـث وكيف نربّي الشـخصية أثناء تحصيل العلـوم، فنحن بحاجة إلى تعليم خاص بنا نموله من مواردنا ويدعمه شعبنا.

ولمـا ازدادت شـعبية مدارس حركة الخدمة فـي تركيا، تقدم كثير من التربوييـن ورجـال الأعمال لإنشـاء عـدد كبير من المـدارس الخاصة في تركيـا؛ فغدا هـذا النظام التعليمـي المتفرد ظاهرة ناجحة فـي تركيا خلال الثمانينـات والتسـعينات مـن القـرن العشـرين، ففـي عقد التسـعينات لم تعـارض أي جماعة علمانيـة أو قومية ظاهرة التعليم المدرسـي هذه التي أصبحت بالفعل قصة نجاح منذئذ، واكتسـبت شـعبيةً لدى الجيل التركي الجديد أيًّا كان انتماؤه الأيديولوجيّ.

(٦٣) أسماء سير سيد أحمد ومولانا أبو الكلام أزاد وإخوان علي نماذجُ يسيرة لقائمة طويلة ممن اختاروا نهج التوفيق بين التعليم الديني والتعليم الحديث.

نظرية كولن في التعليم المدرسي بعد انهيار الاتحاد السوفييتي:

قد يجد المرء آلاف القصص حول انهيار الاتحاد السوفييتي، إلا أن النظام التعليمي المعيب هو السبب الرئيس، فتفكك الاتحاد السوفييتي فجأة من الخارج، ولكن بصفتي باحثًا قام بدراساته العليا وأبحاثه هناك كنت أرى أنه ينهار من داخله بسبب نظامه التعليمي الذي ليس له أي هدف أو معنى، فالهدف من التعليم إيجاد بشر ملائمين للشيوعية المهزومة أمام الرأسمالية الغربية منذ ثمانينات القرن العشرين في اكتساب المعارف في العلم والتكنولوجيا وفي خلق موارد بشرية صالحة محصنة من الفساد ومخلصة لقضايا البشرية والكرامة الإنسانية، وأصبح الإلحاد والماركسية التي تتبناها الدولة السوفييتية فكرتين قديمتين في العقد الأخير من العصر السوفييتي.

واستطاع أهل الوعي من أولياء الأمور الأتراك أن يروا هذا الانهيار في النظام التعليمي السوفييتي، وأدركوا قيمة نظام التعليم المبني على أساس القيم فيما يسمى بـ«مدارس الخدمة»، فاستلهم الآلاف أفكار كولن لتوفير تعليم حديث متميز أخلاقيًّا بعيدٍ عن أي انتماء سياسي، فكانت فرصة لفتح مدارس من هذا النمط في عدد من الجمهوريات بعد انهيار الاتحاد السوفييتي؛ وحاولت البلدان المستقلة حديثًا في آسيا الوسطى أن تبحث عن أجندة خفية لهذه المدارس، فعجز جهاز المخابرات السوفييتية نفسه عن ذلك، فهي قد نذرت نفسها للقضايا التربوية العالمية مع تهيئة ما يحتاجه كل طفل في شبابه من الأخلاق والرقي الإنساني، وسمحت دول الاتحاد السوفييتي سابقًا والاتحاد الروسي نفسه عدا أوزبكستان بأن تعمل مدارس الخدمة في أراضيها.

"من أكثر المظاهر البارزة اللافتة للنظر في الجمع بين الالتزام والتسامح معًا طبيعة حركة الخدمة نفسها، لقد أسست مئات المدارس في بلدان كثيرة لإيمانها بأهمية المعرفة والقدوة في بناء عالم أفضل؛ فهي لونٌ من خدمة الإنسانية هدفُها نشرُ العلم بأوسع معانيه دون دعاية صريحة للإسلام؛ ودراسة حركة الخدمة حدود تثبت أنها أعمق من هذا الاكتشاف بكثير، فتلك المدارس لبنة من حركة هائلة غير متبلورة فيها ما بين ٢٠٠ ألف و٤ ملايين إنسان في أنحاء العالم، ولديها مدى واسع من التنظيم، وأسس محبّو كولن مؤسسة للصحفيين والكتاب تجمع المفكرين الإسلاميين والعلمانيين معًا، وندوات لتشجيع حوار الأديان"[٦٤].

يختلف من يستلهم أفكار كولن مع النشطاء السياسيين الذين يسعون لإحياء الخلافة الإسلامية، فكولن يؤيد الإحياء الحقيقي والفكري للشعوب الإسلامية لرفع مستوى البشرية كلها، أما أولئك فوقتهم لا يتسع للقضايا التي ينادي بها كولن، فهو لا ينغمس في أي صراعات دينية أو أيديولوجية مع أية جماعة، وينأى بنفسه عن السعي نحو تدين الدولة، ولا يتردد في انتقاد أمثلة معينة للإسلام الرسمي: "من المفترض أن إيران والسعودية لديهما نظام حكم إسلامي، ولكن هذا النظام تحدده الدولة ويقتصر على التوجه الطائفي"[٦٥].

وهنا قد يتراءى لك أن كولن ناقد للإسلام السياسي في السعودية القائم على المذهب الحنبلي في صورته السلفية، وفي إيران القائم على

(64) Lester R. Kurtz, «Gülen›s Paradox: Combining Commitment and Tolerance,» The Muslim World, Hartford, Vol. 95, Number 3, July 2005, pp. 380–381.

(65) Gülen, Advocate of Dialogue, compiled by Ali Unal and Alphonse Williams. Virginia: The Fountain, 2000, p.151.

التشيـع والمذهـب الجعفـري، والحق أن كولن يرفـض الخلط بين رؤيته الإسلامية والطائفية التي سبق أن كلفت الشعوب الإسلامية الكثير.

ولا يؤيـد كولـن أو مدارسـه الدعاية لأي طائفة قديمـة أو جديدة في بلاد الإسلام ألبتة، فالبشرية كلها عنده داخلة في دار السلام الإلهية، وعلى المسـلمين أن يصونـوا هذا السـلام بأي ثمـن، وهذا نهج صوفي سـلمي ليست وراءه أيديولوجية سياسية:

> "الإسلام هو دين، لا يمكن أن يسمى بأي اسم آخر، فعندما هـزم الغـرب المسـلمين عسـكريًّا وتكنولوجيًّـا، كان المخرج هو تسـييس الإسـلام أو تحويله إلى نظام سياسـي؛ وهذا كأنه شـكل جديـد للخـوارج، أمـا الإسـلام فهو دين يقـوم على إقنـاع العقل وإمتاع القلب، فالإيمان والعبادة أولًا، والأخلاق ثمرة لهما"(٦٦).

وفي مسـألة تسييس الإسلام تجد المسلم الوسطي أو المعتدل يطلب منك ترك المغالاة في تسـييس المبادئ الإسـلامية، أما كولن فيطلب ترك تسـييس الإسـلام أصـلًا، فهو حـازم جدًّا فـي مجافاته لنظريات الإسـلام السياسـيّ، بل لا يراها ضروريّة على الإطلاق؛ لا خلاف أنّ دين الإسـلام منظومـة كاملة من القوانين، لكن كولن يحاول بوصفه لدين الإسـلام بأنه ديـن الفطـرة أن يعـرف من حولـه أن صعـود الأنظمة وسـقوطها إنما هو بمشـيئة الله سـبحانه وتعالى، وهو سبحانه غالب على أمره ولا غلبة لأحد عليه؛ وأكثر ما شـهدنا من تسـييس مبادئ الإسلام كان في فترة الاحتلال، التـي خيمـت بظلامها الدامس المطبق على الشـعوب الإسـلامية كلها أيًّا كانت هويتها الوطنية أو الإثنية أو الطائفية.

---

(66) Ibid.

ولا يستطيع كثيرون في الغرب أن يدركوا أنه باستغلال الاحتلال للشعوب الإسلامية صار زعماء المسلمين يربطون بين فترة الحملات الصليبية[٦٧] والاحتلال الحديث الذي ابتلع العالم الإسلامي كلَّه تقريبًا.

"تحدثنا عن الدور السلبي المضاد الهدام للاحتلال، ونضيف إلى هذا عوامل داخلية خاصة بممثلي المجتمع ممن تاهوا في خضم العملية المادية للإمبريالية؛ فوقعوا في حيرة حينما قامت البلدان الإمبريالية بتكديس الثروات في الغرب مستعينة بالتقدم العلمي والصناعي أو بالاحتلال ونهب موارد شعوب آسيا وإفريقيا، إذ اعتقد ممثلونا أن التطور الصناعي يلغي تلقائيًّا ما لدينا من قناعات وقوانين؛ فمثلًا بما أنهم وصلوا إلى القمر علينا أن ننحي جانبًا قوانيننا وشرائعنا الخاصة؛ ولكن ما علاقة هذا بذاك؟! ألم يروا بلدانًا لها نظم اجتماعية متعارضة ينافس بعضها بعضًا في التقدم العلمي والصناعي، وتتصارع على زعامة الكون؟ هب أنهم وصلوا المريخ أو طوفوا بالمجرة كلها فهل سيبلغون الرفعة الأخلاقية والعمق الروحي، ويتمكنون من حل مشكلاتهم الاجتماعية وبلوغ السعادة بدون المبادئ الدينية والأخلاقية؟! يريد المحتل إقناعنا بأن لا صلة للإسلام بالسلطة وأجهزتها، حتى وإن

---

(٦٧) «بدأت أولى الحملات الصليبية زحفها نحو الشرق سنة ١٠٩٦م، وفي سنة ١٠٩٨م استولت على المدينتين الكبيرتين إذيسا وأنطاكية وكثير من الحصون، وفي سنة ١٠٩٩م سيطر المسيحيون على القدس؛ وخلال السنوات القليلة اللاحقة ١١١٠م وقع الجزء الأكبر من فلسطين وساحل سوريا وطرطوشة وعكا وطرابلس وصيدا في أيدي الصليبيين، واكتملت سيطرتهم بغزو صور سنة ١١٢٤م، وكان هذا التوقيت مناسبًا لنجاح الغزو الأوروبي للمنطقة، فالجيل السابق كان السلاجقة فيه قوة لا تهزَم، والجيل اللاحق كان فيه نور الدين الزنكي الذي ثبت أقدامه على عروش سورية، فلو غزاه أحد لرمى به في البحر، وحالف المبشرين في الحملة الصليبية الأولى الحظ في استغلال فرصة لم يكونوا يدركون مدى أهميتها، فاختار بطرس الناسك وأوربانوس الثاني اللحظة المواتية بذكاء ودقة كما لو كانا قد أجريا دراسة متعمقة للأوضاع السياسية في آسيا، واخترقت الحملة الصليبية الأراضي العربية كوتدٍ دُق بين الخشب القديم والحديث، وبدا أنها ستفتت جسم الإمبراطورية الإسلامية أجزاء متناثرة» (*Stanley Lane-Poole, History of Egypt in the Middle Ages, 1968:163–164*).

كانـت فيـه بعض القوانين لكن لا أحد يأخذ بها، فهو عامة مشـرع لا أكثـر، وواضـح أن دعايـات الاحتلال جزء مـن مخطط لإبعاد المسلمين عن الحياة السياسية وأصول الحكم، وهذا يتعارض مع ثوابتنا الدينية"[٦٨].

ولك أن تعجب كيف تغلب كولن على تلك النبرات السياسية الخطيرة في الفكر الإسلامي وعلى الدعاية الغربية المعادية للإسلام معًا.

ويؤيـد محبّـو كولن وآخرون القول بأنه إثر سـقوط الخلافة في بغداد تمّ تجميد مؤسسة الاجتهاد بوصفها الطريق الذي يجدد الأفكار الإسلامية ويسـهل علـى النـاس اتباعهـا ويمنحها طابعًا ملموسًـا يسـتوعب القضايا الإسلامية.

ولا يُعنَى كولن كثيرًا في خطابه بمعرفة «مَنْ فَعَلَ» في مسائل الخلاف، وهـذا هـو موقفه فـي التدريس وطلب العلم الذي ينيـر الأرواح، فلا يرى أن ثمة قضايا أساسـية تستوجب الخلاف بين المسلمين، فعلى المسلم أن يعكف على طلب العلم وعمل الصالحات ما استطاع.

ويستطيـع المرء بحسب ظروفه وطاقته أن يجعل من أي تكليف دينيّ جزءًا أساسـيًّا من تدينه، ويكون من العبث الجدال في ذلك مـع الشـخص المعنيّ أو السلطة المسؤولة، فبعض المسائل في الإسلام قد يكون مجاله أكبر أو أصغر في ضوء عسر الموقف ويسره وطاقات واتجاهات المعنيين به والقائمين عليه.

---

(68) Imam Khomeini, Prablenie Fakixa: Islamskoe Problenie, Tehran: Institute of Learning and Publication of the Works of Imam Khomeini, 2003, pp. 29-30.

''والمسائل التي أمر الله تعالى بها ووردت فيها نصوص قرآنية صريحة مثل الحجاب مستثناة من مجال تفسيرنا وتحليلنا، فالحجاب فرض، غير أنه ينبغي ألا يُنسى أنه موضوع عملي وليس عقديًّا، ومؤكد أن المسائل العملية التطبيقية لا يمكن أن تتقدم القضايا الإيمانية ولا العبوديةَ لله تعالى بمعناها العام، أي إنه إن كانت القضايا الخاصة بالإيمان هي الأصول فغيرها الفروع، ولا سيما أن هذا الأمر نراه بوضوح وجلاء في أحاديث سيدنا رسول الله ﷺ، فقد أمرنا بالإيمان بالله تعالى أولا، ثم أبلغنا بالأحكام العملية (العبادات) كالصلاة والزكاة، أما قضية الحجاب والتستر فقد فرضت لاحقا، بعد حوالي ١٦-١٧ سنة من بعثة سيدنا رسول الله (السنة الخامسة من الهجرة).

ولذلك فإنه من الخطأ أسلوبا ومنهجا التنازع والتشاحن حول الفروع قبل استقرار الأصول (أي المسائل الإيمانية) بين الناس. لأن تقديم الفروع على الأصول يعني -في جانب منه- بخس الأصول حقها في الأهمية والعناية.

وقصدنا هنا ليس أن تتبرج النساء ويكشفن رؤوسهن ثم يتسترن بعد مدة معينة، وإنما أردنا أن نقول بضرورة وعي مكانة قضية الحجاب في الدين وعيًا جيّدًا وتقييم الأمر بناء على ذلك، أي ألا يُضَحَّى بالأصول في سبيل الفروع. فليس من الصحيح تقديم موضوع ما كقضية الحجاب -التي إن وضعت في الترتيب بين الأسس الإسلامية قد تأتي في الترتيب الرابع أو الخامس- على غيره من المواضيع، وجعله وسيلة للتشاحن والعراك، ومن ثم إهمال القضايا الإيمانية''[٦٩].

(٦٩) حوار صحفي مع فتح الله كولن أجراه أَرْطُغْرُلْ أُوزْكوكْ: صحيفة حُرِّيَّت، ٢٧ يناير، ١٩٩٥م.

يذكـر كولن النـاس بأن مـن لا يرتدين الحجاب لسْـنَ خارجات عن الدين؛ لأنها قضية فرعية، فهو يرأب الصدع بين المسلمين، لكنه لا يلمح ولـو حتـى ضمنيًّـا إلى أن تخلــع المسـلمات حجابهن، فهو بهـذا يراعي الأصـول والفـروع، ويفترض نظريًّا على الأقل أن يكون تذكير الناس بهذا المبـدأ سـهلًا وفقًـا للقواعد فـي القرآن والسـنة، ولكن تاريخيًّا وسياسـيًّا واجتماعيًّـا لـم نجد زعيمًا دينيًّا مشـهورًا سـبق كولن إلى مثـل هذا الرأي المتميز في تأييده اسـتمرار تعليم من لا يسـمح لهن بارتداء الحجاب في المدارس.

إنه مفكر ثوريّ يرفـع الحواجز التي تحول دون بلوغ الهدف الجوهري وهو تعليم البشـر جميعًا بأي ثمن. نعم، إن آراء علماء الهنود المحافظين في قضية الحجاب تسـببت في شيوع الأمية بين المسلمات في شبه القارة الهنديـة كلهـا؛ وكان لهـذا أثر سـلبي على التنميـة الاقتصادية والسياسـية الاجتماعية في هذه المنطقة(٧٠).

ولطالما تحدثت قوى الاحتلال والاستغلال في العالم الإسلامي عن تعليم المرأة، وتمكينها في البلدان الإسـلامية، غير أن سياسـاتها لا أثر لها من حيث الوقت والموارد المستخدمة، أما مدارس حركة الخدمة في تركيا وخارجها فقد حققت -بأي مقياس أردْتَ- إنجازًا رائعًا بشهادة الجميـع؛ ورغم الوضـع المشاكس والموقف البائس في كثير من البلدان الاشتراكية والعالم الثالث حققت مدارس تركية تستلهم أفكار كولن في الإيثار أهدافًا جديرة بالثناء في نشر العلم وتعليم العلوم الطبيعية والاجتماعية.

(٧٠) ما زال ٤٠٪ من المسلمين في شبه القارة الهندية يحتفظون بتراث إسلامي وثقافة إسلامية غاية في الثراء.

كثيرًا ما تسـمـع في الغرب أن المدارس الدينية حاضن رئيس لتنشـئة الأصوليين، عشاق سفك الدم الغربي خاصة اليهود والنصارى، وكأن قتل هؤلاء سيمكنهم من القضاء على الحضارة الغربية قاطبة وإحلال الحضارة الإسلامية محلها! وهذا في النهاية هو صلب نظرية صراع الحضارات التي يروّج لها الإعلام الغربي المعادي للإسلام في العالم الإسلامي(٧١).

يُعـد مفهـوم التعليـم المدرسـي الحديـث «اختراعًـا» مـن المحتـل الأوروبي، الذي هيمن على العالم الإسـلامي كله سـنين، وقسـم التعليم على أسـاس الديـن والعلمانية، وكان لهذا الخـط الفاصل في طلب العلم آثار كارثية على التنمية الاقتصادية الاجتماعية في العالم الإسلامي(٧٢).

أمّـا الرؤيـة العالميـة الإسـلامية فـلا تجيز تقسـيم العلم إلـى مقدس وعلمانـيّ، ولا تفصـل التعليـم القائم علـى النصوص الدينية وتفسـيراتها عـن فـروع المعرفة الأخـرى والعلـوم الاجتماعيـة مثل الاقتصـاد؛ وتعدّ الإصلاحـات الاجتماعيـة والاقتصاديـة أساسًـا للشـؤون السياسـية لأيـة حكومـة، فلـم يجرؤ حكام المسـلمين على تقسـيم التعليـم وفقًا للمبادئ والقيم الاقتصادية وغير الاقتصادية.

(71) *See Conn Hallinan, «Politics By Other Means: Religion and Foreign Policy,» Counterpunch, Issue 2, October, 2007, http://www.counterpunch.org/hallinan10022007.html.*

(٧٢) في العالم العربي الغني بالنفط ما زال واحد من كل خمسة من العرب يعيش بأقل من دولارين في اليوم، وهذه ليست ظاهرة منفصلة، فعلى مدار السنوات العشرين الماضية كان النمو في دخل الفرد -الذي يبلغ معدله ٠,٥٪ سنويًّا- أقل من أي منطقة أخرى في العالم عدا القارة السوداء؛ ورغم الكلام الكثير عن النمو الاقتصادي والتنمية في باكستان ما زال ٤٠٪ من الأراضي في أيدي ٢٣ أسرة؛ ولم تعد هذه الظاهرة قاصرة على المسلمين وحدهم، بل أصبحت كارثة اقتصادية مستفحلة على نطاق خطير في الكرة الأرضية التي يعيش فيها ١,٣ مليار نسمة على أقل من دولار واحد في اليوم، ويعيش ٣ مليارات آخرين على أقل من دولارين في اليوم، ومن بينهم ١,٣ مليار لا يتوافر لهم الماء النظيف، و٣ مليارات ليس لديهم صرف صحي، ومليارات محرومون من الكهرباء، ونجد أن بضعة آلاف من البليونيرات يسيطرون على اقتصاد العالم ويفرضون على معظم الحكومات أن تدمر النظام البيئي والإيكولوجي بأكمله في العالم أجمع من أجل مصالحهم ومكاسبهم المالية. انظر: *http://www.economist.com/displaystory.cfm?story-id=121339222*

ووجـد كولـن فـي مادتيـن من الدسـتور تنصـان على علمانيـة البلاد وقوميتهـا أمـرًا واقعًا، رأى فـي التعليم المكان الصحيـح الذي يمكن فيه للمسـلمين الأتراك أيًّا كان انتماؤهم أن يسـهموا في إنشـاء «جيلٍ ذهبيّ» يكرس نفسـه لقضايا الأمـة والعالم، وتنص ديباجة الدسـتور التركي على ما يلي:

"لا تجـوز حمايـة الأفـكار أو الآراء التي تعـارض المصالح الوطنية التركية، أو مبدأ وحدة تركيا دولة وأرضًا، أو القيم التاريخية والأخلاقية التركية، أو القوميـة والمبادئ والإصلاحات والحداثة التي وضعها أتاتورك، ومبدأ العلمانية يحظر إقحام المشاعر الدينية المقدسة أيًّا كانت في شؤون الدولة والسياسة".

فـي ظـل نظام دسـتوري كهـذا يعجب المـرء كيف تمكـن كولن من مواصلة أعماله القائمة على الدين، فهو لم يدخل في خلاف مـع المسلّمات الأيديولوجية الدسـتورية فـي ظلِّ العلمانية أو القوميـة أو الأتاتوركية، بل جعـل اهتمامه ينصب علـى التزكية الروحية والتنوير التربوي للتغلب على المشـكلات، ويعـد كولن بوصفه داعية إسـلاميًّا في تركيـا العلمانية قصة نجـاح رائعـة لجميـع المعنييـن بتحويل الأمـة التركية إلى قـوة ديناميكية مستقلة في العالم؛ ومن الاحتياجات الأساسية لأي مجتمع أو دولة تغذية الروح الإنسـانية، ومن نتائج هذا صون مصالح الدولة والأمة والإنسـانية، ولتحقيـق هذا الهدف الحيويّ لا بد أن يوجَّه النظام التعليمي والمدرسـي نحـو تنميـة الخصال الحميدة في قلوب الناس وعقولهم منذ النشـأة حتى تُخمد نوازع الشـر في الغريزة الإنسـانية، وتتسـع مسـاحة النفس الخيرة لنفـع الآخرين أيضًا؛ ولتحقيق هذا الهدف الرئيس من أجل المجتمـع كله؛

تبنت كثير من الشعوب والأيديولوجيات كثيرًا من التعاليم لتجسيدها في التعليم المدرسي، ولإعداد موارد بشرية أفضل، ومن المعلوم أن الصفات المكتسبة في المدرسة خلال مرحلتي الطفولة والمراهقة تستثمر جيدًا في المراحل الأخيرة من الحياة خاصَّةً خلال حياتهم المهنية.

وسعى فلاسفة أمثال أفلاطون وكارل ماركس وغيرهما إلى حرمان النخب الحاكمة من كل أشكال الملكية والحياة الخاصة لئلا يستغلوا سلطة الدولة وثرواتها وعلاقاتهم الشخصية لمصلحتهم، وهذا ما لا تقره أية تعاليم إسلامية، لكنّ استغلال حقّ الملكيّة وصلات القربى بلغت نسبًا بالغة الخطورة في بلدان كثيرة، فما عاد لأي نظام قانونيّ أو لسيادة القانون أثر مفيد في حياة العامّة تقريبًا.

وفي ظروف كهذه يعمل كولن على تحسين المجتمع دون صدامٍ مع أيِّ نظام قائم، مراعيًا تضاريس الواقع والسياق العامّ، فمعرفته بالنظام القانوني والسياسي القائم تتيح له أن يعبِّر عن رؤيته في التغيير من أجل المجتمع كلِّه تعبيرًا يجعل أي عقل موضوعي يرى نقده لمجتمعه نقدًا بناءً.

> "والضرورة تحكم بتواجد أهل الخبرة والاختصاص في المواضيع العلمية والفنية والهندسية المتعددة التي هي من مصالح المسلمين، زيادة على توافر المعاني والروح والعلوم الإسلامية، في الكبار المقدمين من أهل الحل والعقد، وخصوصا في أيامنا، لتشابك الحياة وتحول كل مشكلة إلى مشكلة عالمية.
>
> ...ومهما تغيرت أشكال إجراء الشورى حسب الزمان والمكان والأحوال، فإن اتصاف الكبار المقدمين بالعلم والعدالة

والدراية والنظر والخبرة والحكمة والفراسة ثابت لا يتغير، العدالة هي أداء الفرائض واتقاء المحرمات وتجنب ما يناقض القيم الإنسانية، والعلم هو الدراية والخبرة في الدين والإدارة والسياسة والفن"(٧٣).

ومعظم أنصار المفاهيم الإسلامية في عصرنا إما يسيؤون فهم أثر عملية العولمة في العالم الإسلامي أو يقللون من شأنها، وكثير من البلدان الإسلامية لم تستفد من العلوم والتكنولوجيا المتقدمة لجني فوائد العولمة، بل باتت تعاني عواقبها الوخيمة، وأولى بنا أن نعد تلك الظاهرة أمارة فشل عند المسلمين، فما يحتاجون فعله اليوم هو أن يبادروا لإصلاح مشكلاتهم الداخلية بأسرع ما يمكن، وأن يروا ضرورة الإسهام في النظم العالمية بكل السبل الإيجابية لجعل عالمنا عالمًا أفضل؛ لنحيا وننخرط في الأنشطة البناءة، وتجدر الإشارة هنا إلى تحليل «جيل كارول»:

"ولا توجد في نظر كولن طريقة أخرى لتنظيم المجتمع تستحق أن تسمى «إنسانية» وبالتأكيد لا توجد طريقة أخرى يمكن أن تسمى «إسلامية»، فالبشر يمتلكون بداخلهم الملكات اللازمة لتحقيق الكمال كبشر، ومن يستوعبون هذا الكمال ويحققونه في أنفسهم يجب أن يؤثروا في المجتمع، كحكام أو كمستشارين أو كزعماء للمجتمع على مستوى القاعدة، ولكي يحدث أيٌّ من هذا يجب تعليم الناس وتربيتهم بطريقة سليمة وهادفة. وتُعتبر مدارسُ حركة كولن العابرة للحدود مبادراتٍ معاصرةً في هذا الاتجاه، وهي تسعى لتعليم الشباب من جميع قطاعات المجتمع ليصبحوا أناسًا على مستوى عالٍ من التأهيل والفضيلة يؤثّرون

(٧٣) فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص ٥٤.

-كرجالِ كونفوشيوس المتفوقين- في كل ما حولهم ومن حولهم بقوة ما لديهم من المعرفة والخير والجمال (أي الـ«تي»)"[٧٤].

ويـرِدُ علـى الذهن سـؤالٌ جوهريٌّ عمّا يجعل الإنسـان إنسـانيًّا: هل يمكن لمن يؤمن بالمذهب الجبري أن يصبح مؤمنًا بالمذهب الإنسـانيّ؟ إنه من الواضح أنّ القسر أو الإكراه لا علاقة له بالإسلام السياسيّ بوصفه أيديولوجيا أو رؤية عالميّة لكن كثيرًا من تفسيرات النصوص العقدية التي قدّمها علماء مسـلمون وغيرهم تُوهِم أنَّ الإسـلام شرع طريقة حياة جبرية شـديدة، وتَـرَكَ تخلُّفُنـا في العلـوم والتكنولوجيـا وظهورُ أثـره في الحياة المادِّيّة عقدةَ نقصٍ رهيبةً في قلوب ملايين المسلمين وعقولهم.

وخلافًا للأغلبية في الغرب فالمسـلمون ما زالوا يميلون إلى الاعتقاد بوجـود عناصر رئيسـة تنتهك حقوق الفقراء والبسـطاء، ففـي بلدان كثيرة يعيش نصفُ السـكان تحت خطِّ الفقر، واسـتمر هذا قرونًا لصالح الطبقة الغنية في الغرب، وكذا في العالـم الثالث والبلدان الإسلامية.

وكولن في منتهى الحذر عندما يطرح المعضلة العالمية حول تخفيف تضـارب المصالـح الاقتصاديـة والاجتماعية والثقافية بين الشـعوب، ولا يلقي باللوم في معاناة المسـلمين المآسـيَ والشـقاءَ على أيِّ أحدٍ إجمالًا، بل يحاول عرض تلك المشكلات عرضًا موضوعيًّا بالسعي لإيجاد علاج محلي ودولي دون استثارة الكراهية تجاه أي شخص أو دين.

"نحن نحسب أنفسنا في السبيل، قاصدي عالم مضيء كهذا، ومنـذ سـنوات طويلـة، ومـن دون تكهنـات البحث عـن أمارات الفجر حولنا، ومن غير الانشـغال بالأبحاث السحرية لأسرار دنيا

(٧٤) د. جيل كارول: محاورات حضارية، ص ١٣٠، دار النيل – ٢٠١١م.

الرياضيات، نقوم بتقييم كل شيء تشير بوصلة أرواحنا إلى صحتها وسلامتها حسب إرشاد الثوابت الإلهية، فنَجِدّ في استكشاف المشيئة الإلهية ونقاط التقائنا بما تعدنا به تلك المشيئة، وذلك بإرادتنا التي هي أعظم وسيلة تعلقٍ بمشيئة الحق، ثم نتقدم سعيًا في هذا السبيل كأبطال راهنوا بحياتهم ووجودهم كله وذلك من أجل إحياء نمط حياتنا المبارك"(٧٥).

ولم يكن الغرب يجهل حقيقة الألوهية، ولكن وا أسفاه فعقليّته عادتْ طويلًا روحانياتٍ تنادي بالإيثار والفدائية، وبهذا الموقف -غير المكترث بالآخرين- انكشفت سوءته للعالم كلّه، ولا يمكننا أن نلوم الغرب أو المحتلين الجدد إلى الأبد على ما نعانيه من شقاء وبؤس، فنحن أيضًا نستحق اللوم على مآسٍ كثيرة خلفناها لشعوبنا وأهلنا، فتركيا مثلًا بلد غنيّ بالثروات، ولا مسوِّغ لاستخذاء الاقتصاد التركي للدخلاء أو لنخبة صغيرة فاسدة من داخله(٧٦)؛ والفساد في تركيا ليس بذاك القدر مقارنة ببلدان إسلامية كثيرة، ولكن إنفاقها العسكريّ في عضويتها بحلف الناتو وغيره محل تساؤل لأطراف كثيرة، وفَقَدَ الناتو كثيرًا من أهميته العسكرية، وغدَتْ للاتِّحاد الأوروبيّ أشكال من الأهمية في الاقتصاد والسياسة وتنمية الموارد البشرية في تركيا؛ ويستبعد أن تُقبَل عضويّة تركيا الكاملة

(٧٥) فتح الله كولن: ونحن نقيم صرح الروح، ص ١٣٤-١٣٥.

(٧٦) يعيش حوالي ٢٠٪ من سكان تركيا الذين يتجاوز عددهم ٧٠ مليون نسمة في فقر رغم أنها من أكبر دول العالم في الإنتاج الزراعي، فمنذ مارس/آذار ٢٠٠٧م صارت تركيا أكبر منتج في العالم للبندق والتين والمشمش والتوت والسفرجل والرمان، وثاني أكبر منتج للبطيخ والخيار والحمص، وثالث أكبر منتج للطماطم والباذنجان الرومي والفلفل الأخضر والعدس، ورابع أكبر منتج للبصل والزيتون، وخامس أكبر منتج للبنجر، وسادس أكبر منتج للتبغ والشاي والتفاح، وسابع أكبر منتج للقطن والشعير، وثامن أكبر منتج للوز، وتاسع أكبر منتج للقمح والجاودار والجريب فروت، وعاشر أكبر منتج لليمون. انظر: *http://ntvmsnbc.com/news/403824.asp*

في الاتحاد الأوروبيّ قريبًا، وعضويتها في الناتو ستظل خاضعة لأشكال من الفحص والدراسة من الأصدقاء والأعداء على حدٍّ سواء.

"يجب أن نعتمد على أنفسنا وعلى قدراتنا نحن بغض النظر عما إذا كنا نعتقد أن تلك القدرات قد جاءتنا من الله -كما يعتقد كولن- أو لا -مثل سارتر- وأن نرفض أن ننتظر من أي شيء أو أي أحد غيرنا أن يقوم بعملنا بدلًا منا، فإلقاء مسؤوليتنا على عاتق الآخرين يعني الحياة «بسوء نية» على حد تعبير سارتر، الذي يتشابه -بشكل مثير للدهشة- مع تقويم كولن لمن لديهم إيمان ولكنهم يرفضون المسؤولية، بأنهم يعيشون «بسوء نية»"(٧٧).

وغالب المشكلات في حياتنا الفردية والجمعية في رأي كولن سببها نظرتنا الأنانية للحياة، ويمكن للتعليم المبني على أساس القيم أن يعالج كثيرًا منها؛ وهو لا يتطلب نوعًا خاصًّا من التلقين المذهبي لأية أيديولوجية أو نظام سياسيّ قد يكون ناقصًا وغير ملائم لا يتفق مع روح العصر، فالتلقين المذهبي للتوجهات الاشتراكية أو الرأسمالية أو الدينية قد يكون خطرًا على حياة الفرد والمجتمع بل الدولة أيضًا؛ وصورة التلقين هذه لا يأذن بها الإسلام، وإنما للمسلمين أن يختاروا من المذاهب الفقهية ما شاؤوا، أما فرض طريقة تفكير ثابتة في علاج المشكلات الدنيوية فقد يؤدي إلى إفراز صعوبات لا لزوم لها، وهذا نقيض المبدأ القرآني القائل ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢/٢٨٦)، ﴿**يُرِيدُ اللّٰهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢/١٨٥)؛ ويبدو أن نجاح كولن في تنوير أناس استلهموا أفكاره أخلاقيًّا وتربويًّا قد صار حقيقة واقعة بتطبيق هذه القاعدة الذهبية المستمدة من جوهر دين الفطرة، يقول كولن:

(٧٧) د. جيل كارول: محاورات حضارية، ص ١٦٣، دار النيل – ٢٠١١م.

''إن بعـض النـاس ينظـر إلـى الإسـلام بوصفـه أيديولوجيـا سياسية، إذ كان أكبر قوة محركة في حروب الاستقلال التي خاضها المسلمون، فصار يعد أيديولوجيا للاستقلال، والأيديولوجية تميل إلـى الفصل، أمّا الديـن فهو -فضلًا عن الإيمان والرضا وسـكينة القلـب ويقظـة الضميـر- تنوير العقـل للإدراك عن طريـق الخبرة العمليـة، فالديـن بطبيعتـه يتعمّق في الفضائل الأساسـية كالإيمان والمحبة والرحمة والشفقة، فاختزالُ الدّين في أيديولوجيا سياسيّة صارمـة وأيديولوجية اسـتقلال جماهيرية نتجت عنـه حواجزُ بين الإسلام والغرب وسوءُ فهمٍ للإسلام''(٧٨).

كثيرٌ من المبادئ الإسـلامية لها تأويلات سياسـية متنوعة، ولكن هذا لا يختزل الإسـلام في أيديولوجيا سياسـية، فالركن الأسـاس في منظومة العقائد الإسلامية والأعمال القائمة عليها هو توجه البشر نحو الروحانيات، وتكريس أنفسهم لقضايا الإنسانية والسلام وتعظيم الله وتبجيله.

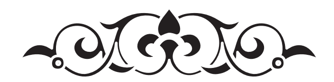
(78) *Gülen, Advocate of Dialogue, p. 244.*



الفصل الرابع:

المنهج القرآنيّ وتصوّر المجتمع المثاليّ عند كولن





المنهج القرآنيّ وتصوّر المجتمع المثاليّ عند كولن

ليس صعبًا أن تقرأ القرآن وتفهمه إذا عرفت اللغة العربية أو حصلت على نسخة تترجم معانيه إلى لغتك، ورغم سهولة فهمه للعارف بلغته إلا أن بعض العرب وإن كان يجيد العربية قد يواجه تحدّيًا حقيقيًّا في الوصول إلى مراد القرآن، وهذا يقع لمن يُعنون باستنباط المعاني الكلية دون عناية بفهم الجزئيات أو بفهم آية ما تحكي قصة أو موضوعًا أو أيّ أمر من رسالات الأنبياء، فالفهم الصحيح لآية بعينها يقتضي منك اطلاعًا وافيًا على النص القرآني، فقراءة آية بعينها دون معرفة كليّة بالقرآن قد تؤدي إلى فهمٍ خاطئ للآية لا سيما آيات الأحكام.

> "إن من لم يعرفوا القرآن الكريم بأسراره المكنونة فيه، ويعجزون عن الاقتناع بأن النبي ﷺ هو أَمْهَرُ غوّاصٍ في الأعماق القرآنية، هم أشقياءُ تائهون في أعماق أنفسهم -إن سميت أعماقًا-...
>
> فالقرآن مصدر له سرٌّ غاية في العمق ونقاءٌ غاية في الارتقاء، وثراؤه يفوق كل الأفهام، ويشعر قارئه بالأمان، وكلما اكتشف القارئ أفق فهم خاص شهد قوس نصر كأنه ألوان طيف يمتد دائمًا إلى نقطة أبعد من التي وصل إليها السالك. والتقوى هي المعنى السامي المستهدف لمصدر النور الفياض على الحياة من

مشكاة نور صنعت هذا الكون، ومن حظي بهذا ألفَى «سهولة وطلاقة فذة في قراءة القرآن وتفسيره»، ووجد فيه إشارة إلى مستوى ما فهمه''[(٧٩)].

يريد كولن أن يثبت أنّ كلّ فرد يستطيع فهم القرآن وفقًا لعمق أفقه في الفهم، وينبه على خطورة دعوى أناس أن القرآن كلّه واضح تمامًا لهم، وأن إدراك معناه الحرفي ليس بعسير؛ لكن المطلع على اللغة العربية يمكنه أن يجد عدة معان للفظة واحدة أو لآية واحدة، فكلمة ''اقرأ'' مثلًا أول كلمة أنزلت من معانيها التلاوة والتفكر والتدبر، فلكل كلمة عدة معان محتملة، فيقوم المفسر للقرآن بترجيح أحدها حسب فهمه للنص، ويرى كولن أن القرآن بوصفه كلام الله المنزل على نبيه ﷺ لا يستعصي على العقول البشرية تفسيره، وقيمة أي تفسير مردها إلى مستوى علم المفسر ونوعه ومهاراته وأفق إدراكه.

لقد برع المسلمون الأوائل في تفسير القرآن وتبليغ رسالة الإسلام العالمية وإصلاح الأمم الوافدة على الحضارة الإسلامية، وها هو كولن يدعو إلى تدبر القرآن، فهو عنده كالزهرة المتفتحة دائمة التجدد، فهو يتجدد بتفسيره وتحليله، ونحن أبناء زمننا، والزمن والظروف أدوات مهمة في تفسير القرآن، ومهما مر الزمن فالنص القرآني متجدد لا يشيخ أبدًا، بل يظل خضرًا خصبًا يفيض بمعانيه وأسراره التي لا تنتهي، ورغم مرور أربعة عشر قرنًا ما زال القرآن يكشف عن أسرار ومعانٍ لم تكن من قبل، وكلٌّ يدلي بدلوه في عالم القرآن حسب فهمه وتفاعله مع بيئته.

(٧٩) فتح الله كُولَن: سلسلة العصر والجيل-٧، أفق يلوح منه النور، نشر دار النيل التركية، إسطنبول ٢٠١٠م، (لما يترجم عن التركية)، ص ٢٨.

وليس لأحد أن يُبطِل أو ينتقص تفسير الآخرين، ولكن قد يُعد تفسير ما نقدًا لآخر، فمثلًا قد ترى بعض النسوة المسلمات أن من حقهنّ تفسير القرآن من منظور نسوي، إذ يرين أن معظم التفاسير جاءت لصالح الرجل ضد المرأة، ويذهب مفسرون آخرون مثل أسماء برلاس إلى أن القرآن يساوي الرجل بالمرأة أمام الله سبحانه وتعالى.

> "دع التيار النسوي، فأنا لا أرى أن خطاب القرآن يفرِّق بين الجنسين أو أنه يخاطب كلًّا على حِدة، فالقرآن كلام الله لا قول البشر، ولا أعني بالمساواة في الخطاب القرآني السمات القرآنية التي غُيِّبَتْ في تفاسيرَ ذاتِ صبغة ذكورية ولغةٍ متحيزة لجنس دون آخر"(٨٠).

هل يمكن لأحد أن يدعي أن بعض الآيات ذات نبرة ذكورية أو نسويّة والحال أن تلك الآيات موجهة للبشر جميعًا في جميع الأزمان؟ والأعجب تلك الدراسات عن القرآن لمفسرين مسلمين وغيرهم يسلطون الضوء على قضايا بعينها، ودراسات للمستشرقين تنتقي آيات بعينها لتدعيم فكرة يريدون توصيلها، فيوردون الآية في مواطن تخدم أهواءهم، ومن ثم يستطيع كلٌّ وفق رؤيته ودافعه الديني أو السياسيّ أن يجد تفسيرات وانعكاسات لأفكاره في الآيات القرآنية.

منذ أن بدأ كولن حياته واعظًا ومؤلفًا ومعلمًا لأناس من مختلف الأطياف حرص على تجنب أي تفسير أو تأويل أو فهم طائفي أو مذهبي للقرآن، ولطالما كرّر أنّ القرآن هو الكتاب الذي يجمع المسلمين، فهو هو المرجع للإسلام في العالم، ولطالما انبهر علماء الغرب بذلك:

(80) Asma Barlas, "Believing Women" in Islam: Unreading Patriarchal Interpretations of the Qur'an," University of Texas Press, 2002, pp.21-22.

"أمّا الأناجيل فلم تحفظ لغتها الأصلية، فاللغة التي كتبت بها أوائل نسخ الأناجيل الموجودة لغة مهجورة لا تستعمل الآن... وظل علماء الغرب أكثر من قرنين يفحصون القرآن فحصًا دقيقًا، غير أنهم فشلوا في إثبات أنه أصابه ما أصاب الأناجيل، لكنهم وجدوا أن المسلمين انقسموا -مثل المسيحيين- إلى طوائف وفرق متنازعة، ولطالما سعت طوائف المسلمين لتسويغ مواقفها بالرجوع لنفس القرآن"(٨١).

خلال أربعة عشر قرنًا كان الفقهاء يستنبطون الأحكام الشرعية من القرآن، واستدلوا به، واستنبط كثير من المفسرين معاني جمّة منه؛ وعدا هؤلاء قد ترى خلال تاريخ الإسلام الطويل فرقًا مسلمة أخرى حاولت الاستدلال لأفكارها وآرائها بالقرآن لإثبات موقفها بصبغة شرعية ضد خصمها، ولهذه الممارسة القديمة ضرر بالغ بهدف الإسلام الأهم والأسمى، وهو جمع المسلمين كافّة تحت مظلة واحدة هي مظلة السلام والأمن العالميّ للبشرية جمعاء.

قيمة العقل والفكر

من المشكلات الرئيسة في معاناة المسلمين منذ قرون جمود التفاسير لرسائل القرآن، وقصر التفاسير على تراث ضخم من آثار مبوّبة في موضوعات، أغلبها في المُثل والقيم حسب فهم العلماء لها، ولْأنوِّه أني لا أدعو لتفسير القرآن بالعقل والرأي دون الأخذ بالأحاديث النبوية؛ فالنبي ﷺ هو أول من فسروا القرآن وأحقّهم بذلك، ولكن على المفسر أن يتأمَّل تفسير النبي ﷺ لآيةٍ بعينها، ويرى كيف كان تفصيلُه فيها، وما إذا كان تفسيره لها واضحًا جليًّا لا يقبل التأويل أم لا؛ لكن هل النبي ﷺ فسَّر

(81) *Gülen, Questions and Answers about Islam, vol.1, pp.81-82.*

القرآنَ كاملًا؟ اتفق جمهور العلماء على أنَّ النبي ﷺ فسَّر مِن القرآن القدر الضروريّ، وهذا يعني أنه ﷺ ترك الباب مفتوحًا لمن يريد أن يفسر القرآن إلى يوم القيامة، ومن يفسر مطالب بإعمال عقله في النص للوصول إلى معان جديدة معاصرة خلافًا لمن يدعي إغلاق باب الاجتهاد، وهو ما أدى إلى ركود وجمود، وإلى هجوم المستشرقين والمغرضين:

"لا شيء يحول بين إعادة علاقة الوحي الإلهي بالظرف الاجتماعي، وذلك له أثره في تطور التراث، وقد عرف الناس المنطق الأرسطي، وانتقدوه بشدة لعدم توافقه مع تعاليم القرآن، ولذلك، وبما أن منظومة القرآن نفسها غير نظامية، فإن هيكل التشريع الإسلامي لا يمكن أن يكون نظاميًا، بأي مفهوم غربي، فالأدوات الفكرية ليست متوافرة أو على الأقل غير مسموح بها طبقًا للموروث الحضاري الديني"(٨٢).

إن القرآن يدعو العقلَ للتأمّل في آياته، والعالَمُ الذي يسودُه العقل والعلم والمعرفة يغدو فهمُ الرسائل الربانية فيه أفضل؛ والطاعنون في الإسلام إنما يحركهم تحاملهم عليه دون أن يبذلوا جهدًا، أو جهلهم بمناهج تفسير القرآن، فالمتخصصون في علوم القرآن يقومون بجهود عظيمة في تفسير القرآن وفق مناهج يتبعونها في تحليل قضاياه من منظور أعمق وأوسع ووفقًا للقواعد المنهجية الثابتة في التفسير، وليس في مناهج تفسير القرآن ما يتعارض مع أي من مصادر المعارف الإنسانية المهمة طالما لم يثبت أن هذه المعارف ضد البشر والطبيعة الإنسانية؛ بل إنه يشترط في المفسر أن يحسن مع العلوم الشرعية علومًا أخرى صارت ضرورية في التفسير اليوم كعلم الاجتماع والتاريخ وعلم النفس؛ والمسلم

(82) H. Patrick Glenn, Legal Traditions of the World, 2000, pp.173-74.

المثقف الفطن عليه أن يتعلم كيف ومتى يقبل أو يرفض نظريات أرسطو أو غيرها في ضوء ما إذا كانت مفيدة أو لا صلة لها بحلّ المشكلات؛ فمثلًا دَعَمَ أرسطو ثم الأمريكيون حتى وقت قريب الرقَّ بوصفه نظامًا أساسيًّا لتقوية الاقتصاد وتعزيزه، بل إن الوثيقة التاريخية للحريات ''ماجنا كارتا'' عجزت عن مساواة الرقيق بالحر في حقوق المعيشة، وعدّتهم سلعًا تباع وتشترى برغبة مالكيهم؛ ومع هذا فكثير من الغربيين المتطرفين لم يطرحوا سؤالًا مثل: لماذا لم توجد وثيقة أو دستور في كل المواثيق والدساتير الغربية منذ ماجنا كارتا حتى وقت قريب بمعاملة الرقيق معاملة أخلاقية آدمية كما في هذه الأيام؟

ما من نقدٍ غربيّ تقليديّ للقرآن إلا ويتسم غالبًا بهجمات مغرضة ضد مبادئ الإسلام إما لسوء فهمها وإمّا لسوء تأويلها مع إغفال زمن نزول الوحي ومكانه وأسبابه وأحوال العصر؛ ويتجاهل الطاعنون في الشريعة أن القرآن هو أول تشريع أرسى مبادئ المساواة بين الناس لا سيما العبد والمرأة لِما كانا يلقيان من نظرة المجتمع لهما، فكرّمهما الإسلام بإقرار آدميتهم بالتساوي مع الرجال في الروح الإنسانية التي يهبها الله برحمته للبشر أجمعين دون تمييز بين غني وفقير؛ وتبين المعاملة التطبيقية للمرأة والعبيد في حق الحياة والعمل والمعيشة والعبادة على عهد النبي ﷺ أن الهدف هو الحظر المطلق لأشكال الرق كلّها لكن بالتدريج دون إكراه مالك العبد على ما يكره؛ وخلاصة منهج النبي ﷺ في كلمة واحدة: «من كان عبدًا لله فليس لأحد أن يستعبده»، فالخلق كلهم عباد الله ﷻ، فمن ملك عبدًا حرم عليه ازدراؤه وإساءة معاملته ألبتة، فالنبي ﷺ وضع منظومة شاملة عملية لتحرير العبيد مهما كان الثمن كما يقول كولن:

''**الخطـوة الأولـى**: وضـع الشـرع قواعدَ صارمة في حسـن معاملـة الرقيق، ففي الحديث: ''**مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلْنَاهُ، وَمَنْ جَدَعَ عَبْـدَهُ جَدَعْنَـاهُ، وَمَـنْ خَصَى عَبْـدَهُ خَصَيْنَـاهُ**''[٨٣]؛ ''**لَا فَضْلَ لِعَرَبِـيّ عَلَـى عَجَمِيّ، وَلَا لِعَجَمِـيّ عَلَى عَرَبِـيّ، وَلَا لِأَبْيَضَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَبْيَضَ إِلَّا بِالتَّقْوَى**''[٨٤].

الخطـوة الثانيـة: مكّـن الإسـلام العبيـد مـن تحقيـق وعيهم وهويتهم الإنسـانية، بل لقَّنهم القيم الإسـلامية وغرس فيهم حبَّ الحرية، فعندما يحررون يجدون أنفسـهم مجهزين تمامًا ليصبحوا أعضـاء فاعليـن نافعيـن فـي المجتمـع، فيعملـون فـي الفلاحـة والأعمـال الحرفيـة والتدريـس وطلـب العلـم وقيـادة الجيوش، والحكم والوزارة ورئاسة الوزراء أيضًا''[٨٥].

كان عـلاج الإسـلام للـرق وراء دخول عبيـد كُثُر فيه فـي مجتمعات المسـلمين الأوائل؛ ومع ذلك يصعب فكريًّا ونفسـيًّا علـى العقل الغربي المـادي بـل العقل المسـلم العلماني أيضًا أن يفهـم الحكمة في المعالجة التدريجيـة للقضايا الخلافية في العصر الأول، وتُعَدّ حرب الإسـلام على الـرق وتأكيـد المسـاواة بيـن البشـر جميعًـا دون نظر إلى عـرق أو جنس أو نسب نموذجًا جليًّا كان هَدَفُ الإسلام منه إنشاءَ مجتمعٍ مثاليّ.

مَنَـح التطور الهائل فـي العلوم والتكنولوجيا الغـربَ فرصًا هائلةً في التقـدم والازدهـار، وهـذا مـن محاسـن الحضـارة الحديثة، غيـر أن هذه الحضـارة لا تهدف إلى شـيء سـوى تحقيـق المصلحة الشـخصية، حتى إنّهـا دمّـرت الحيـاة الاجتماعية والأسـرية وكل ما يحيط بنا فـي الطبيعة؛

(٨٣) سنن أبي داود، الديات، ٧٠؛ سنن الترمذي، الديات، ١٧.

(٨٤) مسند أحمد بن حنبل، ٣٨/٤٧٤.

(٨٥) انظر: فتح الله كولن: الرد على شبهات العصر، الإسلام والرق، ص ١٢٧-١٣٨.

ومـا حققته من مكاسـب مادية وهيمنة اقتصادية كان على حسـاب الدول الناميـة، وهـذا مـا قد حدث عبْـرَ التاريخ مـع شـعوب كثيرة سـنحت لها الفرصة للهيمنة على غيرها، وقد اتّهم بعض حكام المسلمين في مثل هذا بالإضرار بالآخرين وانتهاك حقوقهم، غير أنّ طغيان الدول المتقدمة اليوم لا مثيل له في تاريخ البشرية؛ فالخبرة التكنولوجية الهائلة أتاحت لعناصر غربية ذات مخططات شيطانية أن تخترق أي بقعة وتقوم بأعمال تدميرية، وبعض مَن يعادي الديمقراطية سرًّا في تركيا كاد -وا أسفاه- يصبح جزءًا من هذا المخطط المدمر، وهو يقوم على التحكم في الناس والتدخل في شـؤونهم الخاصّة؛ وما زالـت تركيا منذ صعود القـوى القومية والعلمانية المتطرفة تسعى جاهدة لتصبح جزءًا من أوروبا أو الغرب، لذا لم تستطع تركيا القومية تحديد هويتها أو انتماءها الروحيّ، وغفل كثير من المسلمين عـن أن الدعوة لإسـلام مقيد بحدود دولة دعوة معاديـة للوحدة والأخوَّة الإسـلامية؛ لـذا لم يـدع كولن ألبتـة إلى دولة إسـلامية أو ثورة إسـلامية فـي تركيـا أو فـي أي مكان آخر، بل حـثّ محبّيه على خدمة البشـرية في كل مـكان بالعالـم؛ وبيّـن أن تجربة تركيا الإسـلامية مـا كان لها أن تكون نفس تجربة إيران بعد الثورة الإسلامية؛ ومـع ذلك قام أعداء الديمقراطية داخل تركيا بملاحقة كولن، وحاولوا عزله عن محبِّيه وإرهابه دائمًا بقسوة ليتوقف عن تبليـغ دعوته السلمية القرآنيّة.

قـد نجـد بعـض المسـلمين لا يدركـون ألبتة عمـق الدعوة السـلمية القرآنية، فيتيهون في سلوك طرق مدمرة للانتقام من المحتلين وغيرهم من قوى الشر التي دمّرت العالم الإسلامي بشتى الطرق؛ لذا لم يتردد بعضهم في تحميل القوى الغربية المسؤولية القانونية والأخلاقية عن تدمير الدول

الإسـلامية، أمّا علماء الغرب فنظرتهم للقضية مختلفة تمامًا، يقول برنارد لويس مثلًا:

"المراقبـون الغربيـون وهـم مَـن هم فـي الوعـي بالحريات الغربية قولًا وفعلًا يرون أن كثيرًا من مشـكلات العالم الإسـلامي وراءهـا غياب الحريات كحريـةِ العقل من القيود والتلقين وحريتهِ في التساؤل والبحث والتعبير، وتحرير الاقتصاد من الفساد وسوء الإدارة، والمرأة من ظلم الرجل، والمواطن من طغيان الدولة"(٨٦).

هذا التحليل فيه سوء فهم لمكانة الحرية في الإسلام والقرآن، ورغم أن لويس من أشـهر الباحثين الأمريكيين في الإسـلام والشـرق الأوسـط إلا أن غالـب نقـده للإسـلام والمسـلمين معيـب أو ضعيـف الحجـة في ميزان المعايير العلمية؛ وهذا ما جعل إدوارد سـعيد يطلق على هذا النوع من التخصص «الاستشـراق»، إشـارة منه إلى عجز المستشـرق عن الفهم الصحيح لأي من المشـكلات الرئيسة في البلدان الإسلامية ودول العالم الثالث، فمن محض الكذب أن يدعي امرؤ مثلًا أنّه لم يكن لدى الجمهور التركي تحت الحكم القومي العلماني قدر كاف من الحرية ليفعل ما يشاء.

لقـد عانـت تركيا العلمانية من ظـروف اقتصادية حرِجـة قبل حكومة أوزال، وأفزع جمهورَها إفلاسُ جمهوريات في الاتحاد السوفييتي السابق، فاندفعوا يبحثون عن مخرج لمشكلاتهم الاقتصادية والروحية أيضًا؛ فجاء فتح الله كولن ليفتح باب أمل جديد بمؤلفات وخطب وصلت إلى عقول ملايين من الأتراك شـيبًا وشـبابًا، لقد دعا لإحياء حقيقي للروح الإنسـانية بتفسـيره للقرآن تفسـيرًا أعمق وأكثر اتسـاعًا في الأفق؛ ونجح في مهمته

(86) *Bernard Lewis, What Went Wrong? Western Impact and Middle Eastern Response, NY: Oxford University Press, 2002.*

بمـا أوتـي من علم جـمّ: فقد حفظ القرآن في صباه، واضطلع اضطلاعًا واسعًا بالحديث، ودرس كلًّا من العلوم الشرعية والعلوم الحديثة، وهو يتقن اللغة العربية أيما إتقان، وعلى دراية كبيرة بالروح الجمعية للناس، ففهم أسرار القرآن الكريم ليس مهمة يسيرة على عوام المسلمين، بل قد يؤدي غريب اللغة إلى غموض بعض معانيه خاصة تلك المتعلقة ببعض الأحاديث النبوية وبأسباب النزول.

وكما سبق[٨٧]، تكمن المشكلة في عدم الربط بين مقاصد الشريعة وعقوباتها، فمثلًا قد يندهش قارئ القرآن عندما يجد آية تأمر بقطع يد السارق والسارقة[٨٨] إذا لم ينظر لهذا الحكم في ضوء رسالة الإسلام الكلية؛ فضلًا عن أنّ «القطع» فُسِّر أيضًا بالحدّ من السرقة أو الحيلولة دون السارق وما يريد، ومع هذا قد يرفض كثيرون مثل هذا التأويل.

بعد جمع الأحاديث ظهر تعارض في نظر المجتهد بين الدلائل القرآنية والأحاديث التي جمعتها المدارس الفقهية المختلفة؛ ويلاحظ أن آيات القرآن يتجاوز عددها ستة آلاف آية، وآيات الأحكام منها بضع مئات، ففي ضوء التشريع العصريّ يتبين أن آيات الأحكام أقل بكثير من آيات التفكر التي تدعو المؤمنين إلى استكشاف الموجودات من حولهم؛ فكشف ما في أحكام الشريعة الإسلامية من خفاء ليس بالأمر السهل، فالأمر لا يقتصر على تفسير ميسر أو معقد للآيات أو الأحاديث؛ ويعبر نوح فيلدمان عن هذه العملية المعقدة لاستقراء تفسير القرآن وربط ذلك بتطبيق ما ينتج عنه من أحكام في إقامة العدل، فيقول:

(87) M. Ahsan Khan, Human Rights in the Muslim World: Fundamentalism, Constitutionalism, and International Politics, Carolina Academic Press, 2003, p. 110.

(٨٨) سورة المائدة: ٣٨/٥.

"يُحب جمهور المسلمين الشريعة الإسلامية ويرغبون فيها لارتباطها التاريخيّ بسيادة القانون، لكن هل تستطيع الشريعة أن تفعل هذا اليوم؟ هذا الأمر محل جدل، فالمشكلة تكمن في أن الدستور الإسلامي التراثيّ قائم على الموازنة بين سلطتين: السلطة التنفيذية لحاكم منقاد للتشريع، وسلطة تشريع يكون دور العلماء فيها تفسير القوانين وإدارتها، وقد فقدت حكومات غالبية الدول الإسلامية المعاصرة هذه السمات، فالحكام يحكمون وكأنهم فوق القانون وليسوا خاضعين له، والعلماء الذين كان لهم قدر كبير من النفوذ من قبلُ تَضَاءَلَ مركزهم، بل اقتصرت وظيفة القاضي الشرعي على الفصل في قضايا الأحوال الشخصية بمحاكم الأسرة"(٨٩).

تجنب كولن تلك القضايا الخلافية من مثل استعادة العلماء لسلطة التشريع، أو القيام على آليات إدارة الدولة مباشرة، وبدلًا من هذا دعا كولن إلى نظام حكم عادل وقضاء يقوم على نظام انتخاب ديمقراطي حقيقيّ؛ ولم يدّعِ كولن أن المتدينين وحدهم هم ضحايا الفساد والعبث الإداري بعد الاحتلال، بل يرى كل من عاشوا تحت حكم الطغاة كذلك، وأن الإسلام هو من يستطيع مساعدة البشر جميعًا دون نظر إلى جنس أو دين أو قومية؛ وأن تركيا بحاجة ماسة إلى عدالة حقيقية حتمًا، وهكذا الدول الإسلامية الأخرى.

"لا يمكن الحديث عن وجود عالم إسلامي إلا إذا تمكن المسلمون من التواصل مع غيرهم، والتوحد والعمل فيما بينهم أنفسهم على حل مشكلاتهم المشتركة، وقاموا بقراءة جديدة للكون وفهمه فهما جيدًا، وتأملوا في الكون وفق هدي القرآن،

(89) *Noah Feldman, The Fall and Rise of the Islamic State, New Jersey: Princeton University Press, 2008.*

واستقرؤوا المستقبل وأعدّوا له مشروعات حتى يتمكنوا من تحديد مكان لهم فيه"(٩٠).

يرى كولن أنه لا وجود للعالم الإسلامي العبقري الفاعل القادر على حل مشكلات عوام المسلمين الدنيوية الحقيقية، ولا يمكن في غياب هذه الديناميكية بناء مجتمع مثالي، ولا تخيل إسلام حقيقي؛ كان يدعو إلى هذا، وأغلب علماء الدين والنشطاءُ مُنهمكون أوَّلًا في أحاديث خطابية عن الفلسفة والعقيدة الإسلامية وأهدافها المتنوعة بحسب كل زمان؛ ولا تزال قيادات إسلامية كثيرة في العالم الإسلامي غير مدركة للأزمة الخطيرة التي تمرّ بها الأمة الإسلامية، وحاجتها لاتخاذ خطوات حقيقية لحل المشكلات المشتعلة، لا إلى خلق قضايا جديدة في نزاعات أيديولوجية أو عقدية لا تحلّها قرارات قاطعة كما يقع في أحكام القضاء.

كان حكام الشعوب الإسلامية سابقًا بحاجة إلى تشريعات السلطة القضائية المنفصلة المستقلة عن السلطة التنفيذية؛ لكن الاستدلال المتناقض بتوجيه النصوص أورث نوعًا من الفصل بين السلطات على مستويات متفاوتة من الدولة والحكم الإسلامي في العصر العباسي (٧٥٠-١٢٥٨م).

ودأب كثير من علماء المسلمين على إخفاء مشكلاتهم بدلًا من محاولة جادة لحلها، وهذا أمر متكرر عبر التاريخ منذ أن أغلق باب الاجتهاد، ولا يحجم كولن عن عرض هذه المشكلة المحورية في الاجتهاد، ويدعو إخوانه الدعاة للعمل على حل المشكلات بإعمال العقل مرة أخرى في

(٩٠) من حوار أجرته الصحفية التركية «نورية آقمان (*Nuriye Akman*)» مع الأستاذ فتح الله كولن، نشر في جريدة «زمان» التركية في تاريخ ٢٢ آذار/مارس ٢٠٠٤م.

ضوء الكتاب والسنة؛ ولم يُلقِ في هذا الشأن باللائمة على طائفة معينة، بل كان يعتب على كل القادة والدعاة الإسلاميين ممن يمثلون الأمة الإسلامية بثقافاتها المختلفة؛ ويرى أن هذه المشكلات الفكرية التي تعاني منها الأمة الإسلامية الآن مثل الجمود والعداوة المدمرة والكراهية الشديدة بدأت منذ نحو ألف عام، ثم ظلت تبتلع الأمة الإسلامية شيئًا فشيئًا كداء عضال:

"بدأت هذه الحالة منذ العصر العباسي أو منذ ظهور السلاجقة على ساحة التاريخ، وبدأت تصبح هكذا بعد فتح إسطنبول، وهي حقبة نقدرها، ثم تلاها إغلاق الأبواب أمام تفسيرات جديدة للقرآن، فضُيّقت آفاقُ الفكر ورحابةُ روح الإسلام وفضاؤها، وطفا على السطح كثيرون في العالم الإسلاميّ من موتى الضمير سَمْتُهم الغضبُ ورَفضُ الآخر وعدمُ الانفتاح عليه، أناسٌ فضلوا أحزابهم كوسائل ومطايا على الغاية، وامتد هذا الضيق إلى التكايا والزوايا والمدارس الدينية بكلّ أسف؛ والمبادئُ وتفاسيرُها بحاجة طبعًا إلى عمليّات مراجعة وتجديد يقوم بها المتخصصون كلٌّ في مجاله"(٩١).

رغم كلّ الانتقادات المعترضة على وجود أربعة مذاهب فقهية إسلامية -زِدْ على ذلك المذهب الجعفري الشيعي- إلا أن تعدد مناهج الاستنباط نجح في تحفيز المجتمعات الإسلامية على المنافسة في الاجتهاد في المذهب ونشره وتطبيقه، لكن صلة هذه المدارس بأجهزة الدولة وتعاونها معها كانت انتقائية متدرجة، وقد يعجب بعض الناس من أن أتباع المذهب الحنفي والمالكي طوروا رؤيتهم الخاصة بمصادر التشريع الإسلامي بعيدًا عن تدخل الدولة الحاكمة، بل تعرض أغلب أئمة المذاهب الفقهية

(٩١) من حوار أجرته الصحفية التركية «نورية آقمان (*Nuriye Akman*)» مع الأستاذ فتح الله كولن، نشر في جريدة «زمان» التركية في تاريخ ٢٢ آذار/مارس ٢٠٠٤م.

فـي مراحل من حياتهم للاضطهاد على يد الحكام المسـلمين لِما واجهته النخبـة الحاكمـة من تفسـير هؤلاء الفقهـاء للنصوص، ثـم قامت النخب الحاكمة في بلدان كثيرة بتبني مذهب معين للتشـريـع، وأشـهر مذهب في معظم البلدان المذهب الحنفي، ويتميز المذهب الحنفي بأنه الأدق صياغة ومنهجية في موضوع تسـوية النزاعات، ويعمق الشـعور الإيماني العام في العبـادات؛ وكولن حنفي المذهب لكنه غير مُتزمّت ألبتة، بل سـمته الرفق وسعة الأفق، وهذا ما جعل كثيرًا من الأتراك شيبًا وشبابًا يأخذون بالتراث الإسلامي وقيمه بجديّة؛ لكن كولن لا يدعو إلى اتباع مذهب فقهي معين علـى مسـتوى الدولـة، ولا إلى إحيـاء النظـام القضائي بصورتـه القديمة بوصفه هيئة مسؤولة عن تطبيق الشريعة الإسلامية وإقامة العدل؛ ويحرص أشد الحرص على ألا يضـع أي مفهوم أساسي للعدالة الإسلامية في غير موضعه في سـياق عملية الفكر السياسي للمسلمين، وهذا ما ميَّزه من بين مفكري الإسلام وعلمائه المعاصرين.

"ذكرت مجلة الإيكونومست أن «الحركة ذات الأصل التركي تبدو أكثر قبولًا وتعقلًا من مثيلاتها، فهي تنافس على لقب التنظيم الإسـلامي العالمـي الرائد»؛ وقارنـت المجلة بيـن حركة الخدمة والجماعات الإسلامية الأخرى في العالم مثل الإخوان المسلمين وحزب التحرير وجماعة التبليغ والدعوة آسيوية المنشأ، فتميزت عندها حركة الخدمة بأنها لم تدع إلى مسـتوى معين من الانعزال عن الحياة السياسـية الغربية، وتقدم رسـالة أكثر إيجابية للشـباب المسـلم؛ «وتشـجـع الشـباب علـى الانفتـاح علـى فـرص العالم الغربيّ، وتُعنَى بالثوابت الإسلامية»"[٩٢].

(92) http://www.economist.com/node/10808408

تعـد حركـة الخدمـة الفكرية حركة فريـدة من نوعها؛ لأنها لا تسـتفز أعداءها في الفكر، ليتخذوا موقفًا عدائيًا عنيفًا ضد من يدعمونها، وليست حركة سياسـية، فمثلًا لم يذكر كولن ألبتة أن تركيا بحاجة إلى إحياء نظام القضـاء الإسـلامي الذي يتمتع فيه علماء الشـريعة بسـلطة سياسـية عليا لإقامة العدل، غير أن دعوة كولن لإقامة العدل والمساواة وفقًا للنصوص الشـرعية معروفـة للجميـع؛ ويـرى خلافًا لكثير مـن علماء الإسـلام أنه لا خـوف مـن تأمل أسـرار النـص القرآنـي أي معانيه الباطنـة، فلن تطبق الرسـالات السـماوية بنجاح في حياتنا دون إعمال العقل البشـري والفكر المبتكـر مع مراعاة أسـباب النزول، وربط النص بالواقـع الحالي، وبهذا النهج الفكري يُفسَّر تطور الفقه والاجتهاد في صدر الإسلام؛ وعلى ذلك فالنـص القرآنـي عمومًا لا يفرض صورة محددة لنظـام الدولة كما يفصل كولن ذلك بوضوح، يقول:

"ونحن نجد في القرآن آيات كثيرة متعلقة بالحكم والسياسة، ومثلها في سنة النبي ﷺ، كذلك نجد مصطلحات قرآنية مثل «أولو الأمر» و«الشـورى» و«الحـرب» و«الصلح» كلُّهـا تتعلق بالحكم والسياسية.

ومـع هذا فإنه ليس من الممكن في الإسلام أن يحصر مفهوم الحكـم والسياسـة في نمـوذج واحد، على عكس مبـادئ الإيمان وأركان الإسـلام، ويعرض تاريخ الإسـلام لنا -منذ عهد الصحابة رضـوان الله عليهـم أجمعيـن- أشـكالًا كثيـرةً مـن نظـم الإدارة والحكـم"[٩٣].

(٩٣) السلام والتسامح في فكر فتح الله كولن، إشراف أ.د. زكي ساري توبراك، ص ١٢٨، دار النيل – ٢٠١٤م.

ودور علماء الشـريعة في إدارة شـؤون الدولة محدود، أما في تفسـير نصوص التشـريع فالتاريخ الإسـلامي حافل بعلماء نالوا حظوة كبيرة في هـذا؛ فبعـد ظهور المذاهب الفقهيـة كان ينظر إلى تفسـير النصوص على أنهـا أهـم خدمة للدين عِلمًـا أن أئمة المذاهب الفقهية أنفسـهم لم يؤلفوا تفاسـير للقرآن الكريـم بالمعنى الاصطلاحي؛ وأدَّى تفسـير آيات متفرقة دون مراعـاة السـياق وسـائر آيات القرآن إلـى لغط واضطـراب كبير بين المسـلمين، ولم يأت ذلك بحل لمشـكلات الدين والسياسة؛ تقول أسماء بارلاس في هذا:

"تسـببت هـذه التفاسـير في الحدِّ مـن أثر القـرآن في معظم المجتمعات الإسلامية اليوم، إذ لم يقتصر أثرها السلبي على إفراز مـا ظاهـره التعارض بيـن النصوص الشـرعية بل امتـد إلى تقديم التاريخ والسياسـة والثقافة على النص، بل إلى اسـتبدال تشـريع القرآن عن المرأة بأيديولوجيات العصور الوسطى العابرة للثقافات والقوميات عن المرأة والجنس"(٩٤).

واليوم يقرأ ملايين المسلمين عربًا وعجمًا القرآن، ولا يُقدِم أحد على محاولة استكشـاف أي معنى جديد محتمَل للنص، ظنًّا منهم أن كل شيء قد فسـر فعلًا واسـتقر على ذلك، وأن القرآن فُسِّـر لهم بوضوح، بل نجد أن غالبيـة الدراسـات القرآنية لا تهتم كثيـرًا بالتراكيب والمبـادئ اللغوية والعلاقات أو الروابط الأساسـية بينها، فغابت روح الرسـائل القرآنية عن العامة بغياب التركيب البديـع الشـامل بين المبادئ القرآنية وعلاقات هذه المبادئ ببعضها.

(94) Asma Barlas, "Believing Women" in Islam: Unreading Patriarchal Interpretations of the Qur'an," University of Texas Press, 2002, p.9.

ومن مظاهر هذا الجمود في الفكر الاعتقاد السائد في عدة مجتمعات إسلامية بأن علينا اتباع الخلفاء والأئمة الأوائل دون نقد لما وردنا عنهم، علمًا أن الإسلام لا يعطي العصمة لقول أحد إلا للنبي ﷺ، فالتقليد الأعمى ليس من ديننا، وهذا يبين أهمية الشروح والتفاسير الظاهرة والباطنة للرسائل القرآنية لسبر أغوار أسرار الرسالة المحمدية للبشرية جمعاء، والنص التالي يضيء هذا الجانب:

"عندما يبلّغ النبي ﷺ عن ربّه ﷻ ويبين أمور الدين فمصدره في ذلك كله هو الوحي، أما أفعاله في السياسة فلا يتعين الأخذ بها إذا لم تصدر عن وحي لارتباطها بإدارة الموقف وسياسة المجتمع في زمان ومكان وظرف معين، فأفعاله بوصفه حاكمًا لدولة كانت تصدر عنه باجتهاد منه؛ والدليل أنه كان يستشير الصحابة رضي الله عنهم في ذلك، فلو كانت إدارته لشؤون الدولة وحيًا إلهيًّا لما استشار أصحابه، لكنه كان يصغي إلى آرائهم، ويستشير الخبراء، ويتأمل الأمور ويناقشها، ويُجمع الفقهاء أن الشعب هو الأصل في شرعية الدولة، فالنبي ﷺ نفسه توفِّي ولم يُنصِّب أحدًا خليفة له على المسلمين، بل ترك الأمر للناس لا ليختاروا من يريدون فحسب بل ليحددوا آلية هذا الاختيار أيضًا، وتلك سابقة دستورية أسس لها النبي ﷺ قبل وفاته"(٩٥).

ولما سيطر بنو أمية سياسيًّا وعسكريًّا (٦٦١-٧٥٠م) خالفوا هذا النهج النبوي، لكنهم لم يفلحوا في تغيير شيء من الأحكام المنصوصة التي تمنع الحكام أو رؤساء الدول من الاستبداد بالحكم أو احتكار السلطة، ثم غيّر العباسيون اتجاه سير هذا الحكم المطلق، لكنهم لم ينجحوا في

(95) Saadedine El `Othmani, «Islam and Civil State,» In: http://www.islamonline.net/Englishcontemporary/2005/10/article03.shtml#1

تطبيق مبادئ النهج النبوي للحكم في ضوء روح القيم الإسلامية الحقيقية، فظهر نوع من التعددية السياسية واستمرت حتى سقوطها النهائي في عام ١٢٥٨م، ومرد تلك التعددية إلى ظهور المذاهب الفقهية السنية والشيعية، وظهور الكتب الستة في مرحلة مبكرة من الخلافة العباسية.

في ظل مناخ التعددية السياسية أيام العباسيين استطاع الفاطميون الاستيلاء على سلطة الدولة في مصر (٩٦٩-١١٧١م)، وعلى بلاد الحرمين الشريفين مكة والمدينة؛ ورغم محاولات مستميتة من بغداد معقل الخلافة العباسية للإطاحة بدولة الفاطميين في مصر، إلا أنّ أحدًا من الفريقين لم يصف الآخر بأنه حاكم غير شرعي أو عدو الإسلام؛ وصار في ظل الدولة الفاطمية أهم المنارات العلمية للشيعة والسنة، وظلت بغداد مركزًا للسلطة السياسية والعسكرية للأمة الإسلامية بأسرها حتى عام ١٢٥٨م.

ويمكن القول بأن النزاعات الفكرية بين السنة والشيعة يومئذ جعلت عامة المسلمين يطورون فهمًا أكثر وعيًا وعمقًا للنص القرآني، ولم نر في العرب من يحاول الترويج لقومية أو عرقية في «ثوب إسلامي». نعم، لم تكن محاولات صبغ تفسيرات للقرآن بصبغة عرقية أمرًا جديدًا في التاريخ الإسلامي؛ فحدّة القومية في القرن التاسع عشر أنتجت تفاسير للقرآن ذات صبغة قومية عربية أشد من أيام الدولة الأموية بدمشق (٦٦١-٧٥٠م) والدولة العباسية ببغداد (٧٥٠-١٢٥٨م)؛ فالعرب رضوا عمومًا بقيادة العثمانيين السياسية والعسكرية من القرن الرابع عشر حتى التاسع عشر، ولما ظهر نظام الدولة القومية الحديثة، شهد التاريخ منهجًا جديدًا لدراسة القرآن وقراءته، وأُغفل الجانب الروحي للنص، ويرى كثيرون أن

الفقيه الحنبلي ابن تيمية (ت ١٣٢٨م) أسس منهجًا قويًّا للتفسير يعتمد ظاهر ما تدل عليه اللغة، بينما أسس مولانا جلال الدين الرومي (١٢٠٧-١٢٧٣م) منهج القراءة الباطنة للنص.

هذا الفصل بين القراءة الظاهرة والباطنة للنص عريق في القِدم، ومرده إلى أن دراسة النص القرآني تفترض أن كلّ امرئ بوسعه أن يستنبط من معاني القرآن الكريم حسب قدرته على فهم مراد الله من النص؛ والمعضلة هنا أن يعتقد أحد المفسرين أنه الأكفأ في استنباط المعاني الباطنة لرسائل الآيات القرآنية لمهارات لغوية أو تحليلية يختص بها؛ ورغم أن مثل هذا الكبر والجهالة حرمهما الإسلام، إلا أن بعضهم ادعوا أنهم الأعلم بطرق التمييز القاطع المحدد بين مسلم مؤمن وآخر منافق،

مثل هذا المنهج يضع أناس فيه أنفسهم موضع المشرِّع، فيُفهِمون الناس أنّ فضل الله لا حدود له، وأن أبواب رحمته واسعة، وأن كلًّا منهم يستطيع الاستفادة من كلّ الطرق الأرضية أو السماوية لتزكية نفوسهم، ويوظِّف هؤلاء الآياتِ القرآنية لتحديد أفعال قد تُعَدّ شركًا جزاؤها جهنّم مثل جزاء أكبر الكبائر وهو الشرك بالله، ويضمنون لأنفسهم الجنة، وقد لا يترك مثل هذا المنهج أثرًا كبيرًا لو اقتصر على تناول هذه القضايا عقائديًّا فقط، لكن المشكلة أنهم يقحمون هذا المنهج في التشريع والسياسة لشنّ حرب ضروس ضد كلّ من يصفونهم بالعصاة والفاسقين.

ولعلّ التجاهل أو الجهل بالتمييز بين الجريمة والخطيئة وراء موقف كثير من علماء الدين المناقض لروح الإسلام، أعني بموقفهم رسمَهم لخطوط فارقة قاطعة بين من سيدخل الجنة ومن سيدخل النار، فإنهم يقولون إن الإسلام نظام سلوك متكامل من المهد إلى اللحد، لذا لا يقبل

أي نظـام قانـون متـوارث مـن مصادر أخـرى. إن هذا منهـج أيديولوجي صرف، ولا يصلح أسلوبًا قرآنيًا تشريعيًّا لاستنباط أنظمة تشريعية يستطيع المسلمون تطويرها أو تغييرها لتحقيق السعادة أو الحياة الكريمة في الدنيا، رغم أن كبار علماء الدين يرون أن تغيير القوانين هو سـبيل تقليص الهوة بين مفهوم الخطيئة ومفهوم الجريمة.

وهنـا نـرى مـدى تميـز خطـاب كولـن فـي مسـألة الخطـاب الديني والسياسـي وفـي تجنبـه لتفضيل قوميـة معينة على أخـرى، وهو لا يدعي أن بمقدور شـعب ما أو دولة ما إحداث تغيير في المناخ الإسـلامي العام والقيـم الدينيـة داخل الحـدود وخارجها، فهـو لا يرى إمكانيـة بناء دولة إسـلامية داخـل نظـام الدولة القوميـة الحديثة، وهذا يوضّـح تقدير كولن واستيعابه الكامل في أفكاره وكتاباته لعملية العولمة وتداعياتها:

"وسـائل الاتصالات والمواصلات تطـورت بدرجة خيالية؛ فحولت العالم إلى قرية عالمية كبيرة في يومنا الحاضر، فمن يظن أن أي تغيرات كبيرة في بلد ما إنما يحددها هذا البلد وحده وأنها ستظل محصورة فيه لا يدركُ الواقـع إدراكًا جيدًا، فنحن نعيش في زمان تتفاعل فيه العلاقات وتتكامل، وتحتاج فيه الشعوب والأمم باطـراد إلى بعضها بشـكل أكبـر، فتتقارب وتبنـي علاقات متبادلة بينها"(٩٦).

إن وجود آلية قانونية وسياسـية سـليمة تضمن معيشة كريمة للجميـع شـرط أَوّلي لإقامـة مجتمـع صحـي، وفقدانها يوقِـع المجتمعات فريسـة سـهلة للجرائم المتوطنة والانحطاط الأخلاقـي، وهذا ما حدث ويحدث فـي عـدة دول إسـلامية معاصـرة، ومـا زالت معظـم المؤسسـات الدينية

(٩٦) فتح الله كولن: الحب مكنون في روح الإنسان، «الحوار مع أهل الكتاب»، ص ١٩٥ (لما يترجم عن التركية).

تتجاهل هذه القضية الحيوية -وهي تتمثل في تحقيق العدالة التي جاء بها الإسلام- وتستهلك طاقاتها في مناقشات عقدية لا تنتهي.

ويلاحظ درموند أن الحقّ في هذه المعاني «إن الله لا يغفر أن يشرك به» و«الشرك من أكبر الكبائر»، غير أنها كغيرها مستقاة من آيات ينبغي أن توضع في سياقها الأعم يعني في سياق رحمة الله وعفوه، فالله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب قبل موته[٩٧].

هدف القرآن الكريم الوصول إلى رحمة الله ﷻ وهدايته، وإذا بأناس يوظِّفونه لاستنباط سائر الأحكام والمبادئ الشرعية للوصول إلى السلطة وإلغاء الأحكام غير الإسلامية أو المغايرة لها في أي مجتمع، وهذا يناقض جوهر المبادئ القرآنية، فالدين ليس حرسًا مسلحًا يقضي على من ارتكب ذنبًا من المسلمين وغيرهم؛ فأساس العدل في القرآن الكريم حماية المصلحة العامة، والفقهاء مختلفون في تحديد إحداثيات المصالح العامة، ورأوا أن بعض فرض العين هدفه المصالح العامة، والأكثر تقديمًا للمصالح العامة هم المالكية والحنفية، أمَّا الشافعية والحنابلة فمالوا إلى تقديم حقّ الفرد[٩٨]؛ ولما كان كلّ امرئ هو وحده المسؤول أمام الله عن أفعاله ظهر أنّ اهتمام الفرد بالمصلحة العامّة لا يمكن أن يحدِّد ما يستحقه المرء في الدارين من جزاء، فإذا غابت البيئة الاجتماعية القادرة على إحداث التواصل المجتمعي غدا مبدأ تقديم حقّ الفرد إشكالية أو لا صلة له بالوجود الإنساني والحياة أحيانًا، والرسائل القرآنية إنما جاءت لتحدث توازنًا بين حقّ الفرد والمصلحة العامّة.

---

(97) Richard Henry Drummond, Islam for the Western Mind: Understanding Muhammad and Qur'an, Hampton Roads Publishing Co., 2005, p.62.

(98) See Dominique Soudrel, Medieval Islam, London: Routledge, 1979, pp.59-61.

لم يكن صدفة أن أول من بادر إلى اعتناق الإسلام عبيد ونساء وفقراء الجزيرة العربية، فهؤلاء سارعوا لحمل الرسائل القرآنية لأنها عدلٌ كلّها؛ ولم تكن العرب يومئذ تحتاج لمن يفسر القرآن بل ما إن يتلى عليهم حتى يفهموا[٩٩] جوهره ويدركوا أثره على حياتهم وعقيدتهم، ويشهد التاريخ أن المسلمين الأوائل عربًا وعجمًا استطاعوا تطبيق جوهر مبادئ القرآن، ولم يُشغَلوا بالمماحكات اللغوية في فهمهم له؛ وكولن محق في قوله:

> "وبينما كان القرآن الكريم يستهدف التخلية من آلاف الخصال السيئة، كان يضطلع أيضًا بالتحلية بحميد الخصال وتزيين الناس بالأخلاق القرآنية العالية، وهيّأ الناس لقبول هذا كلّه دون أن يبتذل أحدًا أو يجرح مشاعره أو يثير في نفسه ذعرًا أو يلحق بروحه أي أذى، فمعظم القضايا التي نزل بها القرآن تدرّجت على مراحل متنوّعة ثم أخذت مكانها في التطبيق، وإن تطبيقَ شيء يسير منها في الحياة العملية اليوم ليتطلب أضعاف تلك الفترة (ثلاث وعشرين سنة)، كانت تلك الفترة ضرورية ليتقبل الإنسان إذ ذاك أوامر ونواهي تتطلب وقتًا لتطبيقها، ولإلغاء أمور ووضع وتأسيس أمور أخرى مكانها"[١٠٠].

وقد شهد المجتمع القبلي في الجزيرة العربية على عهد النبي ﷺ إصلاحات شاملة في المجالات التشريعية والاقتصادية والاجتماعية، فتضاءلت السياسات القبلية، وقد يعجب أناسٌ من اختلاف الإسلام عن الأيديولوجيات والديانات الأخرى في تناوله لقضايا كثيرة منها قضايا المرأة والقضايا العرقية في زمن لم تكن البشرية قد حققت فيه النضوج

(٩٩) تقوم العقيدة الإسلامية على الإيمان بأن القرآن كلام الله المحفوظ الخاتم الذي أنزله الله على الرسول ﷺ للبشرية جمعاء لنشر نموذج شامل من الخلاص الروحي والدنيوي لجميع الرجال والنساء.

(١٠٠) فتح الله كولن: نحو عقيدة صحيحة، ص ١٠٦.

الفكـري الذي نشـهده اليوم. نعم، الإسـلام ليـس كغيره لشـموله نواحي الحيـاة كافّة وتشـريعه فـي قضايا السياسـة والحياة، لكن القـول بأنه قائم على بعض المفاهيم السياسـية فقط جهل محض بالحقائق الداخلية لدين عالمي، وفي حديث القرآن عن السياسة وإدارة الدولة يقول كولن:

"وليس من الفهم الصحيح للإسلام الادعاءُ بأن السياسة أصل جوهريّ من أصول الدين وأنها من بين أركانه الثابتة، ربما يسـوق بعـضَ الناس إلـى مثل هذا النمـط في التفكير وجهـةُ نظرهم إلى السياسـة ونظام الدولة وأشـكال الحكم، أو آراؤُهم وحساسياتهم في الأمور الإسلامية، أو حصرُ تفكيرهم في الخبرة التاريخية فقط، أو اعتقادُهم بأن مشـكلات المجتمعات الإسلامية لا يسهل حلها إلا مـن خلال السياسـة والحكـم، وكل هذه المداخـل لها معناها داخل إطار سياقاتها، إلا أن الحقيقة ليست محصورة فيها.

ورغـم أن المـرء لا يمكنه تجاهـل تأثيرات الحكـم والإدارة في تنظيم العلاقات المجتمعية بين الأفراد والأسـر والمجتمعات، إلا أن هـذه التأثيـرات تُعتبـر قضايا ثانويةً في سُـلّم القيم القرآنية؛ وهـذا لأن القيـم التي نسـميها «الأمهات» مثل الإيمان والإسـلام والإحسـان والأخلاق الربانية، هذه الأمهات هي المرجعيات التي تشكل جوهر القضايا الإدارية والاقتصادية والسياسية.

إن القـرآن ترجمـةٌ أزلية للأوامـر التكوينية، وتفسـيرٌ لعالمي الغيب والشـهادة، وشرح للأسماء الإلهية الحسنى التي تتجلى في السـموات والأرض، ووصفة لعلاج المشاكل المتعددة في العالـم الإسلامي، ودليل فريد لسعادة الدارين، ومنبـع حكمة للإنسانية... فـلا ينبغـي أن يهبـط هذا الكتـاب العظيـم إلى مسـتوى الخطاب السياسـي، كمـا لا ينبغـي أن يُعدّ كتابًـا حول النظريات السياسـية أو أشكال الدولة؛ إن اعتباره أداةً للخطاب السياسي يمثل استهانة

كبيرة به، كما يمثل في نفس الوقت عقبة تمنع الناس من الاستفادة من هذا النبع العميق للرحمة الإلهية.

ولا شك في أن القرآن الكريم قادر، من خلال إثرائه للروح البشرية، على بث الإلهام للسياسيين الحكماء لمنع تحول السياسة إلى مقامرة أو مجرد لعبة شطرنج"(١٠١).

والمؤسف أن عددًا من علماء المسلمين يتجاهلون أن التأكيد الشديد على الأبعاد السياسية للإسلام قد يورث اضطرابًا في أساس الحضارة والتشريع الإسلامي وهو المعاني الروحية الجوهرية في الإسلام.

روح السلام في الإسلام

ترغب الحضارات والمعتقدات الدينية بحماية نفسها من قوى الشر والسوء التي تستهدف تدميرها، والإسلام ليس استثناءً من هذه القاعدة، فبعض الآيات والأحاديث تشرع استخدام القوة بحدود ضد أعداء الحق والطبيعة والبشر، وإلا فأتباع الباطل سيدمرون البشرية وحضارتها.

يعرّف محمد أسد في تفسيره لسورة التوبة ﴿**وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ (سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٦١/٩) أعداء الإسلام بأعداء الحق(١٠٢)، وينبّه القرآن المؤمنين مرارًا أن الأعداء لا ينقطعون أبدًا، فعلى المسلمين كما في قول الله تعالى ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ**

(١٠١) السلام والتسامح في فكر فتح الله كولن، إشراف أ.د. زكي ساري توبراك، ص ١٣٠-١٣١، دار النيل ٢٠١٤م.

(102) The Message of the Qur'an, Complete Edition, Translated and Explained by Muhammad Asad, Gibraltar: Dar Al-Andalus, 1980, p.270.

وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ٨/٦٠) أن يحذروا أعداء الحق دائمًا، ويُعدّوا لهم ما استطاعوا من قوة؛ وهذا الاستعداد إنما هو للردع، لتتحقق حالة من السلام الدائم؛ وتأمر الآية التالية المسلمين بأن يجنحوا للسلم إذا ما جنح العدو إليه، وفي تفسير هذه الآية يقول علي أونال: "تنص الآية على مسالمة المسلمين، وأنه ينبغي أن يعيشوا في سلام، وأن يكونوا ممثلي السلام العالمي"(١٠٣)؛ بل إن مبادئ الإسلام ومنها قاعدة الردع لحفظ ميزان القوى هي أساس «العمل الإيجابي» الذي لا يقف عند تحاشي العدوان الظالم بأشكاله، فالمسلم ممثل للسلام حقًّا، يعامل بكلّ طيبة ومودة المسلمَ وغيرَ المسلم إذا لم يصدّه عن دينه، يقول تعالى: **﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللّٰهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾** (سُورَةُ الْمُمْتَحَنَةِ: ٦٠/٨).

بناءُ السَّلام الدائم أساسٌ في دينٍ يُحرِّم أشكال الظلم والعدوان جميعًا، فرُوح السلام الإسلامية تنبذ العنف أو التصادم مع الحضارات أو الديانات الأخرى، وتقتضي من المسلمين تبليغ الرسائل الإلهية بسلام لإعلاء الحق وتحقيق الرخاء وتنوير البشر جميعًا بهذا النور؛ لكن تأثير القومية الحديثة عرَّض المبادئ الإسلامية والنصوص الشرعية لتأويلات مضللة، وليس هذا هو السبب الوحيد في تردّي المسلمين في العصر الحديث؛ فالقراءة الخاطئة للرسائل القرآنية وللتاريخ الإسلامي المعاصر لها أثر بالغ الخطورة على عقل المسلم وروحه في هذا العصر، وهما محور تشكيل الوعي السياسي والفكري الإسلامي؛ مثال ذلك أن من علماء المسلمين مَن استدلّ بآيات القرآن ليقول: نشأة إسرائيل

(103) Ali Ünal, The Qur'an with Annotated Interpretation in Modern English, New Jersey: The Light, 2006, p.380.

أو المجتمعات العلمانية المسلمة دليل قاطع على تدهور المسلمين وعلى الفشل العسكري للدول الإسلامية، وقيام باكستان «الإسلامية» أو المملكة السعودية أكبر نعمة على الأمة الإسلامية كلّها!

وهنا حاولت بعض القوى القومية التخلص من هذه القراءات الخاطئة للآيات القرآنية بحظر استخدام الدين في السياسة، فاستوردوا المبدأ الدستوري الذي يقضي بفصل الدين عن الدولة وروّجوا له في وسائل الإعلام وقنوات الرأي العامّ دون وعي بما يمكن تطبيقه من هذا المبدإ؛ واختارت العلمانية المتطرفة في بعض دول العالم الإسلامي تَبنّي دعاية إلحادية قسرية وعدائية للإسلام لتتمكن من هزيمة القوى الإسلامية في الصراع على السلطة السياسية، بل استُخدمت العلمانية لتسويغ كثير من حالات القتل والتعذيب الممنهج في السجون في أنحاء العالم الإسلامي قاطبة؛ فأدى استيراد العلمانية على مستوى الدولة والحكم إلى إشعال جذوة التدين في عدّة مجتمعات إسلامية، وصارت العلمانية مرادفًا للاحتلال عند كثير من المسلمين، وقد أعطى الإسلام أتباعه الحق في محاربة قوى الاحتلال، ومنذ نهاية الاحتلال الأوروبي العسكري استُخدم الإسلام لهزيمة الحركات الشيوعية في عدة بلدان إسلامية؛ وفي هذا السياق التاريخي علينا أن نحلل اتجاهات الحركات الإصلاحية أو الجهادية في استخدامها للآيات القرآنية، فقد لاحظ «ديفيد بروكس» الكاتب بجريدة نيويورك تايمز أنّ الغالبية العظمى من الراديكاليين متعلمون وأثرياء ومهنيون وعصريون، يقول:

"عرفنا كثيرًا عن الجهاديين بدءًا من أسامة بن لادن وانتهاءً

بأوروبيين هاجموا قطارات لندن الشهر الماضي[١٠٤]، ووفقًا لقاعدة البيانات التي جمعها مارك سجمان الذي كان يعمل سابقًا بـ«سي آي إيه» نحو ٧٥٪ من الإرهابيين المعادين للغرب من عائلات الطبقة المتوسطة أو العليا، و٦٥٪ منهم جامعيون، و٧٥٪ منهم يعملون في وظائف مهنية أو شبه مهنية خاصة في الهندسة والعلوم، وسواء كانوا في مصر أو السعودية أو إنجلترا أو فرنسا فهم بعيدون كل البعد عن التخلف، فهم انحدروا من الطبقات العليا في التعليم والمدنية والتحدث بأكثر من لغة؛ إذًا فالجهاديون عصريون على المستوى النفسي والديموغرافي؛ لأنهم عصاميون ولم نجد عصاميين في المجتمعات التقليدية، لكنهم لم يذعنوا للواقع فتمردوا على رموز السلطة في بلادهم، ورفضوا كفاح آبائهم والإسلام المعتدل ورغد العيش"[١٠٥].

واضح أن هؤلاء الراديكاليين المتكاملين بقوة في الحياة العصرية ليس الدين وراء راديكاليتهم بل المعتقدات السياسية.

نعم، للقرآن أثر كبير في تشكيل نفسية المسلم وسلوكه أو إعادة التشكيل، لكن من الخطأ الجسيم الادعاء بأن القرآن يسعى للقضاء على أتباع الديانات الأخرى أو الملحدين، وما غضب المسلمين وإحباطهم في القرون القليلة الماضية إلا نتيجة ظلم عانوا منه أمدًا طويلًا على أيدي القوى الغربية، وقد فشلت النخب العلمانية في العالم الإسلاميّ فشلًا ذريعًا في الالتزام بمبادئ الإسلام التي حافظت عليها الشعوب المسلمة عبر العصور بتضحيات كبيرة، بل النخب أكثر شرائح المجتمع فسادًا في

(١٠٤) شهر تموز/يوليو سنة ٢٠٠٥م.

(105) David Brooks, "Trading Cricket for Jihad," The New York Times, (August 4, 2005; http://www.nytimes.com/2005/08/04/opinion/04brooks.html?th=&emc=th&pagewanted=print

عدة دول إسلامية[١٠٦]، فهي لا تبالي بمشكلات ملحة تواجه من تمثلهم؛ فكأن تصاعد الاتجاه الأصولي في عدة بلدان إسلامية ردة فعل على الهيمنة الغربية والاستغلال الهائل للعالم الإسلامي، وهو ظاهرة عالمية أسهم في ظهورها فشل الاشتراكية في تأمين الحد الأدنى من المعيشة للناس.

والفحص الدقيق لأحداث العالم من منظور ديني تاريخي يوضِّحُ أنَّ القضايا الإسلامية التي هدفُها بناءُ أمة ذات أخلاق وقيم حميدة أو بناءُ مجتمع بشري لديه حسّ إنساني كانت ستُخدَم بشكل أفضل لو لم تستحوذ على سلطة الدولة قوى أصولية علمانية أو دينية، وعلاج هذا لا بد له من وسائل سلمية مع التأكيد على ترسيخ مبدأ التعايش بين الديانات المختلفة والتأسيس لقيم تسهم في بناء مجتمع إنساني أفضل لكل الأعراق والديانات والثقافات.

"...بيد أنه ليس صحيحا ادعاء التوصل لتفسير وتعبير شامل لمحتوى واسع يعتبر أطلس بيان حقيقة الإنسان والكون والألوهية؛ فالبيان السماوي الإلهي مَهْمَا عُبّر عنه أو بأيّ قدر أمكن الحديث عنه بمفهوم بشري فالحقيقة أنه أمكن التعبير عنه بذلك القدر فحسب.

...إن القرآن إلى جانب نظرته الشمولية، وتعبيره الواسع الجامع وأسلوبه الأخاذ يتمتع بقوة لا مثيل لها في ظل سَعة معناه ومحتواه، وتعابيره الدقيقة، وقدرته على اختراق الأرواح، فللقرآن سلطان على كل من قرأه، ووصل إليه صوتُه، شريطة عدم

---

(١٠٦) العلمانية مبدأ ديمقراطي في المنظور الغربي يعني فصل شؤون الدين عن شؤون الدولة، من أجل التطور المستمر لكلا الجانبين داخل المجتمع، غير أن العلمانية استخدمت في عدة دول إسلامية أداة لقمع صوت الشعب لصالح حكوماته الظالمة، فالعلمانيون المسلمون مستهجنون مثلهم مثل نظرائهم من المتطرفين دينيًّا، فالتطرف ظاهرة لا تنحصر بالإسلاميين بل تشمل كثيرًا من العلمانيين وتفتقر إلى الجانب الروحيّ العميق.

التحيـز؛ وقد عجـز معارضوه عن أن يأتوا بمثله في الأسـلوب أو اللفظ أو أن يطفئوا نوره، وعجز مَن أراد أن يحاكيه من مؤيديه أن يفعل ذلك، هذا رغم جهود الفريقين مدة أربعة عشـر قرنًا بل وإن استخدموا الأساليب نفسها، وبحثوا القضايا ذاتها، فلن يأتوا بسورة من مثله"[١٠٧].

وتحـول السـطحية الفكريَّـة والتصحـر الروحـي في عـدة مجتمعات إسلامية بينهم وبين الغوص في معانٍ أعمق للأساليب القرآنية وما تحمله من رسـائل؛ وتأتي غالبية الأسـاليب القرآنية شـديدة في مخاطبتها لمن لا يحبـون مجتمعاتهم ولا يبالون ببشـريتهم من الأشـرار والمفسـدين؛ لكن لا يعنـي هذا أن على المسـلمين أن يؤسسـوا مجتمعاتهـم على التخويف والتهديد، بل هم مأمورون باستكشاف أساليب الحضارة، وأدوات مكافحة الجريمـة، ومحاربة الرذيلة داخل أي نظـام قائم دون الإضرار بالقطاعات الأخرى من السكان.

ومـن حـقِّ المجتمعـات الإسـلامية أن تبادلها المجتمعـات الأخرى الشـعور نفسـه، وأن يُستمَـع لها وأن تُحترم أنظمة فكرها ومعتقداتها، لكن المسلمين هم الأحوج إلى فهم رسالة القرآن على النحو الصحيح؛ فآيات الأحكام الصريحة أو الضمنية التي تنظم السلوك الإنساني نحو (٧٠٠) آية، بينما نرى القرآن يحث في أكثر من ٦٠٠ مناسبة قطاعَ الأغنياء على رعاية قطـاعِ الفقراء والمحتاجين، بل يلزمهم باتخاذ الخطوات الشـرعية اللازمة للقيـام بهذا الواجب الديني الجوهري؛ يقول الله تعالـى: ﴿**وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّـائِلِ وَالْمَحْـرُومِ**﴾ (سُـورَةُ الذَّارِيَـاتِ: ١٩/٥١)؛ ويظن أنـاس أن المقصود هنا الزكاة، وهي ٢,٥٪ من الدخل سـنويًّا يدفعها الأغنياء للفقراء، غير أنها لا

(١٠٧) فتح الله كُولَن: مقالة بعنوان «حول القرآن الكريم وترجمة معانيه»، (لما يترجم عن التركية).

تقتصر على هذا، ففي التشريع الإسلامي مبدأ يقضي بإقامة مجتمع مسلم مثالي لا يُترك أي فرد فيه جائعًا أو أميًّا أو محرومًا؛ فالمجتمع المسلم والدولة المسلمة مسؤولان مسؤولية أساسية لتوفير تعليم جيد لكلِّ من يعيش فيهما من الرجال والنساء؛ وعلى كل مسلم ومسلمة طلب العلم المناسب الذي يؤهلهما لعيش كريم.

ولا تتسم آراء كولن في فهم القرآن وبناء مجتمع مثالي بالجمود أو تعيُّن المسار خلافًا للعلماء التقليديين؛ فهو يؤمن بإقامة مجتمع شامل قائم على القيم الإنسانية العالمية، ولا يرى أي تناقض بين مبادئ القرآن الأساسية والفطرة البشرية التي ترنو إلى أن تحقِّق الارتقاء المادي والروحي وأن تُكرَّم في الدنيا والآخرة.



الفصل الخامس:

مفهوم "الخدمة" والمصلحة العامة عند كولن من الإستراتيجية إلى خطة العمل





مفهوم «الخدمة» والمصلحة العامة عند كولن من الإستراتيجية إلى خطة العمل

"«الخدمة» عند كولن معناها: أن ينذُر الشخصُ حياته للإسلام، وأن يقدم كل ما في وسعه لنفع الآخرين، ليعود ذلك عليه بالنفع في الآخرة؛ وكولن نفسه لا يهدأ أبدًا، ويسأل نفسه دائمًا: ماذا يمكن أن أقدم أكثر في سبيل الله؟ ومحركه لذلك العمل الشاق هو ذكر الموت والخوف من يوم الحساب حتى غدا ذلك سمة أساسية في خطبه"(١٠٨).

النشطاء الإسلاميون بشكل عام فريقان: الأصوليون ذوو الوجه الأصولي الواضح، والثاني إسلاميون ذوو آراء راديكالية لتغيير نظم الحكم، ومن الصعب على غير المتخصصين التمييز بينهما، فالتمييز يفتقر إلى فهم أعمق لمبادئ الإسلام الروحية، وقد ظل كثير من المتخصصين أمدًا مديدًا يرون في تاريخ حركة الخدمة سمات إحياء التراث الإسلامي والتصوف والنشاط الاجتماعي.

يرى بعض المراقبين أنّ كولن من علماء الإسلام التقليديين، ويراه آخرون صوفيًّا عصريًّا، ويميل غيرهم إلى أنه لا هذا ولا ذاك بل هو داعية

(108) *Bekim Agai, "The Gülen Movement's Islamic Ethics of Education", Turkish Islam and the Secular State: The Gülen Movement. M. Hakan Yavuz and John L. Esposito (eds.), New York: Syracuse University Press, 2003, p.59.*

وواعظ إسـلامي عصـري[١٠٩]؛ وليس مرد هـذه الآراء المتباينة حول هوية كولن ومادة خطابه إلى سِمات أو أساليب غريبة في كتابته، بل مردها إلى الأفكار المتناقضة حول العقيدة الإسـلامية والسياسة والتصوف؛ وفي هذا الإطار يقول زكي سـاري توبراك: ''تقف الصوفية من الشـريعة الإسلامية موقف عيسى عليه السلام من الشريعة اليهوديّة، ثم انحرف بعض المتصوفة كثيرًا، فاسـتخفوا بمبادئ إسـلامية أساسية بل أهملوها بالكلية؛ فظهرت حركات سرية متطرفة، واحتدم الجدل حتى يومنا بين السلفية والصوفيّة''[١١٠].

وظـلّ عدد من علماء المسـلمين البارزين دهرًا فـي حالة ارتباك، ولا يستطيعون إحداث توازن بين التأويلات التقليدية لمبادئ الإسلام والالتزام الصارم بها وبين التأويلات المتحررة وتطبيق أسـلوب الحياة الإسـلامي، وبعبـارة أخرى: حـاروا في الجمـع بين ثبات الفرد على الدين والتسـاهل مـع الآخريـن في الالتـزام بالدين فـي الأماكن العامة واتخـاذ موقف من القضايا العامة؛ ولكولن موقف فريد في هذه القضايا، فرغم أن كتاباته تبدو تقليدية في تفسيرها لمبادئ الإسلام الأساسية، لكنّ منهجه العملي واقعي مرِن، أساسـه محبة الآخرين والتودد إليهم، ويلخص سـاري توبراك بدقة موقف كولن الفريد من التصوف فيقول:

> ''لا يمكـن حصر المنهج الصوفي لدى كولن بطريقة صوفية محددة، فكولن ليس صوفيًّا بالمعنى الدقيق للكلمة، لكن في ضوء تعريف «هوجويري» السابق يمكن عدّه صوفيًّا عمليًّا لا نظريًّا، فقد يسمَّى صوفيًّا لكنه صوفيّ برؤيته الخاصة''[١١١].

---

(109) Zeki Saritoprak, «Fethullah Gülen: A Sufi in his Own Way», Turkish Islam and the Secular State: The Gülen Movement, p.167.

(110) Zeki Saritoprak, Ibid., p.159.

(111) Zeki Saritoprak, Ibid., p.169.

كيف تكون مسلمًا متزنًا؟

هـذا هو أكثر إنجـازات كولن تميزًا، فلم يحـدث أن تخلى كولن عن وظيفتـه الدعويـة الخاصـة فـي أنشـطته كلها، ومد يـد العون إلى نشـطاء كثيرين ممن نذروا أنفسـهم لأعمال الخير المجتمعي والتنوير الثقافي؛ أما بعـض الجماعات الدينية الأخرى فالظاهر أنها جماعات شـعائر، تتجاهل مسـؤولياتها تجاه المجتمع عمومًا وتجاه شـركاء الوطن خصوصًا، وهذا يبين أن من أخطر مشـكلات التفسـير التقليدي للإسلام أنه يُعنَى بجوانب صوريّة للشعائر الإسلامية على حساب القيم الداخلية والأهداف التي من أجلها تقام هذه الشـعائر؛ ويزعم منتقدو الإسـلام أن المسلم الملتزم بدينه يفقد اهتمامه كليًّا ببناء مجتمـع إنساني رحيم، ويرى آخرون نقيض ذلك، أي الفعالية الإسـلامية عندهم تنتج راديكاليين في السياسية، وكلا الرأيين لا يصح إلا في بعض الصوفية اسمًا ممن لا يبالون بمعاناة الآخرين، وفي النشـطاء السياسـيين في عدة مجتمعات إسـلامية تراهم مشـغولين بقضايا الدين ولا يبالون باحتياجات غيرهم الاجتماعية والاقتصادية.

وهنا يوضـح كولن مبادئ الإسلام بطريقة تبصر كل فرد بدوره في بناء مجتمـع يسود فيه الحب ويتعايش فيه البشر لتحقيق غايات أكبر بالتضحية والإيثار، وهذه ليسـت مهمة سـهلة في مجتمـع يهتم كل فرد فيه بمكاسبه الماديـة فقـط؛ فراح كولن يبين بلا كلل ولا ملل أن على المسـلم أن يتبـع أسـلوبًا إسـلاميًّا في حياته ولو في الرخاء المادي فقط، وأن المرء بحاجة إلـى إشـعال نـور الإيمان في قلبـه وروحه ليـوازن بين طموحاتـه المادية وأهدافه الروحية؛ ورأى ياووز في دراسته لفكر كولن ما يلي:

''مما يوعَظ به المسلمون دائمًا أن البعد عن الذنوب وحده لا يكفي، وإنما على المسلم مخالطة المجتمع، والعمل على بناء عالم أكثر إنسانية، فالنجاة لا تعني ''الخلاص'' من الذنوب فحسب، بل أن تكون مشاركًا بشكل فعال في تطوير العالم للأفضل، ويرى كولن أن الوعي الأخلاقي بالثقافات الأخرى لا يمكن رقيه إلا المشاركة الفعلية، فلن يستطيع المرء بلوغ الكمالات الأخلاقية إلا بالسلوك الأخلاقي الواعي''[١١٢].

وترك المشاركة في المحرمات واجب على كل مسلم مكلف، ولكن هب أن النظام المجتمعي والرسمي لدولة ما يقوم على الرأسمالية الواسعة أو الشيوعية المتطرفة أو الاستهلاكية الموحشة، فمن الصعب أن يتجنب المرء المشاركة في الأنشطة المحرمة دائمًا، فالغالبية العظمى من المسلمين إما هجروا ما يسمى بالمبادئ والقيم الإسلامية المتزمتة، وإمّا تبنوا موقفًا تشاؤميًّا منها لشغفهم بعملية البناء القومي والأنشطة المبتكرة للسعي وراء الاكتشافات العلمية والاستخدام المبتكر للآفاق التكنولوجية الواسعة.

بلور كولن أفكارًا ومفاهيم جديدة حول مبادئ الإسلام تدعو الناس عامّة والمسلمين خاصّة إلى استكشاف الفروق الدقيقة بين المادّية المتطرفة والروحانية المعطلة؛ فالحياة الدنيا بتعريف الإسلام مزرعة للمسلم، يجمع فيها المسلم رأسماله الجديد ليستثمره في الدار الآخرة، وطريق النجاة الروحي ذاتيّ بطبعه، أمّا زراعة الأرض وإنفاق المال للآخرة فهو جهد جماعيّ يعزز الإيمان في كل مرحلة من مراحله.

(112) *M. Hakan Yavuz, «The Gülen Movement: The Turkish Puritans,» Turkish Islam and the Secular State: The Gülen Movement, pp.26-27.*

ظلت الجماهير التركية زمنًا تعتقد أن كولن من أتباع بديع الزمان سعيد النُّورْسِي (١٨٧٧–١٩٦٠م). نعم، لمؤلفات النورسي[١١٣] أثر كبير طبعًا في سير كولن على طريق الدعوة السلمية نحو العالم، غير أن كولن بوصفه واعظًا فاعلًا مليئًا بالنشاط والقوة، وناشطًا اجتماعيًّا، ونصيرًا للمبادئ الإسلامية، حمل رسالة الإسلام إلى مدى أبعد بكثير من الإحداثيات التي وضعها النُّورْسِي، ومع هذا، لم يقلل ألبتة من تأثير النُّورْسِي على العقلية التركية المتدينة، بل كان ينظر بكلّ اعتزاز إلى نموذج النُّورْسِي وجهوده الرامية لجذب مزيد من الأتراك نحو كنف التعليم المبني على القيم الأخلاقية الحميدة أيًّا كانت الهوية القومية أو الإثنية أو العرقية أو الدينية.

> "أدى الاضطهاد السياسي الرسمي إلى ولادة نوع جديد من أنواع الفاعلية الإسلامية من رحم التقليد الفكري العثماني التركي؛ صاغ سعيد النُّورْسِي منهجًا جديدًا للإحياء الديني بحلقات قراءة جماعية أسهمت في رفع الوعي الديني؛ فلك أن تعرِّف كتابات النُّورْسِي بأنها النص المرجعيّ لفتح الله كولن، فهو يتبع منهج النُّورْسِي نفسه في رفع الوعي الديني، وكذا أسلوب حلقات القراءة لبناء شبكات دينية عابرة للقوميات"[١١٤].

---

(١١٣) كان سعيد النُّورْسِي ولا يزال بتأثيره المستمر من أهمّ المفكرين والكتاب في العالم الإسلامي، نظرًا لإنجازاته المتنوعة، وشخصيته ودوره المحوري، ولم يكن النُّورْسِي كاتبًا تقليديًّا، من مؤلفاته كتابه العظيم «رسائل النور»، وهو مادة قرآنية تناسب العقل المعاصر، ويتجاوز خمس آلاف صفحة، وهذا الكتاب بحجمه يعكس دعوة النُّورْسِي وجهاده ضد نزعات الفكر المادي والإلحادي اللذين أفرزهما العلم والفلسفة، وحاول أن يقدم حقائق الإسلام للعقول والقلوب في العصر الحديث مراعيًا جميع مستويات الفهم والإدراك البشري: *«Bediüzzaman and the Risale-i Nur," Humanity's Encounter with the Divine Series, New Jersey, Tughra Books, 2009.*

(114) M. Hakan Yavuz, «Islam in the Public Sphere: The Case of the Nur Movement,» Turkish Islam and the Secular State: The Gülen Movement, pp.17-18

كلمـا درس منتقدو الإسـلام الوعي الإسـلامي المؤدِّي إلـى الفعالية والخطاب الفكريّ، تبادرت إلى ذهنهم مسـألة «الإسـلام السياسي» القائم على الطائفية وسياسـة العداء للوصول إلى الحكم والسـيطرة على سـوق المال؛ لكن كولن لا يحصر الإسلام في «مشروع سياسي» يجب تطبيقه.

وإذا كانـت حركـة النـور -التي اسـتلهمت مبادئها مـن كتابات بديـع الزمـان سـعيد النُّورْسِـي- حركة شـعائرية عمومًـا تركية النشـأة، فإن فكر كولـن يرنـو إلى الخـارج بمنظارَي الرؤيـة الكونية والدوليـة؛ والاختلاف بين النُّورْسِـي وكولن ليس أساسـيًّا، فكولن تيسر له قدر أكبر من الوسائل، فأفاد منها.

ولـم يكن المجتمع التركـي خاصة في العقود الماضيـة ليتقبل داعية إسلاميًّا بمستوى كولن، لكن كولن استغل كل ما يسره الله من سُبُل ليصل إلى الناس جميعًا داخل تركيا وخارجها، فاعتزاز المسـلم بوطنه لا يحول بينه وبين أن يكون مسـلمًا حقيقيًّا في رأي كولن، ولا يعيقه عن المشـاركة في أنشـطة عابرة للقوميات تهدف إلى الاسـتفادة من جميع البشـر؛ هذه الطبيعة الشمولية المميزة لكولن في الإرشاد والدعوة أكسبته شهرة سريعة تقريبًـا بيـن الجمهور التركي وغيـره، فدعوته لإقامة نظام تعليمي أساسـه القيـم الأخلاقية كانـت مفتوحة للجميـع، وهدفها إثراء الروح الإنسـانية لإفادة الآخرين.

وأدت التفسـيرات الخاطئـة لمـا ورد فـي القضـاء والقـدر مـن آيات وأحاديـث إلـى أن يميل المسـلمون الملتزمون عمومًا إلـى الإيمان بمبدأ القدرية، ثم إلى فتور العزيمة والتقاعس عن بذل الجهود الكافية لإحداث

تغييـرات إيجابيـة في مجتمعاتهـم؛ وأصبح البؤس والشـقاء يهددان حياة الجماهيـر وكرامتهم من الأعـراق والقوميات والأجنـاس كافة، وعُدّ هذا قدرًا محتومًا على هذه الجماهير البائسـة، ورغم أن هذا التشـاؤم المفرط ليس له مكان في الوعي الإسلامي، فإنه قد يرجع إلى استغلال الاحتلال القاهـر والصراعـات الداخلية بين البلدان الإسـلامية والأقليـات العرقية، حتـى إن كثيرًا من المسـلمين المتدينين خنعـوا لمثل هذا الوضـع الرهيب المقيت الذي تقبَّلَتْه الجماهير.

يـرى كولـن الكـونَ كتابًا مفتوحًـا، ولكلِّ فـرد أن يحـدد ماهيته وفق إرادتـه وطاقتـه وظروفه، لكـن لا أحدَ يقـدِر أن يضيف بعـدًا جديدًا لهذا دون مساعدة نشطة كريمة من الآخرين؛ فالجهود الجماعية المخلصة هي وحدهـا القـادرة على أن تجعل من الإسـهامات الفردية في أي مجال من مجـالات العلـوم والتربية إسـهامات ثرية نافعة للآخرين ولـكل الكيانات المحيطة بها.

يقـول يـاووز: ״يمثـل كولـن الزعيـمَ الملهِـم لحركـة تربويـة عابـرة للقوميات، بينما يمثل النُّورْسِي عملاقًا في صياغة الخطاب الفكري؛ وكان اهتمـام النُّورْسِـي منصبًا على التحـول الفردي، أما كولـن فاهتمّ بالتحول الفردي والمجتمعي مستفيدًا من الظروف السياسية والاقتصاد الحر״(١١٥).

تميـل قـوى المؤسسـات الإسـلامية التقليديـة إلـى العمل علـى بقاء الوضـع القائم كما هو، ويعد مثل هذا الموقف المحافظ خطرًا كبيرًا على شرائح مُعدمة وأقل حظًّا في أي مجتمـع كان؛ صحيح أنه لا بدّ أن يكون

(115) *M. Hakan Yavuz, «The Gülen Movement: The Turkish Puritans". Turkish Islam and the Secular State: The Gülen Movement, p.19.*

المـرء ثوريًّـا ليعـارض مثل هذه الأفـكار الدينية الخاطئة الشـائنة، غير أن كولن حافظ على وجوده في حظيرة الدوائر الدينية التقليدية، ونشر أفكاره عن التغيير الاجتماعي بالتفوق التربوي لبناء صرحٍ فكري جديد في الوعي الإسلامي.

إستراتيجية كولن: إدراك سرّ القوة بلا عنف

يرى كولن أنه إذا أراد الإنسـان رضا الله ﷻ، أو أراد أن يصبح إنسـانًا كامـلًا، فعليـه أن يضحـي بالكثيـر مـن وقتـه وطاقتـه وموارده في سـبيل الآخرين؛ وإلا فليس له أن يظن أنه مسلم حقيقي أو إنسان حقيقي بذل ما في وسعه لخدمة الإسلام والإنسانية، يميل نشطاء حقوق الإنسان والدعوة الإسلامية إلى دعوة غيرهم للأخلاق الحميدة واحترام القيم الإنسانية، إلا أنهم عمليًّا يقولون ما لا يفعلون، أو هم كمسـتهلك شـره يسـتغل العمالة المحلية الرخيصة، فهم يستغلون إخوانهم المتدينين والوطنيين.

لـم يغفل كولـن عما يُبتلى به المتدينون عامة والمسـلمون خاصة من إعجـاب بالنفـس، فجاهد نفسـه ليكون أسـوة فـي الإيثار، وهـذا من أهم مبـادئ الحركة الإسـلامية فـي التربية وخدمـة القضايا الإنسـانية؛ فمنهج كولن العقلاني في تفعيل القيم الدينية أو الاكتشافات العلمية والتكنولوجية الحديثة لصالح البشر يتناغم تمامًا مع السياق الاجتماعي السياسي ومع القيم الإنسانية الأُمّ.

ويشـرح كورو هـذه النقطة قائلًا: "يرى كولـن أن الأخلاق والمبادئ أمـران أساسـيان في تثقيف البشـر بشـكل حقيقيّ، فللحفـاظ على الوفاق

والسلام والسعادة في حياة البشر ينبغي تحقيق التثقيف العقلي والروحي للإنسان... فالعقل لا يوافق الوحي فحسب بل يعزّزه"[١١٦].

هذا الفكر رسالة ثورية لعدة مؤسسات دينية تقليدية تعادي مثل هذه النظرة الشمولية، فالإنسان مخلوق عاقل لا يستطيع أن يقبل عدة ظواهر طبيعية بدون تفسيرات معقولة تؤطر الظواهر بوصفها حقائق عليا جاءت للبشر في فترة نزول الوحي؛ ولما انقطع الوحي زاد الاعتماد على العقل كثيرًا، لكن كثيرًا من علماء العقيدة والعلوم الاجتماعية لا يعيرون اهتمامًا كافيًا للعلاقة التلازمية بين النصوص المقدسة وعملية تثقيف المجتمعات الإنسانية؛ فأدى ذلك إلى نشوب نزاعات بين القوى الدينية والعلمانيين قد تمثل خطرًا على قضايا حقوق الإنسان والعدالة الشاملة.

ظهرت عدة قوى دينية في العالم الإسلامي بوصفها برنامجًا سياسيًّا معاديًا للاحتلال والإمبريالية، ولكن لم ينجح أي منها في اتخاذ دور إيجابي فترة طويلة لأن أنشطتها كانت تُبنى أصلًا على إستراتيجيات رد الفعل؛ لكن يشير «أَنَس أَرْكَنَه» في تحليله إلى أن حركة الخدمة مختلفة جذريًّا؛ فهي لم تنشأ عن رد فعل:

> "إن «الاستشراق» كان يحمل آثار هذا الاستعمار العالمي في جيناته، وهكذا وُلدت في العالم الإسلامي الأيدولوجيةُ الإسلامية التقليدية مقابل هذا الاستعمار والاستغلال.
>
> ...إن هذه الحركة ليست حركة رد فعل، وليس لها علاقة بثقافة الأحياء الشعبية الفقيرة أو ردودِ فعلها"[١١٧].

---

(116) Ahmet T. Kuru, «Fethullah Gülen's Search for a Middle Way: Between Modernity and Muslim Tradition,» Turkish Islam and the Secular State: The Gülen Movement, p.123.

(١١٧) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن – جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص ٤٧،٤٩، دار النيل – ٢٠١١م.

يُذكِّر كولن بكل ما ارتكبه المحتلّ من شـرّ بحق المسـلمين، ويطرح عـدة إسـتراتيجيات جديـدة لمحاربـة قوى الاحتـلال الحديثـة؛ فهو يرى الجهل والفقر والفُرقة أرضًا خصبة للاحتلال، فيتعاطف كثيرًا مع البسطاء ويشـعر بمعاناتهم الاقتصادية والاجتماعية؛ وبهذا يخالف كثيرًا من الدعاة المعاصرين البارزين؛ فبعضهم كغيرهم من رجال الدِّيانات الأخرى همُّهم الحفـاظ علـى العقيـدة الصحيحة، ويغفلـون تصحيح كثير مـن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فأدى هذا إلى عزلة عدة جاليات مسلمة رغم أن الأصل في الدين الإسلامي الشمول.

لمـا أخذ كولن بمبدأ تصحيـح العقيدة في ضوء العقل وصل إلى كلّ المسـلمين مـن قوميات وأعـراق مختلفة عانـت أزمة حقيقية فـي الهويّة؛ إذ العلمانيـة المتطرفـة والتعصـب القومـيّ أوقعـا تركيـا فريسـة للصـراع الأيديولوجي، فعانت من أزمة هويّة معمّقة، وأخفقت المؤسسـات الدينية التقليديـة والعلمانيون في حلّ هذه المشـكلة الخطيرة؛ فبرز كولن ناشـطًا اجتماعيًّا ومربّيًا لأجيال شابة بطرق مختلفة أثمرت تفاعلًا مع المجتمعات الأخرى، ونجح في التوفيق بين قضايا العصر والاكتشـافات العلمية وبين الأفـكار الدينيـة، والعكـس صحيح؛ فتحـدث عن «إسـلامية الأناضول» أو «إسـلامية الشعب التركي»، وليس إسـلامًا تركيًّا إثنيًّا، فذلك لا يناسب حركتـه التربويـة والروحيـة ألبتـة(١١٨)، وميَّـزَ فعليًّـا بوضـوح بيـن الأبعاد الإيجابية والسلبيّة للهويّة القومية، فرفض القومية بمعنى كل تعصُّب عرقيّ

(118) See Nevval Sevindi, Contemporary Islamic Conversations: Fethullah Gülen on Turkey, Islam and the West, Albany: State University of New York Press, 2008, pp.71-79; "Intellectual Roots of 'Turkish Islam' and Approaches to the 'Turkish Model,›» Journal of Muslim Minority Affairs, Vol. 24, October, 2004, pp.327-346.

الظلمُ غذاؤه، ودوامه رهن بعداوة الشعوب الأخرى، ونوَّه إلى بعد القومية الإيجابي المتمثل في التعاون والتكافل وغيرهما؛ وفي هذا ضمان لقوة المنفعة، ولتقوية رابطة الأخوة الإسلامية.

وحينما يتكلَّم المسلمون عن الإسلام في العصر الحديث يظن كثيرون أن التركيز سيكون على الأفكار الدينية المسيسة أو على قيم الحضارة الإسلامية التي ينظر إليها على أنها أيديولوجيا عفا عليها الزمن، ولا تناسب أسلوب الحياة العصرية، وإذا كان الحديث عن الحداثة فلقد أظهروها نظامًا تنصهر فيه أغلب قضايا التقدم الصناعي والتمدين والمرأة بصورة تتجلى فيها قدرة الجميع على التعايش والارتقاء الذاتي؛ فيزعمون أن الدين فيه تناقضات كثيرة وتعارض، وأن الحداثة نظام عملي مناسب للجميع عدا بعض الجماعات الدينية الأصولية؛ لكن كولن أثبت بمسؤوليته وحسّه المجتَمَعِيَّيْن بطلان هذا الافتراض مطلقًا، فهاجمه دعاة الحداثة والمتعصبون دينيًّا بشراسة، ويلخص أَرْكَنَه أسلوب كولن الفريد وطريقته البديلة بما يلي:

"كان طعامه وشرابه وملبسه منسجمًا مع الموقف الاجتماعي والنفسي للجماهير التي يخاطبها، عاش وهو يهتم جدًّا بكل حركة تبدر منه، وبكل كلمة تخرج من فمه، ويتصرف بشعورِ شخص موضوع تحت المراقبة.

...ولكن سرعان ما جاءته انتقادات من بعض الأوساط المحافِظة، لأن هذه الأوساط كانت تهتم بالمشاريع ذات الأمد القصير، بينما كانت مشاريع التربية والتعليم ذات أمد بعيد.

...وما فعالياته في التعليم والتربية على المستوى الدولي وتأسيسُه المدارسَ العديدة في مختلف الدول إلا لكي تكون هذه المدارس جسورًا بين الأديان والحضارات المختلفة"(١١٩).

فمشروع حركة الخدمة الفكري والروحي المتمثل في حراك اجتماعيّ وتربويّ ليست له حدود قومية أو عرقية، فهو يعالج عمليًّا ما نتج عن الخواء الديني الذي غيَّب التخطيط العملي للحياة، وعن الحداثة التي تتمثل في الأنانية المفرطة والاستهلاكية الفجة؛ وهذا مشروع عملاق جعل من كولن مصلحًا اجتماعيًّا من طراز خاصّ له تأثير عالمي.

ويرى كولن أنه لا أحد يمكنه تسويغ سلطته الخاصة دون أن يقوم بخدمة الناس عامّة وبخدمة شركائه في الوطن خاصَّة؛ لكن في ظلّ العقلية الانهزامية التي غذاها وأنبتَ شجرتها نظام تعليم الاحتلال يصعب أن يثق المسلمون بالقوة الأصيلة للرؤى الإسلامية الشاملة، ومنها واجب خدمة الآخرين، ولما كان مقتضى جوهر الرسالة الإسلامية المقطوع به أنه لا سيادة بالإكراه لمنهج إسلامي في حياة البشر -هذا درس كوني ينبغي تطبيقه في كل زمان-، وجب تعزيز المصلحة العامة وحمايتها في كل وقت ونشاط إنسانيّ؛ فرؤية كولن ومهمته قائمتان على خدمة قضايا البشر والمصلحة العامّة التي تخدم الجميع أيًّا كان الدين أو الثقافة أو الجنس.

"فنحن نرى أن الماضي حي بكل جوانبه، نرى فيه عالمًا يفكر مِثلنا ويهمس إلينا ويتحدث إلينا بنهره وبحره وسهله، أما المستقبل فهو العالم الذي يضم لنا فرصًا كثيرة عديدة"(١٢٠).

---

(١١٩) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن - جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص ٣٩، ٤١، ٥٢، دار النيل ٢٠١١م.

(١٢٠) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن - جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص ٢٧٤، دار النيل ٢٠١١م. انظر: فتح الله كُولَن: سلسلة العصر والجيل-١، دار النيل - إسطنبول ٢٠١٠م، (لما يترجم عن التركية)، ص ١٢٢.

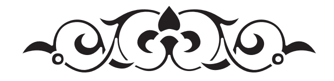
وفي هذا تصبّ أفكار كولن، فهو يدعو الناس جميعًا إلى بذل الجهد والقيام بأعمال صالحة في سبيل أجيال قادمة سوف تشكل العالم في نهاية المطاف حسب طاقتها وسعيها نحو الإبداع والسعادة الحقيقية. نعم، فالمسلمون مأمورون بالعمل على هذا المبدأ الأساسي لتحقيق الغرض من وراء الوجود الإنساني على وجه الأرض.



الفصل السادس:

رؤية كولن للديمقراطية الحديثة





رؤية كولن للديمقراطية الحديثة

لنا أنْ نطلقَ على عصرنا حِقْبَةَ الديمقراطية التي تديرها التقنية المعلوماتية، أمَّا الأفكار الدينية فليس لها سوى دور ضئيل جدًّا في العالم العلماني الذي يعيش فيه الإنسان الحديث مع اكتشافات خطيرة في العلم والتكنولوجيا.

وتؤمن العقلية الفكرية الحديثة أنَّ المرء بإمكانه القيام بدراسة تجريبية للنظام الديمقراطيّ وسيادة القانون وحقوق الإنسان دون نظر لأية أفكار روحية ودينية، بل يرى بعضهم أنّ الدين كثيرًا ما يضرّ بعملية التطور الديمقراطيّ والتقني، فالأفكار الأمّ في فصل الكنيسة عن الدولة يعدونها حلًّا سياسيًّا لمشكلات عدّة في الاقتصاد والتنمية؛ ولا يحبذ بعض المسلمين خاصة في البلدان الإسلامية النظام الديمقراطي الغربي بسبب موقفه العلماني، ورؤيته المستقبلية للإسلام السياسي، وكانت تركيا أول بلد إسلاميّ يقوم دستوره بالفصل بين الدين والحياة المدنية بشدّة، ويستخدم سلطة الدولة في تحويل المجتمع إلى مجتمع ينفر من المشاعر الدينية؛ فالدستور التركي بُنيَ على أن تركيا بلد علمانيّ يضمن حرية ممارسة العقيدة، غير أن الطيف السياسي فسّر «العلمانية» بشكل مختلف ومتنوع، فمن علمانية لادينية متطرفة جذريًّا إلى غربية تقليدية،

وأصل معناها فصل الكنيسة عن الدولة مع مطلق الحرية في الاعتقاد الديني والعبادة، أما العلمانية المتطرفة فهي نموذج استبداديّ يحظر الاعتقاد الديني في الحياة العامة مطلقًا، ولم يرض الشعب التركي بها؛ ولا بهذا المسار الفكري للمجتمع والدولة، الذي يريد للحداثة أن تخرج الدين من الحياة العامة.

ورأت بعضُ المؤسسات الدينية كما في عدة بلدان إسلامية أخرى أنَّ في الديمقراطية مع العلمانية دمارًا للنسيج الثقافي الإسلامي للمجتمع التركي، ورغم ذلك لم يرفض الأتراك معايشة الدولة العلمانية الديمقراطية الاجتماعية القائمة على سيادة القانون، المحايدة في القضايا الدينية، الضامنة لحرية الاعتقاد والعبادة، وهذا خلافًا لأقلية أصولية هاجمت العلمانية والديمقراطية، ولأقلية علمانية متطرِّفة فرضت العلمانية بقسوة على الشعب التركي منهجًا للحياة.

ووفقًا لعدة اعتبارات اجتماعية وسياسية، قد يُقال: الإسلام أيديولوجية تشبه كثيرًا أيديولوجية الديمقراطية أو الاشتراكية، وتُتَّبع لتحقِّقَ أهدافًا اقتصادية حقيقية إقليميًّا ومحليًّا وعالميًّا؛ الحقّ أنه فهم خاطئ للإسلام، وربما عجز كثير من العلماء والقيادات الإسلاميّة عن ردّ هذه الشبهة عن أذهان المسلمين فضلًا عن أذهان أعدائهم، حتى جاء كولن فقال في مقابلة مع خلوصي تورغوت في جريدة صباح اليومية:

> "الإسلام دين، ولا يمكننا تسميته بأي شيء آخر، عندما تفوق الغرب على العالم الإسلامي في المجالين العسكري والتقني، رأى بعضهم أن الحلّ هو تسييس الإسلام أو تحويله إلى

نظام سياسـي؛ وهذا أشـبه بنسـخة حديثة من طائفة الخوارج[١٢١]، فالإسلام إنما قام على أساس تنوير العقل وانشراح الصدر؛ لذلك يأتي الإيمان والعبادة أوَّلًا، والأخلاق الحميدة ثمرة لهما"[١٢٢].

ولما ظهرت القوى الثورية الإسلامية في بلدان من العالم الإسلامي، رأى كثيـرون أنّ تركيـا قـد تقتفـي أثرهـا لتتحـدى تقليدهـا الديمقراطـي الانتخابـيّ الحديـث ذا المائـة عـام؛ لكنّ علمـاء الدين في تركيـا اتخذوا خطًّـا معتدلًا للتوفيق بين الديمقراطية والإسـلام علـى الصعيدين الفكريّ والروحـيّ، فـرأى كولن أن الحاجة ماسّـة لإيجاد نمـاذج جديدة للتعايش السلمي بين القوى الدينية والديمقراطية:

"فيما يتعلق بقضية الإسـلام والديمقراطية ينبغي أن نتذكر أن الإسـلام دين رباني وسـماوي، بينمـا الديمقراطية هي شـكل من أشـكال الحكومة أسَّسـها البشر. والأهداف الأساسـية للدين هي الإيمـان والعبودية لله ﷻ ومعرفته والإحسـان فـي عبادته. ويدعو القرآن البشر في المئات من الآيات إلى الإيمان وعبادة الحق ﷻ، كمـا يسـأل الناس أن يعمقـوا عبوديتهم لله تعالـى بطريقة تمكنهم من إدراك مرتبة الإحسـان والأخلاق الحميدة، فمما يؤكده القرآنُ دائمًا الإيمانُ والعمل الصالـح، ثم أن يتصرف الإنسـان كما لو أنه يرى اللهَ -لأنه إن لم يكن هو يراه فإنه سـبحانه يراه- وأن يؤسـس بينـه وبيـن ربه علاقـة قلبية وثيقة، ثـم تتويجُ ذلـك كله بالأخلاق الحميدة.

أما الديمقراطية فهي ليست نظامًا واضحًا من كل الزوايا مثل الإسـلام، بـل بإمكاننـا أن نقول إنهـا مبهمة إلى حد كبيـر، إذ من

(١٢١) «الخوارج» اسم مأخوذ من الخروج، وهي أول فرقة دعت إلى وجهة نظر أصولية للإسلام وبناء مجتمع مثالي بالعنف، خرجوا على عليّ رضي الله عنه واغتالوه عام ٦٦١م وانحرفوا عن مسار الإسلام السائد.

(122) Hulusi Turgut, Sabah daily, January 23-31, 1997.

النـادر تقديمُها دون وصفها بشـيء؛ ففـي بعض الحالات توصف بمصطلـح آخـر مثـل الاجتماعيـة أو الليبراليـة أو المسـيحية أو الراديكالية، وقد لا يَعتبر شـكلٌ من أشـكال الديمقراطية الأشكالَ الأخرى ديمقراطيةً.

ومـع هـذا فـإن الديمقراطية كثيـرًا ما تُذكر فـي وقتنا الحالي دون إضافـة صفة أخـرى إليها، مع تجاهل طبيعـة الجمع لكلمة «ديمقراطيات»، وعند الحديث عن الدين يقوم الكثيرون بمقارنتها بالسياسة التي ما هي في الحقيقة إلا جانب من جوانب الدين.

وقـد نتج عن هذا الإدراك اختلاف بين المفكرين المسـلمين في قضية المواءمة بين الإسـلام والديمقراطية، وإن كانت آراؤهم لا تعتبر متناقضة إلا أنها تختلف في جوانب هامة.

أحـد هذه الآراء يقول: "إن الإسـلام دين ونظام سياسـي في الوقت نفسـه، فهو ينظم كل مناحي الحياة، ينظم النواحي الخاصة بالفـرد والأسـرة، كمـا ينظـم النواحـي الاجتماعيـة والاقتصاديـة والسياسـية؛ ومـن هـذه الزاويـة فـإن حصر الإسـلام فـي الإيمان والعبـادة هـو تضييـق لمجـال تفاعلـه وتفسـيره". وقـد تكونـت تصـورات كثيـرة جديـدة حـول هـذا المنظـور، وأدت إلـى النظر للإسـلام كأنـه أيديولوجية مـن بين عـدة أيديولوجيات سياسـية. وهذه النظرة مضادة لروح الإسلام تمامًا؛ فالإسلام يعزز من حكم القانـون، ويرفض صراحة اضطهاد أي قطاع من المجتمع، ويهتم بآراء الأفراد في المسائل التي تقبل الاجتهاد.

وكان مـن الأفضل بكثير تنميةُ الديمقراطية بموازنة الإسـلام بيـن المـادة والروح وبين الدنيا والعقبـى، وإثراؤُها بجعلها تقضي حاجـات البشـر الدنيويـة والأخرويـة، إذ هو (أي الإنسـان) خُلق للحياة الأبدية ولا يطمئن إلا بتوجُّهه إلى الله الباقي.

نعـم، ففـي العالم الإسـلامي -وخاصة في بلـدي تركيا- من المؤلـم أن تـرى بعـضَ الذين يتحدثون باسـم الإسـلام وآخرين يتحدثون باسـم الديمقراطية يشـتركون في خطأ واحد، وهو الفهم القائل بأنه لا يمكن التوفيق بين الإسـلام والديمقراطية، بحجة أن دين الإسلام مبني على حكم الله، بينما الديمقراطية مبنية على رأي البشر. ومع هذا فإنني أرى أن هناك أمرًا يُغفل عنه، وهي أن سيادة الأمة لا تعني إنكارَ أن الحكم لله، بل تعني أن السـيادة التي ائتمن اللهُ البشـرَ عليهـا تُنزع من الظلمـة والجبابرة والمسـتبدين وتُعطى للجمهور، وهذا ما شهدته الإنسانيةُ في عهد الخلفاء الراشدين.

إن الله هـو الحاكـم علـى كل شـيء فـي الكون لا ريـب فيه، وأفكارنا وغاياتنا جميعها لا تتحقق إلا إذا أراد ﷻ. ومع ذلك فإن هذا لا يعني أننا لا نملك إرادة أو رغبة أو اختيارًا؛ فكما كان البشر أحرارًا مخيَّرين في حياتهم الشخصية، فهم كذلك أحرار مخيَّرون فـي اختياراتهـم الاجتماعيـة والسياسـية مـن وجـه؛ وهـذا ينطبق على عصر السـعادة، عهد النبي ﷺ وعلى عهد الخلفاء الراشـدين الأربعة، رضوان الله عليهم جميعا؛ فانتخاب الخليفة الأول سـيدنا أبـي بكر، كان مختلفًـا عن انتخاب الخليفة الثاني سـيدنا عمر بن الخطاب، وكذلك كان انتخاب سـيدنا عثمان مختلفًا عن انتخاب سيدنا عليٍّ الخليفةِ الرابـع، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، والله أعلم بالصواب.

وبالإضافة إلى هذا فإن الديمقراطية ليست شكلًا ثابتًا للحكم ونظامًـا لا يُنتقـد، وبالنظـر إلـى مراحـل تطورها يمكـن للمرء أن يلاحظ أخطاء لحقتها التغييرات والتصويبات. وهناك عدة أشكال وصـور للديمقراطيـة. وبسـبب هـذه التغييرات فـي مراحل تطور الديمقراطيـة نظر البعض إلى هذا النظـام ببعض التردد. واجتناب

العالـم الإسـلامي الديمقراطيـةَ ربمـا ينبـع من هذا، غيـر أن لدى بعض الحكام أسبابًا أخرى لاجتنابهم لها"[١٢٣].

ويـرى كولـن في مقابلة مـع نورية أكمـان أنّه «من الخطـأ النظر إلى الإسـلام والديمقراطيـة علـى أنّهمـا نقيضـان، فعندمـا لـم يطبق الإسـلام تطبيقًـا كاملًا، سـاء الوضـع أكثر مـن ديمقراطية اليـوم، فانتهكت حقوق الإنسـان، وترأس المستبدون الدول، ليس الإسـلامُ الديمقراطيةَ، وليست الديمقراطيةُ الإسـلامَ، فالديمقراطية نظام استحسنه العالم، لكنها ما زالت فـي طور التنقيح والتحسـين، وتسـير في طريقها نحـو جوهرها الحقيقي، فهي مرحلة لا ينبغي التراجـع عنها»[١٢٤].

وفـي مقابلة أخـرى تناولت تجليـات الديمقراطية المختلفـة، ومنها: الديمقراطيون المسـيحيون والديمقراطيـون الاجتماعيون والديمقراطيون الليبراليون، تسـاءل كولن: لماذا لا تكون هناك ديمقراطية تتسـع للأفكار والمشـاعر الإسـلامية، وتربـط انفتاحاتها بها! وإن كان وجـود ديمقراطية بشـرية أمرا حتميا فلا بد وأن تتقبلني بكل ما يخصني من دنياي وآخرتي، وتجيـب وتلبـي هـذه النوعية مـن احتياجاتـي. «فكما ينبغي فـي أي نظام ديمقراطي متقدم أن يعيش العلماني حياته في أمن وطمأنينة، ينبغي كذلك أن يُمنـح الفرصـة من يؤمن بالآخرة»[١٢٥]؛ ويشـير إلى ديمقراطية إنسـانيَّة فيها بُعْد ميتافيزيقي، تحتضن البشر كافّة، وتلبِّي حاجاتهم الرُّوحيَّة:

(١٢٣) السلام والتسامح في فكر فتح الله كولن، إشراف أ.د. زكي ساري توبراك، ص ١٢٥-١٢٧، دار النيل ٢٠١٤م.

(١٢٤) من حوار أجرته الصحفية التركية «نورية آقمان (*Nuriye Akman*)» مع الأستاذ فتح الله كولن، نشر في جريدة «صباح» التركية في تاريخ ٢٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤م.

(١٢٥) من حوار أجرا التركية فتح الله كولن، نشر في اله الصحفي التركي «محمد كُونْدَمْ (*Gündem*)» مع الأستاذ فتح الله كولن، نشر في جريدة «ملّيّت» التركية في تاريخ ١٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٥م.

"ويمكنكم أن تسموا هذا «ديمقراطية ذات بُعدٍ روحي»، إنها ديمقراطية تحترم حقوق الإنسان والحريات كحرية الرأي والتعبير والاعتقاد، وتُهيِّئ الظروف اللازمة ليعيش الناس ويمارسوا حياتهم حسب عقيدتهم، وليحققوا ما يتوقون إليه ويحتاجونه من الأبدية والخلود، البشر كلهم عندها سواء، فهي ديمقراطية ناضجة تراعي حاجاتهم المادية والمعنويّة كلها... لذا يلزم تطوير مثل هذه الديمقراطية، والبحث عن سبل إضفاء الطابع الإنساني عليها؛ إذ حياة الإنسان لا تنتهي بانتهاء هذه الدنيا كما لا تبتدئ بمجيئه إليها، فالدنيا محطة عابرة مؤقتة والناس يسيرون بلا توقف نحو مستقرهم الأبديّ؛ ومن ثم ينبغي للنظام الحاكم ألا يتجاهل أو يهمل هذه المسألة المهمّة؛ فإن فعل ذلك فقد أهمل وتغاضى عن قضية مهمة جدا بالنسبة للبشر. أجل؛ فالإنسان تنتظره حياة القبر، فحياة البرزخ، فحياة الحشر، فحياة الجنة آخر تلك الحيوات، أما الخاسرون -حفظنا الله- فتنتظرهم حياة جهنم.

وبالتالي فإن الديمقراطية المثالية كما تتكفل بواقع الإنسان وقضاياه أيضا يلزمها أن تتكفل وتوفر له مجموعة من حاجياته ومتطلباته الأخروية الأبدية، والديمقراطية التي من شأنها أن تحقق هذا لا بد وأن تكون قد تطورت وصارت مثالية إلى حد كبير، لكن المؤسف أن الإنسانية لما تصل إلى هذا الأفق بعدُ، لا يمكن حتى الآن الحديثُ عن وجود مثل هذه الديمقراطية لا في الشرق ولا في الغرب"[(١٢٦)].

ولما سُئل كولن عن شكل الحكم في الإسلام، قال:

"لم يحدّد الإسلام شكلًا معينًا لا يتغير للحكم، ولا سعى إلى تشكيله، بل وضع أصولًا ومبادئ أساسية للشخصية العامة

(١٢٦) فتح الله كُولَن: سلسلة الجرة المشروخة-٥، غيث الأصيل، نشر دار النيل التركية، إسطنبول ٢٠١٠م، (لما يترجم عن التركية)، ص ١٥٢.

للحكـم، وتـرك للنـاس أن يختـاروا شـكل الحكـم وفقًـا للزمن والظروف السـائدة، وفي ضوء هذا لو قارنًّا الإسـلام بالديمقراطية الليبرالية الحديثة اليوم، فسندرك مكانة كلٍّ منهما من الآخر"(١٢٧).

ويشـير كولـن إلـى أنَّه رغـم كثرة عيـوب الديمقراطيـة لكنّهـا النظامُ السياسـيّ الوحيد الميسِّـر للناس حكم أنفسـهم بأنفسـهم، القابل للتطبيق فـي العصـر الحديـث؛ ويبنـي رأيه هذا علـى مبـدأ قرآني يحمّـل الأفراد والمجتمعات المسؤولية عن مصيرهم:

"لمـا حمّـل الإسـلام الأفـرادَ والمجتمعات المسـؤولية عن مصيرهـم، كان عليهـم أن يكونـوا مسـؤولين عن حكم أنفسـهم، فالقـرآن يخاطـب المجتمـع قائلًا: «يَا أَيُّهَا النَّـاسُ»، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا»، وواجبات النظام الديمقراطي الحديث هي تلك الواجبات التي أسـندها الإسـلام إلى المجتمـع وصنفها بحسب الأهمية إلى واجبـات ومندوبات، فليتعاون الناسُ على اقتسـام تلك الواجبات وإقامـة الأسـس الجوهريّة اللازمة للتنفيذ، وهـي التي يتكون منها الحكم"(١٢٨).

ويؤيـد كولن العلاقة بين الإسـلام والديمقراطية بـأن القرآن يخاطب المجتمـع كلّـه ويسـند إليـه معظـم الواجبـات التـي تضطلع بهـا النظم الديمقراطية الحديثة:

"الإسـلام يوجّـه إلـى حكـم قائم علـى عَقد اجتماعـي، بأن يقـوم الناس بانتخاب من يديرون شـؤونهم، ويؤسسـون مجلسًـا لتداول القضايا العامة، ويشارك المجتمـع كله في محاسبة الإدارة، فالإسلام دين شامل يقوم على الإيمان بإله واحد هو الرب الخالق

---

(127) Gülen, Windows onto the Faith: Islam and Democracy, New Jersey: The Light, 2004, pp. 4–5.

(128) The Fountain, M. Fethullah Gülen: Essays, Perspectives, Opinions, Rutherford, NJ: The Light, 2002, p. 16-17.

الـرازق المدبـر لهذا الكـون، فهو دين الكون كلـه، أي الكون كله يطيـع السنن والقوانين التي وضعها الله، فكل ما في الكون «مُسلِم» يطيـع الله بالخضوع لقوانينه"[١٢٩].

الإسلام والديمقراطية: شبهات وردود

مـن أكبر الإشـكاليات فـي موضوع الإسـلام والديمقراطيـة أن كثيرًا من الزعماء والناشـطين المتدينين يريـدون أن يُحِلّوا القانون الإلهي محل القوانيـن الوضعية لإثبات أن الشـريعة الإسـلامية هي الحل للمشـكلات الدنيويـة اليوميّـة، وهناك سـببان رئيسـان وراء هذه الإشـكاليّة، الأول أن كثيرين يرون سـيادة الدولة تعارض سـيادة الله على الكون وعلى البشرية، يقول كولن:

"...بحجـة أن ديـن الإسـلام مبنـي علـى حكـم الله، بينمـا الديمقراطيـة مبنية على رأي البشـر. ومـع هذا فإنني أرى أن هناك أمرًا يُغفل عنه، وهي أن سـيادة الأمة لا تعني إنكارَ قضية «الحُكمُ لله»، بل تعني أن السيادة التي ائتمن اللهُ البشرَ عليها تُنزع من الظلمة والجبابرة والمستبدين وتُعطى للجمهور، وهذا ما شهدته الإنسانيةُ في عهد الخلفاء الراشدين.

إن الله هـو الحاكـم علـى كل شـيء فـي الكون لا ريـب فيه، وأفكارنا وغاياتنا جميعها لا تتحقق إلا إذا أراد ﷻ. ومـع ذلك فإن هذا لا يعني أننا لا نملك إرادة أو رغبة أو اختيارًا؛ فكما كان البشر أحرارًا مخيَّرين في حياتهم الشخصية، فهم كذلك أحرار مخيَّرون فـي اختياراتهـم الاجتماعيـة والسياسـية مـن وجـه؛ وهـذا ينطبق على عصر السـعادة، عهد النبي ﷺ وعلى عهد الخلفاء الراشـدين الأربعة، رضوان الله عليهم جميعا؛ فانتخاب الخليفة الأول سـيدنا

(129) *The Fountain, Ibid., pp. 17-18.*

أبـي بكر، كان مختلفًـا عن انتخاب الخليفة الثاني سـيدنا عمر بن الخطاب، وكذلك كان انتخاب سـيدنا عثمان مختلفًا عن انتخاب سيدنا عليّ الخليفةِ الرابع رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، والله أعلم بالصواب"[١٣٠].

ويصـرح كولن أنه ليس في الإسـلام نموذج معيـن لطريقة الانتخاب أو لنظام الإدارة، ويستفيض قائلًا:

"حينمـا ننظر إلى التطور التاريخي لنظام الحكم الإسـلامي، نجد أن أبا بكر ﷺ قد انتخبته العامّة، أما سيدنا عمرُ فقد اختِير بعد أن رشّـحه أبو بكر، واختير سيدنا عثمانُ من بين العشرة المبشرين بالجنة اللذين أشار بهم عمرُ ﷺ، أما انتخاب علي كرم الله وجهه فشـهد معارضـة، ومن ثـمّ فقد تشـكلت إدارة أخرى في دمشـق، وكانت تلك فرصة لمعاوية، ثم صار الحكم وراثيًا في عهد الدولة الأمويـة، واسـتمر ذلك في عهد العثمانييـن، وهذا يعني أن أصول الدين و محكماته مصونة لم يحدث أن تم المسـاس بأي من هذا قط، وباسـتثناء تلك الأمور تركت الأقسـام ذات الحقائق النسـبية مفتوحـة محـلّ الاجتهـاد والاسـتنباط بحيث تراعـى فيها ظروف العصر واحتياجاته"[١٣١].

لكن باسـم «الديمقراطية» تَميل القوى العلمانية في البلدان الإسلامية إلـى هـدم التماسـك الاجتماعـي والتناغـم الثقافي الـذي يصـون الحياة الأسرية أكثر مما عليه الأمر في الغرب، وتركيا من البلدان التي أثبتت فيها القوى العلمانية بانقلاباتها العسـكرية أنها مصدر تهديد مباشـر لقيام حكم ديمقراطـي حقيقـي؛ لكـن لم يفقد كولـن الأمل قط في النظـام الانتخابي

(١٣٠) السلام والتسامح في فكر فتح الله كولن، إشراف أ.د. زكي ساري توبراك، ص ١٢٧، دار النيل ٢٠١٤م.

(١٣١) من حوار أجراه الصحفي التركي «محمد كُونْدَمْ (*Gündem*)» مع الأستاذ فتح الله كولن، نشر في جريدة «ملّيت» التركية في تاريخ ١٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٥م.

في تركيا رغم كثرة الأمثلة الصارخة على إساءة استخدام العلمانية والديمقراطية فيها، فهو واثق من أن الناس حينما يتمتعون بالحرية والحق في اختيار الأمناء نسبيًّا لحكم البلاد فإنهم سيتخذون القرار السليم.

ويضيف كولن أن القوميين والعلمانيين الأتراك بحاجة إلى القيم الإسلامية إذا أرادوا أن يكونوا ديمقراطيين حقيقيين يخدمون شعبهم دون أن يسقطوا في بئر الفساد الذي استشرى في أوصال الحكم حتى منتصف ثمانينات القرن العشرين، يقول:

> "يسعى النظام الاجتماعي الإسلامي إلى بناء مجتمع الفضيلة لينال رضا الله ﷻ، ويعترف بالحق لا بالقوة أساسًا للحياة الاجتماعية، وينبذ العداوة، وإذا رعَت الديمقراطية البشر أجمعين، ولاحظت حاجاتهم المعنوية والبعد الروحي لوجودهم، وأن الحياة الإنسانية لا تقتصر على هذه الدنيا الفانية، وأن للناس تطلعًا وتَوَقانًا شديدين إلى الخلود، فقد تستطيع أن تبلغ أوج كمالها ونضجها بل ستمنح البشرية مزيدًا من السعادة، ويساعدها على تحقيق ذلك مبادئ الإسلام في المساواة والتسامح والعدالة"(١٣٢).

فلا يمكن للديمقراطية وحدها في أي بلد مسلم أن تشكل نسيج القيم الاجتماعية والثقافية المتضمنة في المناخ الروحي والديني؛ ولقد فعلت عدة بلدان إسلامية مثل تركيا، حيث قبلت بالديمقراطية نظامًا لعلاج المشكلات والنزاعات السياسية حول اقتسام السلطة بين فصائل متنازعة على أساس انتماء حزبي وإثني.

ويرى كولن أن نظامًا سياسيًّا عادلًا يقوم على أساس المبادئ الديمقراطية لا يمثل أية مشكلة للنظام الاجتماعي الإسلامي والقيم الثقافية

(132) «An Interview with Fethullah Gülen,» The Muslim World, Hartford, Vol. 95, Number 3, July 2005, p. 20.

الإسلامية، فقد رأينا كيف عجزت القوى العلمانية والقومية المتشددة عن حلّ مشكلة الانفصاليين الأكراد مثلًا؛ لأنهم بإعلائهم لكل أسلوب غير ديني يهملون القيم والمبادئ الإسلامية التي تعزز الوحدة وتوفِّر فعلًا الأساس الضروري لحل مشكلة الإرهاب الذي يمارسه الانفصاليون؛ لذا ظلت سجلات تركيا حول حقوق الإنسان تزداد سوءًا في ظل الحكومات العلمانية المتعاقبة حتى نهاية ثمانينات القرن العشرين، ثم بدأت تتحسن تدريجيًّا إثر التغيير الذي مرت به البلاد لا في الاقتصاد فحسب بل في التحول الديمقراطي أيضًا.

وعُدّ وصول حكومة محافظة ذات ميول دينية إلى السلطة في كثير من البلدان الإسلامية تهديدًا للمبدأ الدستوري في الفصل بين الدين والدولة؛ فكلّ نظام ديمقراطي غربي يعدّ فصل الكنيسة رسميًّا عن الدولة ركنًا في الديمقراطية؛ لأن الكنيسة تدخلت قرونًا طويلة بصورة سلبية في شؤون الدولة، ناهيك عن الحروب الدينية المتواصلة في تاريخ أوروبا الطويل، «فأصبحت العلمانية ضرورة للسلام والاستقرار المدنيين، ثم سرعان ما بدأت الدول ترفض السعي وراء أية أهداف دينية، فصار فصل الدولة عن الدين حجر الأساس في نظام الدولة الأوروبيّ، وصارت العلمانية هي السمة الأساسية للحداثة»[١٣٣].

ويؤمن المؤرخون الغربيون والمحتلون بأن هذا هو الحال في الحضارة الإسلامية أيضًا، لكن الحقيقة أن الإسلام طوال العصور الوسطى كان دوره تقدميًا جدًّا في البناء الوطني لبلدان كثيرة مثل الشرق الأوسط العربي وشمال إفريقيا ووسط آسيا وإيران وتركيا وشبه القارة الهندية.

(133) *Yavuz and Esposito, Turkish Islam and the Secular State: The Gülen Movement, NY: Syracuse University Press, 2003, p. xv.*

وقام المؤرخون الأوربيون والإمبرياليون في ظلّ القوى الغربية المختلفة بكتابة ذلك التاريخ مرة أخرى، مستخدمين نماذج العلمانية الحديثة في فصل الدين والقيم الأخلاقية عن نظام الدولة، وأدخل ذلك التاريخ المزيف في المناهج الدراسية للنظام التعليمي كله؛ وكانت تركيا العلمانية ودول وسط آسيا السوفييتية أكبر ضحية لذاك العبث في نقل المعرفة عن طريق نظام تعليمي خاضع لسيطرة صارمة تعادي الإسلام، ونجح هذا التلقين الكاره للإسلام أيما نجاح في كثير من النظم التعليمية مثل النظام البريطاني والسوفييتي والتركي أيضًا، وشَقِيَ غالبية الشعب التركي بالأيديولوجيا العلمانية المتطرفة المنكرة لأي وجود ديني في الحياة العامة؛ ثم كان كولن هو من أرسى المبدأ القائل: يمكن للمسلمين وينبغي عليهم أن يواجهوا هذا التحدي فكريًا وروحيًا بدلًا من أن يجعلوه سببًا للشقاق الفكري بين المسلمين وغلاة العلمانية، ويرى أن النزاع بين الالتزام الديني والعلمانية لا جذور له، يقول: "ينبغي ألا تقف العلمانية عقبة أمام الالتزام الديني، كما ينبغي ألا يشكل الالتزام الدينيّ خطرًا على العلمانية"[١٣٤].

وتمثل العلمانية السوفييتية أو الفرنسية المتطرفة تهديدًا خطيرًا للقيم الاجتماعية والثقافية الإسلامية، وحاول السوفييت تعويض ذلك أو تحييده باعتناق القيم العالمية الاجتماعية والتعددية الثقافية، لكن الخصائص الإلحادية الشيوعية الروسية أحبطت كل ما ألمح به السوفييت من إيماءات لتحييد التوجه المعادي للإسلام في الكتلة الشيوعية، وقضى التدخل

---

(134) Ünal and Williams (eds.), Fethullah Gülen: Advocate of Dialogue, New Jersey: The Fountain, 2000, p. 167.

العسكري السوفييتي في أفغانستان في ديسمبر/كانون الأول ١٩٧٩م على كل الآمال في تحقيق أية مصالحة بين الإسلام والاشتراكية؛ وتمثل الجذور الغربية للعلمانية إشكالية للمجتمعات التي استوردت خبرتها من الغرب عن طريق هيمنة الاحتلال والإمبريالية، فأصبحت القطاعات الدينية منذ حقبة احتلال العالم الإسلامي لا تُعنَى بالحياة السياسية في بلدانها، وما حدا بهم في النهاية إلى الانخراط في الحياة السياسية تحت مظلة هذا الحزب الديني أو السياسي أو غيره سوى الطابع العلماني الإلحادي المعادي للإسلام، الذي فُرض على جماهير المسلمين وصار مصدر قلق عندهم؛ لكن كولن الذي يرفع الدين فوق السياسة بكثير لم يشترك في أي نشاط سياسي، وحذر كل محبّيه من الانضمام إلى أي حزب سياسي بصورة مباشرة؛ فأبناء تلك الحركة -كما يقول- لا تغريهم الشهرة أو المنصب أو المال، ففي كل ما يفعلونه في هذا العالم العابر يجب أن يضعوا الآخرة أمامهم، ومرضاة الله ﷻ غاية لهم؛ غير أنه يشجع الناس طبعًا على التصويت في الانتخابات، ويرى أن هذا من حقوق المواطن وواجباته، فالدين مصدر للأخلاق التي تتوافق ولا تتعارض مع الممارسة المسؤولة للسياسة، وهذا برأيه أفضل سبيل يمكن للمرء أن يخدم به أمته ودينه معًا دون خوف من عذاب الله أو اضطهاد الدولة.

ويدعو كولن إلى «الحفاظ على الاعتدال، أي إعطاء كل شيء حقه، دون الولوج في الإفراط والتفريط»(١٣٥)، وهنا يوفق بين جوانب الإسلام الدنيوية ومبادئ الحكم الديمقراطية الأصيلة، يقول:

(١٣٥) فتح الله كُولَن: التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح-٢، «الحكمة»، نشر دار النيل التركية، إسطنبول ٢٠١٢م، (لما يترجم عن التركية)، ص ٣٢.

"يهتمّ الدين أساسًا بثوابت الحياة والوجود، أما النظم أو الأيديولوجيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية فلا تهتم إلا ببعض الجوانب الاجتماعية المتغيرة في حياتنا الدنيا، علمًا أن العبادة والمعايير الأخلاقية العالمية الثابتة لا تتعلق كثيرًا بالزمن والحياة الدنيوية؛ فالدين يقيم مبادئ ثابتة تتعلق بالإيمان والعبادة والأخلاق، فما ينبغي مقارنته بالديمقراطية هو الجوانب الدنيوية في الإسلام فقط"(١٣٦).

البحث عن المشترك: النموذج التركي

العداء المفرط أو التجاوب المفرط هما ردُّ فعل كثير من المسلمين تجاه الحركات الديمقراطية العلمانيّة عامة وتجاه السياسات التي تفرضها السلطة العلمانية العليا على الشعب خاصة، هذا باختصار هو تاريخ بناء الدولة في العالم الإسلامي خلال القرنين السابقين؛ وأمام تحديين متشابهين يتمثلان في العلمانية الأيديولوجية والإسلام السياسي، سعى كولن إلى عكس المسار التاريخي للعلمانية المتطرفة في تركيا بوسائل سلمية تخفف حدة المعارك الأيديولوجية الدائرة بين المؤسسة العلمانية المتشددة والقوى الدينية، ونجح في إقناع كلا الجانبين بأن التطرف من أي نوع ليس حلًّا لأيٍّ مشكلة تواجهها تركيا، فحظيت أفكاره بالقبول لدى الغالبية من مختلف مجالات الحياة بفضل ثقافته الدينية ومنهجه السّمِح، رغم دعاية مكثفة شنتها ضده أقلية علمانية متطرِّفة حاولت تصويره على أنه عدوّ.

مِن أسس الإسلام الراسخة أنك إذا لم تؤمن بالكتب السماوية

(136) The Fountain, M. Fethullah Gülen: Essays, Perspectives, Opinions, pp. 13–14.

لأهـل الديانـات والأعـراق الأخرى، لا تكون مسـلمًا حقيقـة؛ وقد أعلن زعيم ديني كبير في بنجلاديش اسـمه «حافظي هُزور» أن ''المسـلمين هم إخواننـا في الدين، وغير المسـلمين أقاربنا، فكلنا أبنـاء آدم وحواء''؛ غير أن أتبـاع حافظي لم يفهموا ما ينادي به، بينما لبّى ملايين الشـباب التركي من الجنسـيْن نداء كولن في الأمر نفسـه؛ ونشـر كولن هذه الفكرة بكتاباته وخطبـه في المؤسسـات الدينيـة والعلمانية فـي تركيا خـلال أربعة عقود مضت؛ وتساءل كثيرون: كيف عثر على ذلك الطريق المتوازن في الدعوة إلى الإسـلام في عصر العداء والتعصب الذي نعيشـه؟ وكم حاول كثيرون غيره على مدى التاريخ الإسلامي أن يحققوا التوازن بين حماسهم لتطبيق الإسـلام بـكل جوارحهم ورغبتهم فـي إظهار الاحتـرام العميق للديانات الأخرى!

لقد نأى كولن بنفسـه عن الخلافات السياسـية والدينية كلِّها حتى بعد بلوغ شعبيته أَوْجَهَا في مطلع القرن الحادي والعشرين، وصرَّح بعدم نيته ممارسةَ السياسة أو دعمَ أيّ حزب سياسيّ؛ لكن مع ذلك تراه يقول: ليس من حق رجال السياسـة الأتراك أن يفسـدوا، أو يحرموا الشعب من نصيبه المسـتحق فـي النظـام الديمقراطي والإصـلاح الاقتصـادي والاجتماعي الذي تحتاجه البلاد.

> ''لقـد تراكمـت لـدى الشـعب التركي مشـكلات كثيـرة في عـدة قـرون خلَـتْ، سـببها الرئيـس تركيزنـا الخاطئ علـى ظاهر الإسـلام، وإهمالنـا للدرة الثمينـة الكامنة في جوهـره، ثم تقليدنا للآخريـن، ووهمنـا أن بين الإسـلام والعلـوم الوضعيـة تعارضًا، فالجهـل هو أخطر مشـكلة مطلقًـا، فلنحاربه بالتعليـمِ أهمِّ الطرق

لخدمة وطننا، فالجهل بالتعليم يُهزم، والفقر يُهزَم بالعمل وامتلاك رأس المال، والشقاق والانقسام الداخلي يُهزم بالوحدة والحوار والتسامح"[١٣٧].

وكثير مما يطلق عليه الأحزاب السياسية الإسلامية حاولت أن تحظى بنصيب أوفر في الشؤون السياسية الاقتصادية لبلدانها، فأُبعدوا عن ممارسة السياسة أو المشاركة في الانتخابات في بعض البلدان، واستخدمت القبضة الحديدية العسكرية أخيرًا لمنعهم من الوصول إلى سُدّة الحكم في بلدان أخرى:

"فصارت الديمقراطيات القائمة تقبل بانتخابات مزورة وغير عادلة للحصول على مكاسب سياسية حسبما ذكرت منظمة هيومان رايتس ووتش اليوم [واشنطن العاصمة، ٣١ يناير ٢٠٠٨م] إثر صدور تقريرها العالمي لسنة ٢٠٠٨م، فالسماح للأوتوقراطيين بأن يظهروا بمظهر الديمقراطيين دون مطالبتهم باحترام الحقوق المدنية والسياسية التي تجعل للديمقراطية معنى جعل الديمقراطيات القوية المؤثرة كالولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وغيرهما يخاطرون بتقويض دعائم حقوق الإنسان عالميًّا؛ فما أسهل أن يُفلِت الأوتوقراطيون اليوم من الحساب باعتلائهم قمة نظام ديمقراطي صوريّ كما قال كينيث روس المدير التنفيذي لمنظمة هيومان رايتس ووتش؛ ومن الصعب على الولايات المتحدة وبعض حلفائها أن تطالب الحكومات الأخرى باحترام حقوق الإنسان بينما ترتكب هي انتهاكات كثيرة أثناء حربها على الإرهاب؛ وتقول المنظمة: عندما تتهرب الحكومات الأوتوقراطية من الانتقادات التي توجه إليها لانتهاكها حقوق

(137) *The Fountain, Ibid., pp. 83–85.*

الإنسـان بادعاء أنها حكومات ديمقراطية، فإن الدفاع عن الحقوق عالميًّا يصبح معرضًا للخطر''[١٣٨].

فـي إطـار هذا السـيناريو العالمـيّ لا يسـتطيع المرء تخيّـل أنّ تركيا بعلمانيتها المتطرفة ستسمح لمن يطلق عليهم القوى الإسلامية بالوصول إلـى السـلطة والاحتفـاظ بها سـلميًّا فتـرة طويلة مـن الزمن، لكـن أثبت رجـال السياسـة بمـا لديهم من طابـع معتـدل أنهم قـادرون على التعايش مـع القوى العلمانية والقومية في تركيا قدرتَهم على قيادة التنمية السـريعة للنمـوّ الاقتصـادي، فقـد وصلت صـادرات تركيا سـنة ٢٠٠٧م إلى ١٠٠ مليار دولار، وذلك لأول مرة في تاريخها، واحتلت المركز السـابـع عشـر بين أكبر اقتصادات العالم باسـتثمار أجنبي مباشر يتجاوز ٢٠ مليار دولار أمريكي سنويًّا.

لـم يسـتطع العلمانيـون في تركيـا تقديم أيـة تنمية اقتصادية سـريعة بمجـرد فصـل المتدينيـن عن غيـر المتدينيـن، ويبدو موقفهم الانقسـامي ''أشـبه بموقف ديكارت، الذي وضـع خطًّا أحمر بين العلم والدين لمنـع تجاوز أحدهما على الآخر''[١٣٩]؛ فعانت تركيا من حرب داخلية باردة بين الديـن والعلمانية المتطرفة، اشـتدت وطأتها مـع التدخـل الجائر والحظر الكامل للحجاب في مؤسسـات التعليم العالي سـنة ١٩٩٧م، صحيح أن العلمانية المتطرفة حققت نصرًا سهلًا نسبيًّا في التشبث بالسلطة على كافة المستويات عدةَ عقود، ووصمَت جميـع أشكال القوى السياسية الإسلامية

(138) http://hrw.org/englishwr2k8/docs/2008/01/31/usint17940.htm

(١٣٩) من حوار أجراه الصحفي التركي «محمد كُونْدَمْ (*Gündem*)» مـع الأستاذ فتح الله كولن، نشر في جريدة «ملّيّت» التركية في تاريخ ١٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٥م.

المعتدلة بأنها قوى أصولية، لكن هذا لم يجعل الجهاز الحكومي مستبدًّا فحسب، بل غدا غارقًا حتى أذنيه في الفساد.

كان الاقتصاد التركي مصابًا بأزمة عميقة لأسباب متعددة بدءًا من أواخر سبعينات القرن العشرين حتى نهاية الانقلاب العسكري الذي وقع سنة ١٩٨٠م، من تلك الأسباب انتشار الإرهاب الماركسي والنزاع السياسي وسوء إدارة الحكومة وزيادة التفاوت بين الطبقات الاقتصادية، ففي ظل تلك البيئة بدأت القوى المعتدلة بأنواعها تشكّل تدريجيًّا تحالفًا ضد النخبة الفاسدة بعد استعادة الحكم المدني سنة ١٩٨٤م، فالنخبة العلمانية والقومية المتطرفة لم تتخذ أي خطوات للتحرك نحو انتخاب حكومة تمنع انتهاك الحرية الدينية، وتحافظ على الحياد في القضايا الدينية.

ولما انهار الاتحاد السوفييتي فقدَ الإلحاد والعلمانية قدرتهما على الانتشار بوصفهما قيمة للتبادل الأيديولوجي عبر الحدود، هدفها تحقيق إصلاحات اقتصادية، فصار إقبال الجماهير على القيم الإسلامية أقوى بوصفها علاجًا للفساد المستشري ونظام الحكم الهزيل؛ وحاولت القوى العلمانية المتطرفة أن تبعد من يطلق عليهم «الإسلاميين» عن الوصول إلى السلطة بالانتخابات، فما كان ليسمح لتركيا بالتحرك في أي اتجاه غير الطريق العلماني في التنمية، فطفح الكيل بالمسلمين التقليديين تجاه العلمانيين المتطرفين، الذين أهدروا القيم الأسرية والثقافة الإسلامية حتى إن صورة المسلمين الأتراك شُوِّهت في البلدان الإسلامية المجاورة.

ورفض الغرب الاعتراف بوجود أزمة علمانية في العقود الأخيرة، وإن كان البابا بندكت السادس عشر ذكر في محاضرة بعنوان «الكنيسة

وتحـدي التحول العلماني» أن العلمانية «تغزو كل جوانب الحياة اليومية، وتـؤدي إلـى تكوين عقلية يغيب فيها الـرب فعليًّا كليًّا أو جزئيًّا عن الحياة والضمير الإنسـاني، وهذا لا يهدد عامّة المؤمنين فحسـب، بل أصبح منذ فترة واضحًا في قلب الكنيسة نفسها»[١٤٠].

وأدرك كولن الداعية الإسلامي منذ أربعة عقود أن مصالح المسلمين في تركيا في خطر كبير منذ زمن طويل، لكنه قرر ألا يخرج على الحكومات العلمانية التركية، بل ظل يدعو بأعلى صوته إلى الهدوء والسكينة أيّا كانت الظروف، والاعتدالِ والرفقِ ولو في النقاش:

"أجـل، ينبغـي ألا نناقـش مـن أجـل الـذات أو الأنـا، وإنما لنُسـهِم في إظهار الحق؛ وهذا سـلوك يجب على الإنسان التحلي بـه؛ فالمناظرات السياسـية التي همُّها الوحيـد التغلب على الآخر لا نجـد فيهـا أية نتيجة إيجابية، فإظهار الحق في المناقشـة يقتضي وجود مبادئ مثل تبادل الفهم والاحترام والتزام العدل، وهذا الأمر باعتباره قاعدة قرآنية لا يمكن أن يحدث إلا في بيئة تشجع الحوار.

فأكبـر طغيانٍ هو إخراس الإنسـان كل أصـوات الضمير التي تذكِّر بالله، والظلم في الوقت نفسه يعني الاعتداء والقمـع وفرض الآراء علـى الآخريـن، وهو مـن هذه الناحية ينطوي على الشـرك والكفـر، فربما لا يكون كل مشـرك أو كافـر معتديًا على الآخرين بالمعنى الذي ذكرناه، ولكن من ينشرون الظلم بين الناس بالمعنى المشـهور، ومن يحملون السلاح لقطع الطرق، وينتهكون حقوق الآخرين وحقوق الله تعالى ويخرجون على العدالة الإلهية؛ ينبغي التصدي لهم في إطار القانون"[١٤١].

---

(140) Pope Benedict XVI, «Exalted Values of Life to Counteract Secularisation,» March 8, 2008.

(١٤١) فتح الله كولن: الحب مكنون في روح الإنسان، «الحوار مع أهل الكتاب»، ص ١٨٢ (لما يترجم عن التركية).

يتبين بهذا الكلام الفارقُ الدقيق بين كولن والقادة الدينيين المعاصرين، إذ يرون أنّ عليك أولًا أن تغير قوانين الدولة لتوافق المبادئ الإسلامية، حتى تتمكن من منع الطغيان الحكومي وإقامة العدل، أمّا كولن وحده فليس من الحكمة عنده ألبتة أن تحارب طغاتك بالعنف، بل حاول أن تغير في إطار القوانين، وهذا قد يفيد كثيرًا في جعل النخبة الحاكمة تدرك أنه لا أحد ينتهك حقوق الناس ويفلت بسهولة، فإذا لعبت الجماهير دورًا مهمًّا في صياغة رأي عام تقدُّمي، فسيكون بإمكانهم تدريجيًّا وضع نظام حاكم عسكري أو مدني يحقق أهدافًا سامية تضمن السلام والعدالة للناس جميعًا.

وبينما كان كولن يمضي بعزم وقوة في رسالته السلمية النبوية، كان البابا بندكت السادس عشر -وا أسفاه- يقتبس من خطاب معادٍ للإسلام للإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني: ''أرني ما الجديد الذي جاء به محمد، لن تجد سوى أشياء شريرة غير إنسانية، كأمره بنشر الدين الذي يدعو إليه بالسيف''؛ أنَّى لشخص أن يدرك أثر النبي الكريم ﷺ في تحضر الإنسانية إذا كان يعتقد أن الإمبراطور البيزنطي السفاح مانويل الثاني شخص مستقيم مُنصِف في تقييمه لرسالة النبي في نشر العدل والحب والسلام والرفق للناس جميعًا؟!

ويشير أَرْكَنَه -وهو محقّ- إلى أنّ نشر معلومات ومفاهيم خاطئة لفّقتها أطراف مُغرِضة هو السبب الرئيس وراء تشويه صورة الإسلام الصافية بوصفه دينًا يدعو للسلام:

لذا يصعب على الجماهير الغربية المحاطة والمحاصَرة بوسائل الإعلام هذه أن تَعرف أو تستوعب ماهية الألاعيب التي

> تجري اليوم في بعض بلدان العالم الإسلامي، فإن لم تصل إليهم معلومات وأخبار صحيحة عن الإسلام فلا يملكون -أمام هذه الصورة المشوهة- سوى الشعور بالرعب والفزع، ولا يستطيعون معرفة حقيقة اللعبة التي يلعبها الغرب في العالم الإسلامي، فالصحوة التي يشهدها العالم الإسلامي، وتصاعُد الوعي الإسلامي فيه، يبدو لهم وكأنه قرين لتصاعد العنف والإرهاب الدولي[١٤٢].

ورغم أن الغرب يقدم للمجتمع غالبًا صورة متحيزة عن الإسلام تضرُّ كثيرًا بمصالح جمهور المسلمين، لكنّ كولن لم يُعادِ ولو تعريضًا في خطبه أو كتاباته أيّ شعب أو أمّة، ولم يقف عند لوم الناس لجهلهم بالإسلام، بل جاهد للتعريف برسالة الإسلام الصحيحة وللحوار بين الأديان والحضارات، وبهذا الحوار أثبت مدى إخلاصه في محاولته جمع أبناء الديانات على طاولة للنهوض بالإنسانية كلها، ولتنوير أرواح البشر جميعًا دون نظر إلى العرق أو الدين أو النوع.

(١٤٢) محمد أنس أركنه: فتح الله كولن - جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص ١٢٩، دار النيل ٢٠١١م.



الفصل السابع:

الجهاد والتسامح والإرهاب في رأي كولن





الجهاد والتسامح والإرهاب في رأي كولن

يغـذي الإعلام يوميًّا فـي صفحاته الأولى وبرامجه الإخبارية التحامل على الإسـلام لدى الناس خاصة في الغرب، فأصبح الجهاد عند بعضهم هو العنف والإرهاب؛ ثم يأتي كولن ليؤكد أنّ الجهاد «أمر إلهيّ»، وفصَّل في أمرين أساسيين في الجهاد:

"إن الجهـاد في سـبيل الله يجري في جبهتيـن اثنتين: الأولى موجهـة إلـى الداخل، والأخرى موجهة إلى الخـارج. ويمكننا أن نعرّف كلًّا من الجهاديْن بالآتي: إن بذل الجهد إلى الداخل عبارة عن عملية محاولة الإنسان أن يصل إلى ذاته وإلى ربّه، أما الجهاد الآخر الموجه إلى الخارج فهو عملية إيصال الآخرين إلى ذواتهم وإلـى ربّهـم، ويطلـق علـى الأول «الجهـاد الأكبر» وعلـى الثاني «الجهاد الأصغر»، حيث إن الإنسان بالأول يبلـغ معرفة نفسه بعد اجتيـازه العقبات بينه وبين نفسـه حتى يبلـغ معرفـة الله ومحبة الله والذوق الروحاني، أما بالثاني فتتحقق بإزالة الموانـع بين الإنسـان والإيمان بالله سواء بالنضال أو القتال، لإيصاله إلى الله تعالى ومن ثم التعرّف عليه والعروج في معرفته"[١٤٣].

(١٤٣) فتح الله كولن: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، ص ٢١.

وينتقـد كولن اختزال الجهاد بالقوة المادية فقط، ويقرِّر أنّ الجهاد هو بذل الجهد لبلوغ مرتبة «الإنسان الكامل»، فهو يشمل كل أنواع المجاهدة في سـبيل الله من أجل خير الإنسـانية، فالجهاد ليس هو الضرب بالسـيف فحسب:

''الجهاد الأصغر ليس هو شكل الجهاد الذي يؤدَّى في جبهة القتال فحسـب، فهـذا النمط من الفهم يقلّص أُفـق الجهاد، حيث إن مَيدان الجهاد واسـع جدًّا يمتد من الشـرق إلى الغرب، وعلى سـعته وشـموله قد يكون كلمة واحدة أو سـكوتًا وصمتًا أو تبسّمًا وطلاقة وجه أو امتعاضًا ونفورا أو تركًا لمجلس أو مشـاركة فيه.. وباختصـار هـو القيام بـأي عمل مـن الأعمال لوجـه الله، وتقويم الحب في الله والبغض لله في هذا السبيل... ومن هنا فإن كل جهد يبذل لإصلاح المجتمع في أي ميدان كان من ميادين الحياة ولأي شـريحة من شـرائح المجتمع. كل ذلك هو من مضمون الجهاد الإسلامي. بمعنى أن ما يُؤَدَّى في ميدان العائلة والأقارب القريبين والبعيديـن والجـار ذي الجنب والصاحـب بالجنب، كل ذلك هو مـن الجهـاد الأصغر. فهي كدوائر متداخلة واسـعة سـعة الأرض كلها''(١٤٤).

ويشير كولن إلى أن شكل الجهاد يختلف باختلاف الأزمان، فيقول:

''إن أشـكالَ الجهـاد تتبايـنُ وتتنـوع وفقا لمختلـف العصور والأزمـان؛ فكما يكون الجهـاد بالنصيحة المحضـة أحيانا، يكون بإرشـاد شخص ما أحيانا، وبأخذ موقف ضد الكفر أخرى؛ وكثيرا مـا يمكـن اعتبار القدوة الحسـنة والمثال الحسـن نوعـا من أنواع

(١٤٤) فتح الله كولن: المصدر السابق، ص ٢٦.

الجهـاد، فقد أُعتبرت الهجرة، على سـبيل المثـال، لفترة معينة في عصر السعادة كالجهاد عينه.

...وقد قال سيدنا رسول الله ﷺ لشاب جاءه فارا كي يشارك في الجهاد: ''أَحَيٌّ وَالِـدَاكَ؟''، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: ''فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ!''[١٤٥] أي إن أمره ﷺ إياه أن يقوم على رعاية والديه والاهتمام بهما إشارة إلى أن جهادَه هو رعايتُه والديه[١٤٦].

وكونه جهادًا أصغر إنما هو بالنسبة للجهاد الأكبر، وإلّا فليس فيه جهة صغيرة قطّ[١٤٧].

وهـذا القـول يعبـر عـن وجهيـن مختلفيـن لحقيقـة واحدة، فكلاهما فيه تزكية للبشرية ومحاولة للوصول بها إلى الكيفية التي يبتغيهـا ربنا تبـارك وتعالى، وعلـى ذلك فالجهـاد بنوعيه الأصغر والأكبر يعبر عن وجهين مختلفين لحقيقة واحدة''[١٤٨].

فالجهـاد الحقيقـي فـي نظره هـو أن تصبح إنسـانًا أو مسـلمًا مثاليًّا، والجهـاد وفقًا لأي منظور إسـلامي هـو مجاهدة ذاتية يقـوم بها المكلف طـوال حياتـه للارتقاء في مراتـب التقوى وتقديم الخدمـة لأهله وجيرانه وأبناء وطنه خاصّة وللإنسانية عامّة، ولا وجود للعنف والإرهاب ألبتة في العقيدة والفكر الإسـلامي ولو في مقاومة العنف والعدوان على الأبرياء، ففـي نصوص القرآن مجموعة مبادئ مهمة يتعين على المسـلمين في كل العصور اتّباعها:

(١٤٥) صحيح البخاري، الجهاد ١٣٨، الأدب ٣؛ صحيح مسلم، البر ١.

(١٤٦) فتح الله كُولَن: المنشور-٢، نشر دار النيل التركية، إسطنبول ٢٠٠١م، (لما يترجم عن التركية)، ص ١٤٨-١٤٩.

(١٤٧) فتح الله كولن: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، ص ٢٧.

(١٤٨) فتح الله كُولَن: سلسلة الأسئلة العصر المحيرة-٣، نشر دار النيل التركية، إسطنبول ٢٠١٠م، (لما يترجم عن التركية)، ص ٢٠٠.

"إن الأصل في الإسلام هو السلم وليس الحرب، وأفضنا في بيان أن الأسباب الموجبة للحرب هي الدفاع، والحدّ من الظلم، وفتح باب حرية الإرشاد والتبليغ"(١٤٩).

وصرّح القرآن الكريم أنَّ قوى الشر التي تحاول القضاء على السلام والوئام بين الشعوب والديانات لن تفنَى:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ۝ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ۝ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۝ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (سُورَةُ الْحَجِّ: ٢٢/٣٩-٤٨).

---

(١٤٩) فتح الله كولن: روح الجهاد وحقيقته في الإسلام، ص ١٦-١٧.

تبين هذه الآيات أنّ الجهادَ لا يقصد منه هلاك أي شيء أو أي شخص على الأرض، بل هو بذل أقصى الجهد لمناصرة الحق أبدًا مهما كانت العقبات أو الصعوبات؛ فالجهاد كغيره من المسائل المذهبية في الإسلام، وله وجهان: مادي ومعنوي، يقول كولن:

"إن الجهاد الأصغر في معنى من معانيه جهاد مادي، أما الجهاد الأكبر الذي يشكل الجانب المعنوي من الجهاد فهو جهاد الإنسان لنفسه وعالمه الداخلي، فمتى ما أُوفى حق هذين الجهادين معًا فقد تأسس التوازن المطلوب، وبخلافه، أي إذا ما نقص أحد هذين الجهادين اختلت الموازنة الموجودة في روح الجهاد"(١٥٠).

والموازنة بين الجهاد المادي والمعنوي على مستوى الفرد والأمة والعالم بأسره مسألة في غاية الأهمية والتعقيد، فجوهر الأمر هو التضحية بالمال والوقت والجهد والموهبة في سبيل قضايا أسمى في الحياة، أي في سبيل إعلاء الحق والأخلاق الحميدة والتواضع وحقوق الإنسان، فلا بد أن نضحي بالكثير في سبيل الآخرين لننشر هذه الظاهرة، فالأفراد والدولة والمؤسسات بأنواعها وكل من لديه موارد عليه أن يحذر من الاعتداء على أي حق للآخرين؛ ومشكلة غالب المسلمين أنهم يظنون أنه لم تعد لديهم قدرات وطاقات لينفقوها في سبيل الله، فاعتقدت جماعات صغيرة كثيرة في مناطق مختلفة من العالم بأن عليها أن تبذل أقصى ما لديها وتضع أرواحها على أكفها في سبيل قضاياها؛ لكن البطولة الحقيقية في نظر كولن ليست في الموت بل في الحياة من أجل الآخرين، فالتضحية بالنفس في سبيل خدمة الآخرين ركن أساسي عنده.

(١٥٠) فتح الله كولن: المصدر السابق، ص ٢٦.

ونحن نلحظ -وا أسفاه- أن الهجمات الانتحارية كثيرًا ما تكون خيارًا تكتيكيًّا لجماعات من ديانات مختلفة في العالم، لكنّ سلوك الإرهاب الذي يمارسه هؤلاء -كما تقول كارين أرمسترونج- لا يمكن عدُّه سلوكًا يهوديًّا أو مسيحيًّا أو إسلاميًّا:

"صحيح أن المسلمين -مثلهم في ذلك مثل المسيحيين أو اليهود- ابتعدوا كثيرًا عن مُثُلهم العليا، لكنّ هذا لم يكن سببه الدين، فالتفجيرات التي قام بها الجيش الجمهوري الإيرلندي نادرًا -إن كانت قد حدثت أصلًا- لم توصف بأنها إرهاب «كاثوليكي»؛ ليقيننا بأنها لم تكن حملة دينية أساسًا، بل كثير من الحركات الأصولية في أنحاء العالم -على غرار حركة الجمهورية الإيرلندية- هي أشكال جديدة للحركة القومية تتستر بقناع ديني منحرف، وهذا ما نراه في الأصولية الصهيونية في إسرائيل واليمين المسيحي المتطرف في الولايات المتحدة"(١٥١).

ويبين كولن أنه لا مسوغ في الإسلام لإزهاق الأرواح بغير حق، وتشهد بذلك آيات كثيرة:

"يتناول القرآن الكريم موضوع قتل ولو نفس واحدة على أنه جريمة ترتكب بحق الناس أجمعين؛ فيقول: ﴿**مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٣٢/٥). ولا يمكن العثور على هذه الحساسية الإسلامية الخاصة بموضوع «الحق» في أي دين آخر على الإطلاق، بل ولا في أي نظام قانوني حديث أيضا.

(151) *Karen Armstrong, «The label of Catholic terror was never used about the IRA,» The Guardian, July, 11, 2005; http://www.guardian.co.uk/comment/story/0,,1525714,00.html/larticle-continue*

أجـل، لقد تصرف الإسـلام بحساسـية وحـذر شـديدين في هذه المسألة؛ فجعل قتلَ إنسانٍ واحدٍ يعدل قتل الإنسانية جمعاء.

...وثمة آية أخرى تلفت الأنظار إلى خطورة الموضوع فيقول تبارك وتعالى: ﴿**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٩٣/٤) وبالنظر فـي مثل هذا فإننـي أريد هنا التركيـزَ بوجه خاص على كلمة «خَالِدًا» الواردة في الآية، إذ إنها استخدمت دون إضافة لفظ «أَبَدًا»، واسـتخدمت في آيات أخرى مضافة إليها، ومع هذا فـإن ابن عبـاس رضي الله عنهما وبعض أئمة التابعين يـرون -انطلاقا من لفظ «خَالِدًا»- أن مَنْ يقتل مؤمنًا متعمدًا يستحق العذاب الأبدي، مثلُه مثلُ مَنْ يُنكرُ الله تعالى"[١٥٢].

يقول كولن: الإسـلام -الذي يعني السـلام والعدل في حياتنا الفردية والجماعية، ويقوم حقًّا على أسـاس الرفق والرحمة- يسـعى إلى الإحياء لا إلى القتل، فالهدف الإسـلامي لا يمكن تحقيقه إلا بالوسـائل والطرق الإسلامية، فما يستخدَم من وسائل وطرق قد تفقد أغراض المرء السياسية وجهها الدينـيّ، «لا يمكـن الوصول إلـى الحق بوسـائل باطلة، يجب أن تكون الوسائل المستعملة وسائل حق»[١٥٣]؛ وأعلن كولن شَجْبَه واستنكاره لهجمـات الحادي عشـر مـن سـبتمبر/أيلول الإرهابية، كمـا ردّ على ربط الإرهاب بالإسـلام، وطالب بإدانة من يشـوهون الوجه المضيء للإسـلام واتخاذ إجراء موحد ضدهم؛ ويذكر كولن بنهي الإسلام عن قتل الإنسان نفسه، خاصة إذا كان هدفه من ذلك إيذاء الآخرين، فيقول:

(١٥٢) فتح الله كُولَن: المنشور-٢، نشر دار النيل التركية، إسطنبول ٢٠٠١م، (لما يترجم عن التركية)، ص ٩٠-٩١.
(١٥٣) فتح الله كولن: الموازين، ص ٢٠٣.

> "ليس من الإسلام في شيء أن يقوم انتحاري بتفجير نفسه، فالإسلام لم يُقر قتلَ الأبرياء ألبتة، ولم يُفتَ على مر التاريخ في الإسلام بجواز قتل الأبرياء، ويستحيل أن يُفتى بذلك، ولكن التصرفات الخوارجية والقرمطية لأناس تم خداعهم أو التلاعب بهم بالمخدرات أو بغيرها من الوسائل، أدى إلى تشويه سمعة كثير من الأبرياء وتلويث صورة الإسلام النقية، وأصبح المسلمون النموذجُ في التوكل على الله ورمزُ الأمن والسلام يُتهمُون بأنهم إرهابيون"(١٥٤).

وفي مقابلة أجرتها الصحفية بجريدة زمان «نورية آكمان» قال كولن:

> "لا مكان للإرهاب في الإسلام؛ لأنه يساوي ما بين قتل النفس والكفر من حيث الخطورة، فلا يحق لكم أن تقتلوا إنسانا ما، وليس لأحد أن يمس بريئًا ولو في زمن الحرب؛ وليس لأحد أن يفتي بهذا، وليس لأحد كذلك أن يقوم بتفجير انتحاريّ، ولا أن يندفع في جموع الناس بحزامٍ ناسف، هذا لا يجوز شرعًا أيًّا كان دين هؤلاء الناس"(١٥٥).

إذًا، ليس السؤال المطروح: هل يجيز الإسلام أو يحرم التفجيرات الانتحارية أو الأعمال الوحشية ضد خصم أو عدو مجاهر، خاصة من لا يمكن قتاله قتالًا تقليديًّا بأي شكل؟ وإنما القضية الجوهرية هنا هي أن في المسلمين مَن فقدوا روح الرفق والرحمة المفترض أن تعود عليهم وعلى الآخرين بالخير؛ وهذا لم يحدث فجأة بل هي ظاهرة بدأت مبكرًا أكثر مما نتخيل أو نعرّف بها الآخرين، قد تكون بدأت مع الخلافات الدينية

(١٥٤) فتح الله كُولَن: سلسلة الجرة المشروخة-٤، فنار الأمل، نشر دار النيل التركية، إسطنبول ٢٠١٠م، (لما يترجم عن التركية)، ص ١٦١.

(١٥٥) من حوار أجرته الصحفية التركية «نورية آقمان (*Nuriye Akman*)» مع الأستاذ فتح الله كولن، نشر في جريدة «زمان» التركية بين تاريخ ٢٢ آذار/مارس - ١ نيسان/أبريل ٢٠٠٤م.

والعرقية المختلفة، وزادت حدة العنف والإرهاب مع الأفكار القائلة بأنه من الطبيعي جدًّا استعمال القوة للاستيلاء على أموال الآخرين وأوطانهم بلا رقيب قانوني أو أخلاقي، وتجدر الإشارة هنا إلى تحليل ممتاز لِهبلر، يقول:

"في الحروب والمذابح والعنف السياسي خلال ألف أو ألفي سنة مضت، لا دليل على وجود أي اختلاف بين أنواع العنف في مختلف البلدان أو المناطق أو الجماعات الثقافية، ولم يحدث مطلقًا أن نشأت موجات عنف معًا في كل المناطق على مدار التاريخ، بل وقعت في عصور مختلفة وبأشكال مختلفة؛ فأوروبا وآسيا وأمريكا وإفريقيا والمسيحيون والمسلمون والهندوس والبوذيون وغيرهم، كل هؤلاء لديهم خبرة كبيرة بالعنف السياسي في صورة حروب وقتل جماعي وترحيل وقمع، وهناك أسفار كاملة من الكتاب العبري المقدس تصف المآثر العسكرية للملوك العظام وتنقل صراعاتهم بما فيها من تفاصيل دموية، أما العهد الجديد فلم يعلن الحرب فورًا، بل أعلنتها الكنيسة في مرحلة تاريخية لاحقة، فكان للمسيحيين سجل دامٍ في الحملات الصليبية والحروب الدينية، فكل المجتمعات ونظم الحكم شهدت غزوات وطغيانًا وحروبًا، وإن تفاوتت في شكلها وحجمها كثيرًا بحسب السياق السياسي لتفاوت الجوانب الثقافية أو الدينية"(١٥٦).

وطوال عصر الاحتلال والحرب الباردة، مرت العلوم الاجتماعية بأزمة بلبلة واضطراب، بل إن قوى الاحتلال السابقة والأطراف المؤثرة في السياسة الدولية لا تزال تمارس عملية غَسل مخ لشباب العالم الثالث والعالم الإسلامي؛ ويقف العلماء والكتّاب ذوو التوجه الديني غالبًا

---

(156) Jochen Hippler, War, Repression, Terrorism: Political Violence and Civilization in Western and Muslim Societies, Berlin, 2006, pp. 206–207.

عاجزين عن الإدلاء بدلوهم في العلوم المعاصرة من تاريخ معاصر وعلوم طبيعية وعلم نفس وفلسفة وتكنولوجيا، وتعمقت أزمة دراسة العلوم الاجتماعية والسياسية إثر نشوب الحرب النفسية بين العالم الإسلامي والغرب، وصار لكلا الجانبين غالبًا ردود أفعال تجاه قضايا حيوية تتعلق بحقوق الإنسان والكرامة الإنسانية؛ تقول فريدة أختر في هذا:

> "هندسة العمليات الحياتية وتصنيعها في مجتمع عالمي تسوده الفردية والأنانية يهددنا، فتحقيق الأرباح صار هو المعيار الأخلاقي الوحيد للمجتمع المدني، وانحصرت الثروة والنفوذ بيد شرذمة، وانقسم العالم انقساما حادًّا إلى حكام ومحكومين، وعصريّ ورجعيّ، وأول وثالث، وشمال وجنوب إلخ"(١٥٧).

وتعرض كولن مثل الملايين منا لضغوط وقمع الحكومة وسياساتها المعادية للشعب داخل تركيا وخارجها، ولم يفقد الأمل ألبتة في إقناع شعبه والشعوب الأخرى بالتقدم والاضطلاع بدور صانع السلام بدلًا من نشر الكراهية والعداوة ضد الديانات الأخرى، بل حتى ضد خصومه، وأطلق مارك شيل الخبير والمحلل الغربي على كولن اسم «مهاتما غاندي تركيا»، و«الرومي العصري» الذي ألهم الأمة التركية كلها أفكار السلام والسكينة من أجل الناس جميعًا(١٥٨).

يقول كولن: "الجهاد الأصغر لا يطبق إلا لإزالة العَقبات أمام كمال الإنسان خلقيًّا وروحيًّا، وإرساء السلام والنظام في المجتمع

(157) Farida Akhter, Depopulating Bangladesh: Essays on the Politics of Fertility, Third Edition, Dhaka: Narigrantha Prabartana, 2005, p. 67.

(158) Mark Scheel, «A Communitarian Imperative: Fethullah Gülen's Model of Modern Turkey,» The Fountain, Issue 61, January–February 2008.

الإنسـاني"[١٥٩]، وللتسـامح دور مهم في إيجاد السـلام داخل المجتمع، فليكن الجهاد من أجل التسامح، يقول كولن: "فعلى المجتمع أن يتمسك بالتسامح، فإذا كان هناك شيء نعلن الجهاد من أجله فهو التسامح"[١٦٠].

الخدمة: طريقة كولن في الجهاد

لا تقتصر كتابات كولن وخطبه على مجال بعينه، فقد كتب بتوسع في التربية والعلوم والتكنولوجيا وعلم النفس والفلسـفة والتاريخ والاقتصاد، وأوضح أن هدفه الأسمى من جهوده كلها هو جمع أبناء مختلف الديانات، وقـد أنجز بالتعليـم متعدد الثقافات وحـوار الأديان عمـلًا فكريًّا وروحيًّا رائـدًا فـي العقيدة الإسـلامية لا نظيـر له في التاريـخ الحديث؛ واصطلح شـعبيًّا على تسـمية الحركة التي تنتمي إليه باسـم «الخدمـة»، وخلافًا لِما يوحـي بـه المعنى الحرفـيّ للكلمة، فهـي واجب مجتمعي يقـوم فيه ذوو الضميـر واليقظة بخدمة أبناء وطنهـم، والآخرين من حولهم فالتعليم مثلًا فـي رأي كولن ليـس فريضة دينية على الفرد والمجتمع فحسـب، بل هو خدمة لا نهائية للطلاب وللمجتمع وللعالم بأسره.

أضرّت الحروب والصراعات كثيرًا بالرؤية العالمية التي ظل الإسلام ينشـرها قرونًـا مديدة، لكنّ الصوفيـة والفقهاء وعلماء العقيدة الإسـلامية تمسـكوا بكثير من القيم الإنسانية في الحضارة الإسلامية، ونقلوا النماذج الفكرية للبحث واكتشـاف القوانيـن الطبيعية إلى الغرب الذين نجحوا في استغلالها بإقامة حركة تصنيع وتمدن هائلة؛ لكن فقد كثير من المسلمين القلوب والأرواح التي تكرس نفسها من أجل الإنسانية كافّة ولإخوانها في

(١٥٩) فتح الله كُولَن: الجهاد وحقيقته في الإسلام، دار النيل – القاهرة، ٢٠١١م، ص ٢١.

(160) Ünal and Williams, Advocate of Dialogue: Fethullah Gülen, p. 206.

الوطن خاصة بوقوعهم فريسة للاحتلال الأوروبي والاستغلال والهيمنة الإمبريالية، وابتلع الانحلال الأخلاقي الغربي والمادي شعوبًا إسلامية كثيرة بصورة جعلتها تفقد استقرارها السياسي وسلامتها الفكرية؛ وعجز الخطاب الإسلامي السياسي والفكري عن إحداث أي تأثير حقيقي في نتائج الدراسات الاجتماعية بوصفها مجالات تربوية في مستويات التعليم المؤسسية، فبدأت البلدان الإسلامية في أنحاء العالم بتقليد الطرق الهدامة لاكتساب الخبرة العلمية والتكنولوجيا، فدمرت النظم البيئية المحيطة بها.

> "ولدى النظر إلى أزمة الغرب المزمنة في أعقاب التحلل والفشل في إعادة الانضباط يتحتم على المسلمين المسلحين بالمنهجية المعرفية القرآنية أن يشكلوا علاقات وطيدة مع مدارس التحليل الغربي أيًّا كان اتجاهها أو توجهها، فهذه المدارس ذات الأسس الفلسفية والفكرية والثقافية تتسع يومًا بعد يوم، وهي تقدم مدخلًا صحيًّا للمنهجية المعرفية الغربية من أجل منفعة الإنسانية كلها، فأزمة الغرب أزمة تحلل عجزت معها عن الانضباط لإقصائها للدين وصدها عن سبيل (الله، الغيب، الوحي)، أمّا أزمة العالم الإسلامي فتتجلّى في المنهجية المعيبة في التعامل مع تراث شامل قائم على مسوِّغات معقولة، لكنه تراث يعاني من عقلية جامدة متحجرة في تأويله، تجعلها عاجزة عن تفهم واستيعاب المفاهيم والمنهجيات لعالم معاصر كله نشاط وحيوية"(١٦١).

ومن العبث الاعتقاد بأن بلدًا أو شعبًا تحول إلى قوة شر دون علاقة سببية في منظومة التنشئة الاجتماعية للشباب، وقد جعل النجاح العلمي

(161) *Taha Jabir Alalwani, Missing Dimensions in Contemporary Islamic Movements, Herndon, VA: The International Institute of Islamic Thought, Occasional Papers Series, No. 9, 1996.*

الغربيّ الساحق بقية العالم يذعن تلقائيًّا لـ«هيمنة البيض» على أغلبية سكان العالم، فتمدّدت جنوب إفريقيا العنصرية تحت الحكم العسكري الأبيض لِتَدْخُلَ مناطق كثيرة من العالم في المناخ نفسه، ولم تكن الهند البريطانية سوى ظاهرة غير مرئية أو أسيء فهمها لنظام الحكم نفسِه وللاستغلال الظالم المفرط في وحشية لا مكان لها في الفقه والعقيدة الإسلاميّة، ثم فشل كثير من المسلمين في التعامل مع آثار استغلال الاحتلال والحركات القومية الناتجة عنه، التي جزّأت العالم الإسلامي إلى خمس وسبعين شظية أو ما يسمى بلدانًا إسلامية مستقلة؛ وباتت هذه البلدان تعاني من نظم تعليمية عتيقة ومعدلات بطالة هائلة، وليست المشكلات الأخرى والأمراض الاجتماعية وانعكاساتها الاقتصادية سوى أعراض لخلل النظم التعليمية والتشريعية والقضائية، وما زالت الدول القومية الإسلامية عاجزة عن تحقيق أيّ تقدم في إصلاح النظم القائمة التي خلفها الاحتلال والحرب الباردة بين الاتحاد السوفييتي وأمريكا.

وكانت المصالح الحزبية الضيقة وأوساط النظم الاستبداديّة في الدول القومية الإسلامية الغارقة في الفساد وراء تورطها عدة عقود في صراعات «القوى العظمى» السياسية، وبذلك أضاعت فرصَ بناءِ نظمها القانونية والسياسية الخاصة التي تيسِّر ربط النخبة الحاكمة بالقاعدة الشعبية لبناء نظام حكم متماسك.

القوانين الميتافيزيقية للعلوم الطبيعية: أبعاد الجهاد الغائبة

تركِّز المعارف الإسلاميّة القائمة على الوحي عمومًا على مبادئ العلوم الميتافيزيقية الغيبية التي لا يمكن فهمها وإدراكها كاملة بالقواعد والنظم الراسخة في الواقع أو الديناميكا الكونية، والحقّ أن مكتشفات

المعرفة العلمية بخصوصيتها واعتمادها على عجائب علمية كامنة في الحياة المادية أفادتنا جدًّا في فهم جوهر العلوم الميتافيزيقية والعِبر المستفادة من تدبير الله وتقديره للأشياء؛ والألوهية في الإسلام ليست مثلما هِيَ في الأفكار الدينية التقليدية، فلا أحد يدعي أيّ صلة ربانية مباشرة بالله سبحانه وتعالى، ولكن البشرية مثل «عوالم الوجود» الأخرى تتصل اتصالًا لا شك فيه بالذات العليا المسيطرة على الكون، وهذا الكون أو أي جزء من العالم لا يدعي ولا يمكن أن يدعي استقلاله الذاتي الكامل بتسيير أنظمته وحده.

والإنسان المخلوق المستقل الوحيد منفرد ماديًّا حقًّا، ومتصل بكلّ ما يحيط به بكل الأشكال الممكنة، إلا أن إنسانية هذه الصلة ربما هي محدودة جدًّا، أمّا الصلة بالسماء فهي متنوعة دائمًا ومستعصية على الفهم الكامل للعقل البشري، الأكثر اتصالًا بالفكر الغريزي البسيط منه بالآفاق الأوسع للحكمة والطرق الراقية في بلوغ مراتب أعلى من الحدس دون أي تحيزات أو آراء مسبقة؛ بل إن الحدس الأكثر حكمة وذكاء لا يمكن عدّه إلهامًا حتى يتم التعامل معه باعتباره الحقيقة المطلقة للظواهر والذوات الخفية أو التي لم تكتشف، فليس لأحد أن يحدد من هو أعلى منه في المعرفة، يقول كولن: ضد المعرفة الإنكار وضد العلم الجهل[١٦٢].

وفي كثير من البلدان والمجتمعات الإسلامية كثير من المفاهيم الخاطئة حول السبل التي يمكن أن يسلكها المرء في مسيرة تربوية وروحية وخبرات تبلغ به مراتب أعلى في المعرفة، وهناك رجال دين

(١٦٢) فتح الله كُولَن: التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، المجلد الثاني، «المعرفة»، نشر دار النيل التركية»، إسطنبول ٢٠١٢م، (لما يترجم عن التركية)، ص ١٤٠.

منحرفون يستغلون الخرافات في ممارسات تتعلق بالمعرفة، ويخدعون السذج لتحقيق مصالحهم الشخصية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، أما الروحانيون الحقيقيون فهم يمارسون فعلًا طرقًا مختلفة من المعرفة، وهذا له أثر كبير في تنوير أي روح إنسانية أو أي مجتمع بشري، وشاعت نظرة خاطئة تجاه المعرفة بأنها طريقة غير علمية للتعرف على حقيقة العالم المادي، وأنها نقيض الحقيقة الثابتة علميًّا.

يقول كولن: «عكس العلم هو الجهل، أما عكس المعرفة فهو الرفض والإنكار»؛ وإنكار الحقيقة الأساسية في الدنيا والآخرة له عواقب وخيمة على المواطنين أفرادًا، وعلى المجتمع كله أو الأمة كلها، والمراد إنكار الحقيقة المطلقة بأن الله ﷻ المصدر الوحيد للقدرة المطلقة، وأن المخلوقات كلها -علمت أم لم تعلم- خاضعة لقواعد وضعها المصدر نفسه، الرحيم الرؤوف بالخلق جميعًا؛ وحسن العمل يؤدي دومًا إلى حسن العاقبة، أما سوء العمل فليس له سوى سوء العاقبة، وهذا الأمر كأنه حقيقة علمية يمكن إثباتها في الحياة المادية الحقيقية على مستوى الفرد والأمم المختلفة، يقول كولن:

> "فمفهوم العلم الحقيقي هو المفهوم الذي يمدنا برؤية وتحليل شامل تجاه أي نظام من أنظمة الكون وأي جزء من أجزاء الوجود، في ظل الروحانيات والغيبيات، ويربط ذلك الجزء والنظام بجميع الأشياء. الأمر هكذا لأنه يحتوي على صيغة سحرية للقدرة تمكن من التوليف بين جميع أجزاء هذا الكل.. أجل، إن الإلهام والحدس اللذين يصدران من الجزء قد لا يكونان واضحين، لكن الكل يدل إلى تمامية وكمال نفسه"[(١٦٣)].

(١٦٣) فتح الله كُولَن: سلسلة العصر والجيل-٧، أفق يلوح منه النور، نشر دار النيل التركية، إسطنبول ٢٠١٠م، (لما يترجم عن التركية)، ص ٨١.

والواقع أنّه ليس من السهل ألبتة رعاية التوازن في الأنانية المادية أو دمجها في نظام تقبل فيه النخبة الحاكمة والفئات القوية الانقياد لقضايا الإنسانية الأكثر نبلًا وسموًّا وصونًا لمصالح القطاعات الشعبية الأكثر ضعفًا، لكن ما أسهلَ استعمالَ الدراية العلمية في أمور ضارّة، وقد ينتج عن سوء استخدام المعرفة العلمية الحديثة ألم وكرب شديد للفئات الفقيرة المعدمة المحرومة ممن يعجزون عن سداد التكلفة؛ ويتطلب إحداث أي تغيير قوي سريع في منظومة الإنتاج والتوزيع للسلع الأساسية في أيّ دولة دراسة وتفكيرًا جديدًا لحماية مصلحة الجمهور، وهنا تكون ملكة الخيال البشري أكثر قيمة وقوة للنهوض الكلي بالمجتمع، فبدونها يغدو الإنسان كالحيوان، ويحتاج كلّ إنسان مع الخيال إلى تربية ضميره على أشكال التواضع للآخرين والزهد المتزن لتغذية الجسد والروح؛ وليست المعرفة العلمية هي ما يخدم الفرد والمجتمع والدولة هنا بل فن الحياة والتمسك بالعادات السليمة وتجنب الخاطئة؛ وإذا أخفق المسلمون في تقديم تلك الخدمات للإنسانية، فسيخفقون حتمًا في شؤونهم الكبرى الدينية والدنيوية كلها، ويشير كولن هنا إلى هاتين الآيتين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ٥/٥٤)، **﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾** (سُورَةُ الفُرْقَانِ: ٢٥/٦٣).

وتشغل المراقبة -وهي طريقة المسلم في حياته وتفكيره- دورًا مهمًّا في العثور على المكان المناسب لحياة المسلم وعمله، وبدون هذا

المكـون الروحـي أو الغيبي في طريقة حياة المسـلم الشـخصية قد ينضم أي مسـلم إلى أي جماعة تسـتخدم العنف لإحداث تغيير جذري في بيئته الاقتصادية والسياسـية والاجتماعية، فعلى المسـلمين أن يفهموا ويغرسوا سـلوك المراقبة في حياتهم، الذي يسـاعدهم على إرساء السلام والابتكار في حياتهم كلها؛ إذ ليس من الإسلام الاعتقاد بأن علماء الدين وسطاء بين البشر وربهم، ويولي كولن هذا المفهوم اهتمامًا خاصًّا، يقول:

> "وطريـق المراقبة هو من أهم الطـرق القصيرة الموصلة إلى الحق سبحانه ودونما حاجة إلى مرشد ودليل، فهي مطعّمة بعينات الولايـة الكبـرى، وبواسـل هذا الطريـق يمكنهـم أن يتوجّهوا إلى الحق سبحانه في أي زمان ومكان، بعرضهم العجز والفقر فيُقبِلون إلى الخلوة بتذكرة الحاجة"(١٦٤).

وليـس فـي الأرض دين آخـر يتيح لك بلـوغ القبول عنـد إله الكون مباشـرة دون أي وكيـل أو وسـيط بينـك وبين الخالق الأعظـم، ورغم أن الإسـلام لا يقـر بـأي نظام كَهْنُوتـي فالاسـتعانة بموجِّه أو مرشـد روحي قـد تسـاعد المبتدئيـن على عبور الصراط المسـتقيم بأمـان، وتحول دون تعرضهم لأي انحراف عن الصراط في أثناء سيرهم إلى الله.

وإحسـاس «الفناء» ومفهوم «الإنسان الكامل» بوصفهما مرحلة نفسية أو حالة ذهنية قد يودِيان ببعض المسلمين في الضلال خاصة من يفتقدون التوجيه الديني أو الروحي، ففي غياب مرشـد ديني وروحي حيّ قد يجد المرء المساعدة مباشرة من خلال الاكتشافات العلمية المتاحة للاستخدام في منافع المجتمع أو الدولة بشكل عام، ومن يعيشون في ظروف مؤلمة

(١٦٤) فتح الله كولن: التلال الزمردية: نحو حياة القلب والروح-١، ص ١٠٧.

على وجه الخصوص، وأشق مهمة هي كيفية ربط الأفكار الميتافيزيقية والغيبية بالمعرفة العلمية الملموسة ذات القيود والحدود الخاصة، يقول كولن:

"ولنذكر مرة أخرى أن أهم مصدر للعلم والتفكير والفن بل والفضيلة والأخلاق والثقافة أيضا هو الغيب أو الفلسفة الميتافيزيقية الحقيقية التي يمكن إدراكها عبر أفق روحي على هذا النحو. وبفضل فلسفة كهذه هي قوتها ومؤيداتها نتاج خلفيتنا الفكرية، فإن الأجزاء التي تبدو فتاتا سوف تتوحد كلا واحدا ويستشعر كل شيء بشكل مخروطي بدءا من الدائرة اللاهوتية إلى آخر حدود في الإمكان، وتتولد إمكانية الانفتاح على بحور وفضاءات أوسع وأحب في إطار تفسيرات جديدة جدا. ولذا فإننا نستطيع القول إن المجتمعات التي تفتقر إلى بعض المفاهيم الميتافيزيقية والغيبية تعاني أزمة هوية"(١٦٥).

يمكن أن نستنتج أنَّ شعوبًا إسلاميَّة كثيرة فضلًا عن غيرها تعاني منذ زمن أزمة هوية حادة، فهي ليست مشكلة هوية خاصة بأمة أو بطائفة معينة، فالمسلم يمكنه بسهولة أن يقول: إنه شيعي أو سني، والسنيّ قد يكون حنفيًّا أو شافعيًّا أو مالكيًّا أو حنبليًّا، ولا تعني هذه الاختلافات شيئًا يذكر في الحقيقة أو في السير والسلوك، فهي في ممارسة الشعائر لا غير. نعم، هناك حتمًا شعائر كثيرة تعد جزءًا مكملًا للحياة الروحية الإسلامية، لكن ليس لأيّ منها وحده أن يفيد تلقائيًّا فاعلَها أيًّا كان مذهبه ما لم يُعقِّبْها بمنافع مادية ملموسة للأشخاص المعنيين ومجتمعاتهم.

(١٦٥) فتح الله كُولَن: سلسلة العصر والجيل-٧ أفق يلوح منه النور، نشر دار النيل التركية، إسطنبول ٢٠١٠م، (لما يترجم عن التركية)، ص ٨٢.

وما يمكننا أن نلاحظه اليوم في أرجاء العالم هو أننا كلما صرنا أكثر ثراء دولًا أو شعوبًا زادت مظاهر معاناة الفئات الأكثر فقرًا في المجتمعات كافّة بسرعة مخيفة لا تحتمل، فالفجوة بين الأغنياء والفقراء تزداد كل يوم وكل لحظة منذرة بعواقب خطيرة، منها إصابة الناس باليأس والعجز في ظل الحرمان من الغذاء ومياه الشرب والمأوى الكريم والتعليم الخُلُقي السليم والعلاج ولو لأمراض يسيرة قابلة للعلاج، حتى إن أناسًا طُردوا من أوطان أجدادهم إلى الأبد وكأنه تطهير عرقيّ، وليس لديهم مكان يلجؤون إليه بوصفهم بشرًا لهم كرامة ويفترض أن يُعنوا بأسرهم بنجاح ليكون لرسالتهم في الأرض معنًى بوصفهم كيانًا ماديًّا وروحيًّا متميزًا عن المخلوقات.

وأصبح خطاب الهوية والثقافة الإسلامية كله بأيدٍ خاطئة أو تحت تصرف مباشر لجهاز دولة معيب، وهذه الأزمة بدأت مبكرًا جدًّا أكثر مما نتصور، ويعد ظلم الاحتلال للمسلمين وجهًا من وجوهها الواسعة المعقدة التي تتغلغل بكل طاقتها في أوصال العالم الإسلامي، تقول كاثرين بولوك:

> "يعود هذا إلى خطاب القرن التاسع عشر حول التسلسل الهرمي للحضارات واعتقاد الأوروبيين تفوقهم وضرورة غزو الشرق الأوسط، وأصبح وضع المرأة هو المقياس لمكانة أي حضارة في هذا التسلسل، ووضع الإسلام دون رتبة المسيحية، ومسيحية الشرق نفسها دون المسيحية اللاتينية وأعلى من إفريقيا الوثنية والشعوب الأصلية للمستعمرات (أمريكا الشمالية، كندا، أستراليا)؛ فالمسلمات إماء لأزواجهن، ولا يسمح لهن برؤية أحد في المنزل سوى محارمهنّ، وفي الطرقات يغطين وجوههن

كلها، وصار مفهوم الحريم في الشرق الأوسط فكرة راسخة فعلًا لدى الخيال الجامح لقدامى المستشـرقين الأوروبيين، واعتمدت قصـص الحريـم الخياليـة هذه على عـداء يكنه مسـيحيو العصور الوسطى للإسلام، وأحيوه في القرن التاسع عشر، ويرون الإسلام دينًا متسـاهلًا في الطلاق والزواج أكثـر من مرة وتعدد الزوجات، وهذا عده الأوروبيون في العصور الوسـطى وفي العصر الحديث دليلًا على وضع الإسلام موضع الدين الباطل"[١٦٦].

ويعتقـد بعـض الناس اليوم حتى في بلدان إسـلامية أنّ الإسـلام دين باطـل فعلًا متأثريـن بعقلية المحتلّ والمعتقـدات العلمانية المتطرفة، وأن المسـيحية فاقـت مـا يسـمى بالديانات الشـرقية؛ ويدافـع كثيـر من علماء المسـلمين عـن الإسـلام بأنـه ليس ديانـة تقليدية كمـا يفهـم الأوروبيون أو الغربيون ألبتة، بل هو دين بمعنى طريقة حياة وتفكير وعمل تسير وفق مـا يحبـه الله على أسـاس الوحي والاجتهادات كمـا يتجلى ذلك في نهج الحياة النبوي، وهو أسـاس عام لأي مجتمـع أو دولة إن أُهمِل وقـع جيل الشباب في العنف، وهو أمر لا صلة له بأي أصل من أصول الإسلام.

تفنيد كولن لفرضية صراع الحضارات:

يـرى كولـن أن «من يتطلعون إلى مسـتقبل فاجـع للعالم وصراع بين الحضارات هم أفراد أو جماعات عجزت عن فرض تصورها للعالم على الناس، وتأمل في أن تؤدي الخصومات والعداوات العالمية إلى اسـتمرار قوتها في العالم»[١٦٧].

---

(166) Katherine Bullock, Rethinking Muslim Women and the Veil: Challenging Historical & Modern Stereotypes, Herndon, VA: The International Institute of Islamic Thought, 2003, pp. 18–20.

(167) Davut Aydüz, quoted in Ismail Albayrak, «The Juxtaposition of Islam and Violence,» Muslim Citizens of the Globalized World. Robert A. Hunt, Yuksel A. Aslandogan (eds.), New Jersey: The Light, 2006, p. 127.

والمؤسف أن كثيرًا من تلك الجماعات المضلَّلة ساسة ورجال دولة من المستويات كافّة، وتسمي أشكال العنف والإرهاب كلها «جهادًا»، وتطلق على المسلمين المتدينين المحبين للسلام صفة «الإسلاميين» أو «الجهاديين» أو «الأصوليين»، وإنما تمكن الغرب من استخدام تلك الدعاية ضد الإسلام لأن له اليد العليا في التكنولوجيا والإعلام، ويُعَد احتكار كثير من الغربيين اليوم لاستعمال التكنولوجيا الحديثة في أغراض تدميرية أمرًا خطيرًا على وجود العالم وبقائه؛ دعك من محاربة هذا الخطر بطرق ووسائل عنيفة، وإليك كيف يحاول كولن الحدّ من هذا النزاع بالحوار، فيرفض فكرة «صراع الحضارات» المصطنعة في المؤسسات الأكاديمية والإعلامية الغربية، وإن اعتقد كثيرون أنه مفهوم يدور حول حدوث صراع أو صدام بين الحضارات في الغرب ونشأ نتيجة لأفكار دينية عن أصل ظهور البشر في الأرض، وجاء في تحليل مقارن لبولوك:

> "ليس في الإسلام أي شيء منكر أو كريه في الجسد وشهواته، فالمرأة وإن شاركت في الخطيئة لم تعد مسؤولة عن الخروج من الجنة بل حُمِّل آدم المسؤولية، فليس في الإسلام خطيئة أصلية، وتجدر الإشارة إلى أن الإسلام -خلافًا للمسيحية التي تقدس مبدأ ذكورية صورة «الله الأب» ويسوع «الله الابن»، وللديانات التي تؤمن بالإلهة وتقدس مبدأ الصورة الأنثوية لله- لا يؤمن بمبدأ الذكورية أو الأنثوية للذات الإلهية، فالله في الإسلام لم يَلِد ولم يولَد"(١٦٨).

(168) *Katherine Bullock, p. 162.*

هذا أساس خلاف المسلمين والمسيحيين في قضايا الدين والحضارة، وانبثقت كثير من المذاهب المسيحية مثل الكنيسة التوحيدية العالمية وحركة الكويكرز أو الأصدقاء وغيرها من هذه الخلافات ذات الأصول المحدودة مع المسلمين، وكحال كثير من المسيحيين المتشددين وقع كثير من المسلمين الرجعيين أسرى لتلك المعركة الأيديولوجية التي لا تنتهي حول قضايا الحضارة، وغدا النزاع فيها بطشًا عسكريًّا من القوى العظمى على الشعوب الأصغر والأضعف، أما منهج الإسلام في السياسة والاقتصاد فهو ضد تلك الحروب الوحشية المفرطة غير المتكافئة، وهذا جعل كثيرين يطلقون على الإسلام وصف «دين التآلف والسلام والعدل»؛ وهو «دين الفطرة»[١٦٩]، وهذا المفهوم أوسع بكثير من ذاك الوصف؛ وقد أمر الله المسلمين بوضوح أن يأخذوا حذرهم في أقوالهم وأفعالهم خاصة في أمر الحرب أو العنف:

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٧/١٥٦-١٥٧)

ويوم كان العالم الإسلامي الأكثر قوة وتقدمًا في العالم خاصة بين القرن الثامن وعصر النهضة قدم المسلمون طويلًا إسهامات جليلة في

(١٦٩) كما يعرف الإسلام أيضًا باسم «الدين الحنيف»، أي الأصلي أو الأساسي.

مجـالات العلوم والتكنولوجيا كلهـا، بل تعاونوا مـع خصومهم وأعدائهم في نشر بيئات تعليمية وتربوية ملائمة أخلاقيًّا لكشف ما في كتاب الكون من ألغاز وأسرار مترسخة متغلغلة، لكن النخبة الإسلامية الحاكمة -وهي تسـتخدم المعرفـة العلمية فـي النهوض بالبشـرية كلها وتربيـة الآخرين- لطالمـا أهملـت مسـؤولياتها تجـاه شـعبها، ولـولا هـذا لما أمكـن بتلك السـهولة اسـتغلال ما قدمه المسـلمون للغرب من معارف وخبرات ضد مصالح المسـلمين أنفسهم، ويضحك كثير من الغربيين اليوم حينما يقول المسـلمون: إن علماءهـم وضعوا أسـاس العلوم الحديثة التـي بني عليها عالم التكنولوجيا الحديثة.

> "إن انتصـار المسـلمين فـي غرب الصيـن في القـرن الثامن مكنهـم من الاسـتفادة مـن تكنولوجيـا الصين يومئـذ مثل صناعة الـورق التـي نقلوهـا إلى العالم الإسـلامي كله، ومنه إلى أسـبانيا [الأندلس]، ثم إلى باقي أنحاء أوروبا، وغدا هذا الاكتشـاف ثورة هائلة أدت إلى انتشار المعرفة ودمقرطة عملية التعلم"(١٧٠).

واسـتمر تدفق انتشـار المعارف من الأقطار الإسلامية إلى باقي أنحاء العالـم بأشـكال شـتى نحو ألف سـنة، حتى عصـر هيمنـة الاحتلال على الشـعوب الإسلامية حديثًا، فجاءت آثاره البشعة على الشعوب الإسلامية عبـر الطرق المدمِّرة المكتشـفة حديثًا من السياسـة الدولية والدبلوماسـية والتكنولوجيـا؛ فحاولت عدة شـعوب إسـلامية أن تُعيق انتشـار الخبرات والتكنولوجيـا العلمية الحديثة في بلادهـا لحمايتها من الانحلال الخلقي

(170) Dilnawaz A. Siddiqui, «Middle Eastern Origins of Modern Sciences,» Muslim Contribution to World Civilization, Herndon, VA: The International Institute of Islamic Thought, 2005, p. 60.

الغربي ومن نظم تعليمية غربية لا أخلاقية في ظل سياسات متطرفة علمانية أو معادية للدين(١٧١).

وتعرَّت المعرفة العلمية والتكنولوجية من أي التزام في القيم والأخلاق العالمية، ولم تكن القوى الإمبريالية الغربية لتشن حربين عالميتين في النصف الأول من القرن العشرين بدون الإمكانات التكنولوجية التي ملكتها، ومنذئذ استمر البطش والوحشية في العالم الثالث والدول التي يسكنها المسلمون.

في عالم العولمة اليوم سهُل الاتصال بيننا خلافًا لما مضى، فصار أفضل أمل للبشرية هو تبني فكرة إيجاد عالم من السلام والتفاهم ينبذ أي اعتداءات قائمة على القوة، ويعزز حوار الحضارات؛ ومن المأمول أن تمثل الشعوب الإسلامية كلها قوة كبرى لردع الأعمال الإرهابية بأشكالها كافة في أنحاء العالم، وأن تتقدم القوى الغربية بإيقاف كل حروب العدوان على الشعوب الصغيرة، وحينئذ سنسمع صوت المثل العليا التي ينادي بها كولن يدوّي عاليًا في كلّ ركن من أركان هذا العالم.

---

(١٧١) كتاب «انحدار الغرب» (*The Decline of the West* - أو بالألمانية: *Der Untergang des Abendlandes*) للفيلسوف الألماني أوزفالد شبنجلر، نشر الجزء الأول منه في صيف ١٩١٨م، ثم قام شبنجلر بمراجعته سنة ١٩٢٢م، ونشر الجزء الثاني منه بعنوان «نظرات إلى تاريخ العالم» (*Perspectives of World History*) سنة ١٩٢٣م، ويدعي فيه أن المسلمين مجوس، وأن الحضارات المتوسطية القديمة مثل الإغريق والرومان هي حضارات أبولونية، وأن الغربيين المعاصرين فاوستيون.

وطبقًا للنظريات الواردة في هذا الكتاب، فنحن نعيش الآن في شتاء الحضارة الفاوستية، ومن وصفه للحضارة الفاوستية أن الناس يجاهدون دائمًا من أجل ما لا يمكن تحقيقه؛ وهذا ما يجعل الإنسان الغربي شخصية فخورة، لكنها مأساوية؛ لأنه وهو يجاهد ويبتكر يعلم في قرارة نفسه أن الهدف الحقيقي لا يمكن بلوغه مطلقًا. انظر:

http://en.wikipedia.org/wiki/The-Decline-of-the-West.

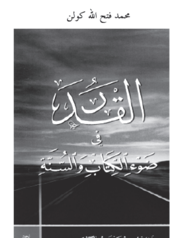

دار النيل

موسوعة العالم والمفكر الأستاذ فتح الله كولن

من أجل فكر حضاري، إيماني التوجه، علمي النزوع، إنساني الجوهر...

مدرسة فكرية يلتقي فيها العلم والعرفان، والعقل والوجدان، والفكر والحياة العملية...

القدر في ضوء الكتاب والسنة
محمد فتح الله كولن



26x31.5 سم – 140 صفحة – ISBN: 975-950-665212

التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح
محمد فتح الله كولن



21x14.5 سم – 244 صفحة – ISBN: 9789753153461

نحو عقيدة صحيحة
محمد فتح الله كولن



21x14 سم – 208 صفحة – ISBN: 9789753156592

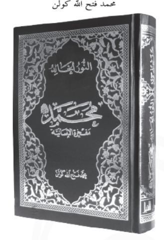
الردّ على شُبُهات العَصر
محمد فتح الله كولن



21x14 سم – 240 صفحة – ISBN: 9789753156165

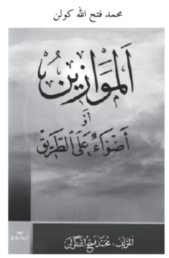
النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية


محمد فتح الله كولن



17x24.5 سم – 760 صفحة – ISBN: 9789753153560

الموازين أو أضواء على الطريق
محمد فتح الله كولن



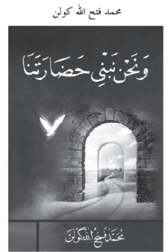
21x14.5 سم – 214 صفحة – ISBN: 978-975-315-087-3

روح الجهاد وحقيقته في الإسلام
محمد فتح الله كولن



21x14.5 سم – 144 صفحة – ISBN: 978-975-315-131-3

ونحن نبني حضارتنا
محمد فتح الله كولن



21x14.5 سم – 194 صفحة – ISBN: 9789753154369

حقيقة الخلق ونظرية التطور
محمد فتح الله كولن



21x14.5 سم – 136 صفحة – ISBN: 9789753152273

ترانيم روح وأشجان قلب
محمد فتح الله كولن



21x14.5 سم – 197 صفحة – ISBN: 978-975-315-163-4

طرق الإرشاد في الفكر والحياة
محمد فتح الله كولن



21x14.5 سم – 183 صفحة – ISBN: 9789753153492

ونحن نقيم صرح الروح
محمد فتح الله كولن



21x14.5 سم – 144 صفحة – ISBN: 9789753153485

أضواء قرآنية في سماء الوجدان
محمد فتح الله كولن

21x14.5 سم – 356 صفحة – ISBN: 9789753153515

ألوان وظلال في مرايا الوجدان
محمد فتح الله كولن



21x14.5 سم – 224 صفحة – ISBN: 9789753156103

فتح الله كولن

٢٢ج – جنوب الأكاديمية – شارع التسعين الشمالي – التجمع الخامس – القاهرة الجديدة – مصر

تليفون وفاكس : ٢٦١٣٤٤٠٢ الهاتف الجوال : ٠١٠٠٠٧٨٠٨٤١

www.daralnile.com

دار النيل

دراسات حول فكر الأستاذ فتح اللّه كولن

مؤتمر دولي
مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي
خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية



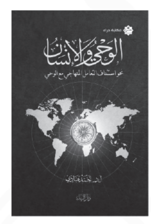
محاورات حضارية
حوارات نصية بين
فتح الله كولن وفلاسفة الفكر الإنساني

ذِي قُربتي
مقالات، وخواطر، وقصص من واقع الخدمة




الزمن والوقت
نصوص ومفاهيم مؤسسة على الرؤية الكونية
لفكر الأستاذ فتح الله كولن

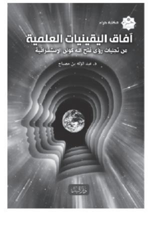
الوحي والإنسان
نحو استئناف التعامل المنهاجي مع الوحي



الانبعاث الحضاري
فى فكر فتح الله كولن



آفاق اليقينيات العلمية
من تجليات رؤى فتح الله كولن الاستشرافية



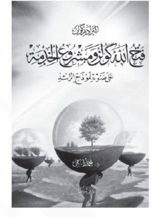
نداء الروح رحلة في عالم الفرسان



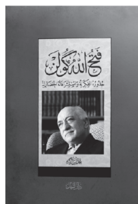
الضاربون في الأرض



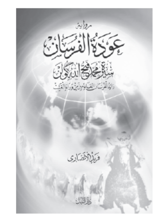
البراديم كولن
فتح الله كولن ومشروع الخدمة
على ضوء نموذج الرشد



فتح الله كولن
جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية



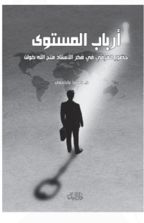
رواية
عودة الفرسان



هندسة الحضارة
تجليات العمران فى فكر فتح الله كولن



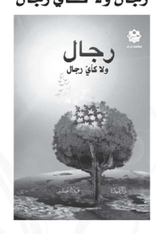
أرباب المستوى
الأكاديميا باعتبارها جماعة علمية



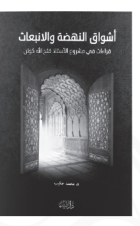
عبقرية فتح الله كولن
بين قوارب "الحكمة" وشواطىء " الخدمة"



رجال ولا كأيّ رجال



أشواق النهضة والانبعاث



فتح الله كولن :الرؤية والتأثير
تجربة فاعلة في المجتمع المدني



فتح الله كولن
رائد النهضة الراشدة في تركيا المعاصرة



فتح الله كولن في شؤون وشجون



٢٢ج - جنوب الأكاديمية - شارع التسعين الشمالي - التجمع الخامس - القاهرة الجديدة - مصر
تليفون وفاكس : ٢٦١٣٤٤٠٢ الهاتف الجوال : ٠١٠٠٠٧٨٠٨٤١
www.daralnile.com
دار النيل

شد الرحال لغاية سامية

21x14 سم

285 صفحة

ISBN: 9789776183223

إن العالم اليوم يحتاج إلى أبطال ذوي غاية سامية أكثرَ من احتياجه إلى شيء آخر.. أبطالٍ يندفعون بالرحمة والرأفة فيأخذون بيد أمتهم أولًا ثم بيد الإنسانية جمعاء.. أبطالٍ عندما يدعون الله ويتضرعون إليه لا يسألون لأنفسهم شيئًا، بل للآخرين.

٢٢ج – جنوب الأكاديمية – شارع التسعين الشمالي – التجمع الخامس – القاهرة الجديدة – مصر

تليفون وفاكس : ٢٦١٣٤٤٠٢ الهاتف الجوال : ٠١٠٠٠٠٧٨٠٨٤١

www.daralnile.com



السلام والتسامح في فكر فتح اللّه كولن



21x14.5 سم
160 صفحة

ISBN: 978-977-6183186

هذا الكتاب عبارة عن أربع دراسات لباحثين يعملون في الجامعات الغربية، ومقابلةٍ صحفية مطولة أجاب فيها الأستاذ فتح الله كُولَنْ بنفسه عن بعض الأسئلة المهمة التي طُرِحت عليه.

ويعد هذا الكتاب شهادة غربية بفكر فتح الله كولن؛ إذ البحوث الواردة فيه تمثل رؤية بعض الأساتذة الجامعيين في الغرب لجوانب من أفكار الأستاذ فتح الله كُولَنْ ونظرياته الإصلاحية، ورؤيته الإسلامية المنفتحة على الإنسانية كلها.

